

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية



عدد خاص بعيد العرش المجيد

السنة السادسة والخمسون - رمضان 1434 هـ / يوليو 2013 م

405

بسم الله الرحمن الرحيم

الأستاذ محمد المصراوي

سورة الباقية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْعَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 1 الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ 2 مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ 3 إِيَّاكَ
تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ 4 اهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ 5 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ
عَلَيْهِمْ 6 غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ 7

وَايَاتُهَا 7



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



ذكرى عيد العرش المجيد ستبقى رمزيتها شاهدة على تاريخ بطولي لشعب ملتحم تحت راية واحدة وعلى قلب رجل واحد، ملك يعيش للشعب وبالشعب. مواقفه ومبادراته ومنجزاته كلها تنبض بنفس الروح البطولية التي تحيي بها الأمة وتستمد طاقاتها وقوتها منها. كان الاحتفال بهذا العيد الوطني صدمة قوية في صدر الاستعمار ... وبالذكرى القضية لترجع جلالة المغفور له الملك محمد الخامس طيب الله ثراه لفظ الاستعمار أنفاسه الأخيرة على أرض المغرب، بحيث أضحي الاحتفاء بهذا العيد المجيد تحديا صارخا لكل المخططات التي كانت تنسجها أيادي المستعمر والمؤامرات التي ظل يحيكها ويتقن حياكتها حتى تبقى المملكة المغربية تحت نير الاستعمار وطوع سيطرته. لكن ملك البلاد بحكمته وتبصره وبعد نظره عرف كيف يخرق هذا الحبك ويشل هذه الأحابيل.

ذكرى عيد العرش لهذه السنة اكتست صبغة خاصة وسمة متميزة، أشعرت الأمة المغربية بأسرها أن هذه المناسبة الغالية عليها ليست ذكرى تتويج الملكية البرلمانية فحسب، بل تتويج كل المغاربة، بفنانينهم ومبدعينهم ومثقفينهم وكل من يعمل من أجل إعلاء كلمتها صادحة، ورفع أعلامها خفاقة بالنصر المبين على كل التحديات المرفوعة، والمخططات المعرضة المحدقة، ومشعرة بعظمة هذا الصرح الذي وضع لبناته الأساس أفذاذ الأجداد، وأعلى صرحه ملوك هذه الدولة الأمجاد.

لم تكن مجلة دعوة الحق في منأى عن مواكبة هذا الحدث المحوري في حياة الأمة المغربية، بل ما فتئت تخصص كل سنة حيزا هاما لهذا الحدث الحاسم في صفحاتها يتراوح بين البحث العلمي الرصين، والنبرش المنهجي في الذاكرة الجمعية والمخزون التاريخي لهذه الأمة الراسخة في العلم والحكمة، حيث كونت رصيда هائلا من المقالات والبحوث الأدبية والعلمية قل نظيره في هذا الباب.

وسيجد القارئ الكريم في هذا العدد بالذات ما يشفي غليله ويروي تعطشه لمعرفة المزيد عن تاريخ هذه الأمة وبطولاتها الخالدة على يد باحثين ومؤلفين وكتاب وأدباء ؛ وعن اللحمة والسدى اللذين يكونان أهم مقوماتها المادية والمعنوية انطلاقا من الإمارة الشرعية ومرورا بالثوابت العقدية والفكرية وانتهاءً بالقيم الحضارية والأخلاقية للأمة المغربية.

إمارة المؤمنين :

المشروعية والمسؤولية

مفهوم إمارة المؤمنين والملكية في المغرب

الأستاذ عبد السلام فيغو

رئيس المجلس العلمي المحلي لإقليم الفحص أنجرة

المقدمة :

يعالج البحث أهم القضايا التي تهم جميع المسلمين اليوم سواء كانوا حاكمين أو محكومين، ويتوقف عليه الاستقرار السياسي والسلام الاجتماعي في حياتنا المعاصرة، وهو يقوم على مبدأ هام وأساسي في دين الإسلام ألا وهو مبدأ الولاء للجماعة المسلمين والبيعة لإمامهم والطاعة لأولي الأمر منهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة الجاهلية"¹ وقال أيضا : "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"²، فواجب على كل مسلم أن يبايع وإلا فقد أثم ومات على ما يموت عليه أهل الجاهلية من عدم وجود أمير أو إمام له، ولا يرفع هذا الإثم إلا العمل بكل ما في وسعهم لإيجاد إمام المسلمين أو أمير المؤمنين ومبايعته³.

وإن المرء لا يكاد يتصور وجود نظام سياسي سليم، ودولة قوية مستقرة، وجماعة إسلامية دون أن يكون هناك عدل من الأمراء وطاعة من الرعية. فكانت البيعة في النظام السياسي الإسلامي عبارة عن تأكيد الطاعة من الأمة للخليفة، وهو من مبادئ الإسلام في السياسة.

واختيار موضوع مفهوم إمارة المؤمنين والبيعة، ليكون موضوعا لهذه الدراسة نابع من الأهمية التي يكتسبها هذا الموضوع بالنسبة للمسلمين عامة والمغاربة خاصة، والتي شكلت البيعة بالنسبة لهم الضامن لوحدة هذه البلاد، والميثاق الذي ربط دائما المغاربة بملوكهم وسلاطينهم.

والبيعة شكلت على الدوام تلك الرابطة الروحية الدينية التي جمعت بين المغاربة وملوكهم منذ الأدارسة وإلى قيام الدولة العلوية الشريفة ؛ ذلك أن المواطن المغربي يستشعر فيها ويستحضر ذلك

1 - رواه مسلم، ج 3، ص 1478.

2 - صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ج 3، ص 1478.

3 - محمد عبد القادر أبو فارس : النظام السياسي في الإسلام، ص 156.

العهد المقدس، والولاء المكين، والحب الصادق، والرباط القوي الذي يجمع بين الملك وشعبه الوفي، وبين العرش ورعيته المتماسكة على مدى أجيال وقرون.

وقد تحدث روم لاندو عن الملكية في المغرب، وعن العرش الشريف فيها فقال : "بعد سنة 1660م قامت الأسرة العلوية، وهي التي ما تزال تقوم على العرش الشريف، وقد بدا العلويون وهم سلاطين وأشرف في الوقت نفسه، على أنهم أصحاب حركة إصلاحية دينية، ولعل التفاعل بين الدين وتاريخ الأسرة قلما يتخذ من القوة في أي بلد إسلامي آخر ما يتخذه في المغرب، فإن سلطان المغرب هو أيضا إمام، أي أنه الزعيم الروحي للأمة، والواقع أن دوره الديني هو المصدر الأكبر لسلطانه"⁴.

والأسرة العلوية أسرة شريفة يرجع نسبها إلى سيدنا علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء، وقد حافظت هذه الأسرة على وحدة المغرب وبسطت رواق الأمن فيه، وأقرت علاقات دبلوماسية مستمرة مع مختلف الأقطار الأجنبية.

وللمغرب تاريخ قديم فيه كثير من الحوادث والأحداث التي لا تقل روعة عن الأساطير، وهي تروي قصة المغرب الخالدة منذ الفينيقيين الذين أسسوا دولة قرطاجنة سنة 1500 ق.م إلى الرومان الذين نازعوا القرطاجنيين فأسسوا مدينة طنجة، إلى البيزنطيين الذين حكموا المغرب حتى مجيء الإسلام.

وفي القرن السابع للميلاد بدأت الدعوة الإسلامية وبدأت معها عظمة المغرب التي تجلت في مقدراته خلال السيطرة العثمانية على العالم العربي أن يرد الهجوم ويحافظ على استقلاله. فكان كما يقول ليفي بروفنسال : "الدولة الإسلامية الوحيدة التي وعت نفسها على أنها أمة". لأن الإسلام كما يقول روم لاندو : "هو الذي مكن المغرب أكثر من أي عامل آخر، لكي يصبح أمة لها ميزاتها الحضارية الخاصة ولها قوة يحسب حسابها"⁵.

وعن هذه الناحية بالذات يتحدث الأستاذ محمد شرف الدين في كتابه 14 يوما في المغرب فيقول : "إن المعجزة التي أدهشت المؤرخين هي إقبال المغاربة على الإسلام يتخذونه دينا يتقيدون

4 - عبد الله عنان : التجربة المغربية، ص 15 وما بعدها.

5 - مشار إليه في كتاب التجربة المغربية، لعبد الله عنان، المرجع السابق.

بأوامره ونواهيه، حتى بلغ من امتزاجهم بإخوانهم في الدين أن مدوهم بأرواحهم يبدلون في سبيل نصرة دولتهم وتأييدها ورفع أعلامها أينما توجهوا فاتحين منصورين"⁶.

إن الدول التي تعاقبت على حكم المغرب قبل الإسلام لم تخضعه ولم تسيطر عليه سيطرة كاملة، وإنما كانت تؤسس على شواطئه بعض مراكز السيطرة والنفوذ.

وبعد أن نشر الإسلام رايته على المغرب تأسست فيه دول إسلامية تعاقبت على الحكم فيها أسر مالكة منهم الأدارسة⁷ والمرابطون والموحدون، والمرينيون، والوطاسيون والسعديون، والعلويون.

فالملكية في المغرب عرش عمره أكثر من 1300 سنة، ويبدأ تاريخ الأسرة العلوية في المغرب مند سنة 1660م حتى اليوم، حيث تعاقب على الحكم في هذه الدولة عدة سلاطين حتى عام 1999 حيث تولى جلالة الملك سيدي محمد السادس حفظه الله ونصره، فكان وفيًا لرسالة الأسرة العلوية في حفظ كيان المغرب، وتعزيز وحدته، والعمل على تطويره وازدهاره، وكان وما زال في هذه المجال استمرارًا لمن سبقه من ملوك هذه الأسرة الشريفة.

يقول ر. مونطاني في كتابه ثورة في المغرب: "إن الملوك الكبار من مختلف العائلات الحاكمة التي تعاقبت على المغرب استطاعوا تثبيت سلطة واسعة ومهيكلية منحت استقلالًا ذاتيًا لم يستطيع أي بلد إسلامي آخر تحقيقه والحفاظ عليه عبر التاريخ"⁸.

أما الحماية الفرنسية فقد فرضت على المغرب في 30 مارس 1912، حيث اتفقت فرنسا مع إسبانيا على اقتسام البلاد. وعاش المغرب في ظل الحماية فترة قاسية من الكفاح والجهاد في سبيل التحرر والاستقلال، حتى انتزعه ببطولة نادرة وكفاح مثير في 2 مارس 1956 بقيادة جلالة الملك

6 - عبد الله عنان : المرجع السابق.

7 - يقول ألفونسو لاسيرنا في كتاب جنوب طريفة : المغرب - إسبانيا سوء فهم تاريخي : "يعتبر الأدراسة أول أسرة حاكمة ظهرت في المجال الترابي الذي سيدعى يوما المغرب ... وإدريس الأول هو عربي سليل النبي محمد قدم من المشرق سنة 788 م واستقر بوليلي حيث بايعته قبيلة من أهم قبائل المغرب تدعى أوربة إماما للمؤمنين وحاكما عليها معلنا بذلك تحول المغرب من النظام القبلي إلى نظام الدولة، حتى لو كانت هذه الأخيرة بالمفهوم القديم، أي الدولة المدنية". انظر :

Alfonso de la Serna : *El sur de tarifa : marruecos-España, Un malentendido historico*. p. 94.

8 - ثورة في المغرب، ص 117.

الراحل المغفور له محمد الخامس، طيب الله ثراه، والمغفور له ووريث سره جلالة الملك الحسن الثاني رحمة الله عليه.

ومن حسن حظ المسلمين أن الإسلام وضع قواعد حفظ الكيان الإسلامي منذ عهد النبوة، فالكيان الإسلامي ينطلق من "البيعة" وهو لذلك ينكر الفتنة الناشئة عن الشقاق والعصيان.

ولا غرو أن يسير المغرب على هذا السلوك الذي يستمد من موقعه كبلد مسلم، حمل لواء الدعوة الإسلامية في مختلف العصور، ونشرها في أرجاء أوربا، وخاصة في بلاد الأندلس، وبثها في ربوع القارة الإفريقية عبر صحرائه العزيزة المسترجعة التي كانت الجسر الذي عبر منه الإسلام إلى إفريقيا، لينشر فيها قواعد إيمانية وأخلاقية قديمة، وقيم فيها حضارة الإسلام عقيدة صافية، وأحكاما ربانية، ومذهبا مالكيًا ووجدانا صوفيا، فكانت الصحراء لذلك صلة الوصل، وهي الصلة التي لا يجوز أن تقطع، لأنها صلة التاريخ، وصلة الرحم، وصلة البيعة التي عقدها آباؤنا بين شمال المغرب وجنوبه لملوك هذه الدولة الشريفة، التي أحيت أمجاد المغرب، وحافظت على كيانه، ودافعت عن حدوده، وحاربت الاستعمار، وحققت الاستقلال، ووضعت حدا لنهاية الحجر والحماية، ونظمت المسيرة الخضراء إلى الصحراء، ووضعت بذلك حدا لاستعمار هذا الجزء الغالي من الوطن.

والمغرب عندما يرفع شعار بيعة أهل الصحراء لملوكه في نطاق إثبات الوحدة الوطنية طبقا لحكم محكمة العدل الدولية في الموضوع، إنما يستعمل مصطلحا من مصطلحات الفقه السياسي الإسلامي كما فهمه المسلمون من عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما نص عليه القرآن، وتحدثت به الرواية الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكما تمثل ذلك في سيرة الرسول الأعظم نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام الذي كانت سيرته تطبيقا عمليا للقرآن.

وها هو المغرب اليوم يتابع كفاحه بقيادة جلالة الملك محمد السادس، حفظه الله ورعاه، ليحقق حلم الملك الراحل ببناء المغرب المستقل، وتركيز دعائم الدولة المغربية على أسس ثابتة اقتصاديا وسياسيا وعمرانيا وأخلاقيا، تحقق الرفاهية والازدهار للشعب، فيلعب المغرب دوره البارز في سبيل الإسلام والعروبة والعالم.

فالأسرة العلوية - كما قلنا - حفظت للمغرب وحدته واستقلاله، والملك الحسن الثاني قاد نهضته الحاضرة، والتي استمر في قيادتها وريث سره جلالة الملك محمد السادس ساعيا إلى جمع

الشمول وتوحيد الكلمة وتحقيق اتحاد وطيد الأركان ثابت البنيان لا تنال منه الأهواء وإن عظمت، ولا تعصف به النزاعات وإن اشتدت وقويت، فهو يدرك كوالده أهمية هذه الوحدة التي كانت ولا تزال حصن المغرب الحصين، تكسرت على صمودها ألاعيب المستعمر ومحاولاته لتفارقة الصفوف وتجزئة الشعب، وتنكسر اليوم على صخرتها جميع المشاكل والمصاعب فيقف الشعب المغربي بقيادة جلالة الملك محمد السادس صفا واحدا يؤازره في مشاريعه الإنمائية ومناهجه التقدمية.

1- مفهوم إمارة المؤمنين :

الملكية والإسلام عنصران أساسيان داخل البنية المركزية للنص الدستوري، وهى حقيقة شرعية تاريخية وسياسية واجتماعية يعكسها الجذر المجتمعي لهذه المكونات، وعلى أساس ذلك كان الإسلام والمؤسسة الملكية أهم الثوابت المحورية التي تؤطر الحياة السياسية والتي تغطي بإجماع أهل الحل والعقد بالمغرب، وتؤكد على الربط المحكم بين الإسلام ونظام الحكم ممثلا في إمارة المؤمنين.

لقد ذهب الفقه الإسلامي إلى وجوب الإمامة، وأنها ضرورة لبقاء الدين وحفظ مصالح المسلمين، وعلى هذا جميع أهل السنة، وجميع المرجئة وجميع الشيعة، وجميع الخوارج، وإن على الأمة - كما ذكره ابن حزم - الانقياد لإمام عادل يقيم في الناس أحكام الله، ويسوسهم بالشريعة المطهرة، ومصدر الإمامة عنده نصوص الكتاب والسنة، ومقتضيات العقل والإجماع، فأدلة وجوب نصب الإمام في الشريعة كثيرة، وهي من المسائل المجمع عليها بين أهل الإسلام، ولم يخالف في ذلك إلا نفر من أهل البدع، وتذرعوا في ذلك بافتراض ذهني لا وجود له على أرض الحقيقة، حيث زعموا عدم وجوب نصب الإمام إذا ما استقام الناس وتناصفوا فيما بينهم.

معنى الإمامة :

الإمامة لغة : من أم القوم، وأم بهم تقدمهم، والإمام كل من ائتم به قوم ؛ كانوا على صراط مستقيم أو كانوا ضالين ... وإمام كل شيء قيمه والمصلح له، والقرآن إمام المسلمين، وسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الأئمة، والخليفة إمام الرعية، وإمام الجند قائدهم ...⁹.

9 - انظر لسان العرب، تأليف محمد بن مكرم بن منظور، ط. دار صادر، بيروت، 25/12.

وأما الإمامة في الاصطلاح ؛ فقد شاع في عرف الفقهاء أن الإمامة في الأصل مرادفة لكلمة الخلافة، وقد عرف العلماء الخلافة بتعريفات من أشهرها تعريف الماوردي بأنها : "نيابة عن صاحب الشرع في إقامة الدين وسياسة الدنيا بها"¹⁰.

ويرادف لفظ الإمامة في المعنى مصطلح الزعامة الكبرى، والولاية العامة كما قال القلقشندي في كتابه مآثر الأنافة¹¹، وكذلك الملك أو الولاية العظمى أو الرئاسة ونحوها، كما حقق ذلك الأستاذ عبد القادر عودة¹².

والإمام أو الخليفة وكذا الإمامة أو الخلافة لفظان مختلفان مبني، مترادفان معنى، يضاف لكل واحد منهما من الأحكام ما يضاف للآخر، والإمامة كما عرفها إمام الحرمين : "رئاسة تامة وزعامة عامة تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا"¹³، وعرفها الماوردي بقوله : "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا"¹⁴. غير أن المراد بالإمامة أعم وأشمل من الخلافة والسلطان والولاية، كما قد يتبادر إلى الأذهان، فهي تعني الرياسة الشرعية للأمة الإسلامية في حفظ الدين وسياسة الدنيا، وحسب ابن خلدون فهي : "حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"¹⁵. ولا شك أن هاتين الوظيفتين موكولتان في الدين الإسلامي إلى أولي الأمر من المسلمين، الذين تجب طاعتهم في المعروف لقوله تعالى في كتابه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾¹⁶ وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي عند تفسير هذه الآية : "والتحقيق في معنى

10 - الأحكام السلطانية، ص 5، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر، القاهرة، 1392 هـ.

11 - ج 1، ص 8، طبعة الكويت، 1985.

12 - الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص 93-94، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1401 هـ.

13 - غياث الأمم في التياث الظلم، ص 73.

14 - الأحكام السلطانية، ص 5.

15 - مقدمة ابن خلدون، ص 151.

16 - سورة النساء، الآية 59.

الآية الكريمة أن المراد بأولي الأمر ما يشمل العلماء والأمراء، لأن العلماء مبلغون عن الله وعن رسوله، والأمراء منفذون، ولا تجوز طاعة أحد منهم إلا فيما أذن الله فيه...¹⁷.

ومن المعاصرين من عرف عقد الإمامة بأنه: "عقد حقيقي غايته تولية الخليفة السلطة العليا"، كما قرر أن هذا العقد الحقيقي هو بين الخليفة والأمة، وينتج عنه أنه تكون فيه سلطة الخليفة مستمدة من الأمة¹⁸. وهذه التعريفات كلها تتناول حقيقة واحدة هي وجوب نصب الإمام في الشريعة.

وتنعقد الإمامة بثلاثة أمور لا بأمر واحد :

الأمر الأول : البيعة من أهل الحل والعقد :

فالبيعة تكون من أهل الحل والعقد وليست البيعة من كل أحد، بل يكفي أهل الحل والعقد، وهم أهل العلم، وأهل الرأي، وقادة الأمة، فإذا بايع أهل الحل والعقد لزمت البيعة لجميع المسلمين، لأنهم جسد واحد وأمة واحدة، يسعى بذمتهم أذناهم، وهم يد على من سواهم. وهذا النوع هو الذي تم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فإن خلافته ثبتت بالبيعة والاختيار.

الأمر الثاني : مما تثبت به البيعة ولاية العهد :

أي إذا عهد ولي الأمر من بعده إلى شخص يخلفه لزمت إمامته بعهد من قبله. وهذا مثل عهد أبي بكر رضي الله عنه، فإن أبي بكر لما حضرته الوفاة عهد إلى عمر ابن الخطاب، فلزمت بيعته بذلك العهد.

الأمر الثالث : مما تثبت به البيعة الغلبة :

فإذا غلب على الناس رجل بسيفه حتى أذعنوا له، لزمت طاعته، ولزمت إمامته، درءا للفتنة والشر، ومثال ذلك ولاية عبد الملك بن مروان، فإن عبد الملك بن مروان تغلب على الناس بسيفه وأطاعه المسلمون وخضعوا له وصار خليفة بالغلبة.

فالولاية تثبت عندهم : إما بالبيعة والاختيار، وإما بولاية العهد، وإما بالتغلب.

17 - أضواء البيان، ج1، ص 329، دار الفكر للطباعة النشر، بيروت، 1414هـ.

18 - سعيد حوى، الإسلام، ص 143.

ومن الخصوصيات والتقاليد التي انفرد بها المغرب، دون سواه من الأقطار العربية والإسلامية، منذ أن تأسست به الدولة الإسلامية، ظاهرة البيعة التي يتم بموجبها تنصيب العاهل الجديد طبقا لشروط وحيثيات شرعية وفكرية وشخصية لا بد من أن يتوفر عليها هذا الأخير في مقابل الالتزام بالطاعة والانقياد للأوامر من قبل كافة السكان، يقول مؤرخ مكناس مولاي عبد الرحمان بن زيدان في هذا الصدد: "كان المغرب ولا يزال منذ فتح الإمام أبو العلاء المولى إدريس القطر المغربي ونشر بين ربوعه وأرجائه تعاليم الشريعة الإسلامية، ومبادئ الديانة الحنيفة، يحتفظ بنظام مصون لبيعة ملوكه الذين تتجدد عروشهم وينصبون أئمة يخلفون كل من قضى الله بوفاة"¹⁹.

والبيعة كلمة عربية الأصل، والمادة اللغوية الأساسية للبيعة هي (ب) (ي) (ع). وفي لسان العرب لابن منظور²⁰: "البيع بضد الشراء، والبيع الشراء أيضا وهو من الأضداد، وبعث الشيء شريته، أبععه بيعا ومبيعا وهو شاذ وقياسه مباعا، والابتياح الشراء.

وفي الحديث: "لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ولا يبيع على بيع أخيه"²¹.

فالبيع في أصل معناه اللغوي يبعث في الدهن تصورا تجتمع فيه معاني منها:

- وجود طرفين يتعاقدان الصفقة.

- وجوب شيئين يتبادلها الطرفان في العقد.

- وجود الرضا التام من طرفي العقد بحيث يشعر كل واحد منهما بأنه يأخذ الشيء الأثمن مقابل إعطائه الثمن للآخر.

وبذلك يمكن اعتبار كل واحد منهما بائعا ومشتريا في نفس الوقت سواء أكان ذلك في شكل مبادلة مال بمال، أو في شكل معاهدة يتبادلون بها الحقوق والواجبات بالحقوق.

19 - انظر ابن زيدان عبد الرحمان، العز والصولة في معالم نظم الدولة، المطبعة الملكية، الرباط، 1961، ج 1، ص 8. وانظر كذلك: Laroui (A.), *les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain*, éd. Maspero, Paris, 1977, p 71.

20 - لسان العرب لابن منظور، ج 9، ص 371، طبعة مصورة عن طبعة بولاق.

21 - وفي رواية مسلم: "لا يبيع الرجل على بيع أخيه ولا يخطب على خطبة أخيه"، صحيح مسلم بشرح النووي، ج 10، ص 159.

وأما البيعة فهي الصفقة على إيجاب البيع، وهي أيضا الصفقة على إيجاب الطاعة لأولي الأمر، قال ابن منظور²² : "والبيعة الصفقة على إيجاب البيع وعلى المبايعة والطاعة، والبيعة : المبايعة والطاعة، وقد تباعوا على الأمر كقولك أصفقوا عليه، وباعه عليه مبايعة عاهده، وباعته من البيع والبيعة جميعا والتبايع مثله، في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : "ألا تباعوني على الإسلام ؟" وهو عبارة عن المعاهدة والمعاقدة، كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصة نفسه وطاعته ودخيل أمره"²³.

والأمر أو الشيء الذي تقع عليه عملية البيع أو المبايعة يسمى في العرف اللغوي التجاري "صفقة". ولقد كان من جاري العادة والمألوف عند العرب في حال إتمام عقودهم التجارية بدلا من التسجيل في صك أو الختم أو التوقيع أن يصفح البائع المشتري بقوة، إذ يلقي أحدهما بكفه إلى الآخر وكأنهما يصفقان، ومن هنا جاءت كلمة الصفقة²⁴.

ولقد ترقى القرآن الكريم في نقل الصورة المادية للبيع أو المبايعة إلى أفق أعلى وسماها فوق المدلول المادي المتعارف عليه، إذ قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعكم الذي بايعتم به﴾²⁵.

ولتوضيح ماهية البيعة في النظام السياسي الإسلامي يقول العلامة ابن خلدون : "البيعة هي العهد على الطاعة، كأن المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر في نفسه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكروه"²⁶.

وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده، تأكيداً للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي بيعة، مصدر باع، وصارت البيعة مصافحة بالأيدي، هذا مدلولها في عرف اللغة والشرع.

22 - لسان العرب، ج 9، ص 374، طبعة بولاق.

23 - ابن منظور، المرجع السابق.

24 - محمد علي قطب، بيعة النساء، ص 11، مكتبة القرآن، الطبعة الأولى.

25 - سورة التوبة، الآية 111.

26 - المقدمة لابن خلدون، ص 209، طبعة مصطفى محمد بمصر، بدون تاريخ.

ويقوم الدكتور منير العجلاني : "البيعة هي أن يظهر الناس الرضا بالخليفة والخضوع إليه، وهي ليست - كما يتوهم بعضهم - انتخاباً أو تفويضاً أو توكيلاً بالخلافة، وإنما هي الموافقة على الأمر الواقع والتسليم به، وإذا كان لها معنى من معاني الانتخاب، فإنه لا يظهر إلا في حالة السلبية وذلك أن ترفض الأمة البيعة - أي الطاعة، فيكون هذا بمنزلة حجب الثقة عن الخليفة، وقل أن يفعل أحد ذلك لما يخشاه الناس على أنفسهم من انتقام الخلفاء ومن نسبتهم إلى الخروج عن الجماعة وشق عصا المسلمين"²⁷.

فالبيعة في إطارها العام تتكون من ثلاثة عناصر رئيسية :

أولها : الطرف الذي أخذت البيعة له وهو الشخص الذي يتولى منصب الإمامة.

وثانيها : الطرف الذي أعطى البيعة لمن يستحق الإمامة وهم أهل الحل والعقد خاصة وجماهير الأمة الإسلامية عامة.

وثالثها : موضوع البيعة وهو إقامة نظام الخلافة الإسلامية وفقاً لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ويمكن صياغة تعريف عام للبيعة بأنها العهد المتبادل بين الإمام والأمة الإسلامية في إقامة نظام الخلافة الإسلامية، وهي عبارة عن ميثاق الولاء للنظام السياسي الإسلامي أو الخلافة الإسلامية والالتزام بجماعة المسلمين والطاعة لإمامهم.

والمفهوم السياسي المعاصر للبيعة هو إظهار الولاء العام للنظام السياسي الإسلامي الواقع فعلاً وعدم الخروج عليه، أو العهد من جماهير الأمة الإسلامية على الطاعة لإمامهم الشرعي الذي يتولى منصبه بإحدى الطرق الشرعية.

وبعبارة أخرى هي الموافقة والرضا من الأمة الإسلامية وجماعة أهل الحل والعقد على الشخص المستوفي لشروط الإمامة ليكون إماماً للمسلمين أو خليفة في نظام الخلافة الإسلامية.

ويتضح المفهوم الاصطلاحي للبيعة في النظام السياسي الإسلامي بتقسيم البيعة إلى صورتين وهما بيعة خاصة وبيعة عامة.

27 - منير العجلاني، عبقرية الإسلام في أصول الحكم، ص 161، الطبعة الثانية، 1965، بيروت، دار الكتاب الجديد.

1- البيعة الخاصة : يقوم بها أهل الحل والعقد في الأمة الإسلامية وهي عبارة عن تولية الإمام عن طريق الاختيار منهم، وهذه البيعة بمثابة إعلان الموافقة منهم لشخص الإمام، وهي متقدمة على البيعة العامة زمنا واعتبارا، ولكن هذه البيعة الخاصة لا تعتبر شرعية إلا من خلال حرية الاختيار دون الإكراه.

2- البيعة العامة : وهي البيعة التي تأتي بعد البيعة الخاصة وتكون عامة لجميع الناس في الحواضر والبوادي، يأخذ الخليفة البيعة منهم بنفسه أو من ينبيه عنه²⁸، وهي عبارة عن إعلان الولاء والطاعة والاعتراف بالأمر الواقع وعدم الخروج على الجماعة.

لقد تم اختيار أبي بكر الصديق بعد المناقشة الحامية الكبرى التي تمت في سقيفة بني ساعدة وانتهت باختياره أول رئيس للدولة الإسلامية، حيث كان يوم السقيفة هذا يوما مشهودا في التاريخ السياسي لدولة الإسلام، فيه ظهر الفكر السياسي، والحوار الحر، ويتصل بهذا الاعتبار أن النقاش الذي دار في السقيفة لاختيار من يخلف الرسول صلى الله عليه وسلم جعل المفاضلة بين المرشحين قائمة في المحل الأول على الإسلام من حيث السبق إليه والتضحية في سبيله، وعلى القبيلة من حيث موقعها من رسول الإسلام، وموضعها بين القبائل العربية في المحل الثاني، واعتبار العاملين يعد مزجا بين الفكر والقوة اللذين يستقيم بهما وجوب الدولة ويعتدل بهما قوامها²⁹.

وفي اليوم الثاني خطب أبو بكر في المسجد، موضحا سياسته التي تقوم على مبدأ الطاعة، وطلب من المسلمين مساعدته في إحقاق الحق وإنصاف المظلومين. وقد أعلن أبو بكر سياسته التي عول على إتباعها في هذه الخطبة القصيرة الجامعة التي خطبها في مسجد الرسول على إثر أخذ البيعة العامة في اليوم التالي لاجتماع السقيفة هذا نصها : "أيها الناس إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، ولا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم..."³⁰.

28 - الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس : النظام السياسي في الإسلام، ص 313.

29 - كانت القوة آنذاك ممثلة بقوة القبيلة وعصبيتها، ويمكن أن تكون القوة ممثلة بتكتل قبلي أو سياسي أو غيره مما يختلف باختلاف الزمان والمكان، وعندما فسر ابن خلدون "الأئمة من قريش" رد ذلك إلى قوة العصبة التي كانت آنذاك لقريش، ابن خلدون، المقدمة، ص 145 وما بعدها.

30 - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، 1/169، ابن هشام، 4/203، تاريخ الطبري، 3/210.

تلك هي بيعة أبي بكر رضي الله عنه، إنها أحسن بيعة وأجمل بيعة، وكان انتخاب أبي بكر انتصارا لنظام الانتخاب الحر للخليفة، وانسجاما مع التقاليد القبلية التي تؤكد على اختيار الشيخ لسنه وخدماته ونفوذه، ويؤكد هذه الحقيقة حين احتج علي بن أبي طالب على البيعة لأبي بكر، أجابه أبو عبيدة بن الجراح قائلا : "يا ابن العم إنك حديث السن وهؤلاء مشيخة قومك ليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور"³¹.

كما أن موقف المهاجرين من غير الهاشميين اعتمد مبدأ السابقة في الإسلام كأساس لاختيار الخليفة بالأسلوب والصفات التي كان يختار فيها رئيس القبيلة.

وقد تناولت الفرق الإسلامية مسألة حكم منصب الخلافة، وقضت بوجوبها، إلا الأصم المعتزلي فإنه قال : "لو تكاف الناس من النظام لاستغنوا عن الإمام"³².

وتعرض لمسألة حكم منصب الخلافة ابن حزم³³، والماوردي³⁴، وابن خلدون³⁵ وغيرهم كثير، والملاحظة الأخيرة في مؤتمر السقيفة أن الجانبين كانا يلتزمان حلا لمشكل الخلافة وظلت الخلافة تبعا لذلك في قریش أيام الخلفاء الراشدين، والأمويين والعباسيين، ولم تخرج عنهم إلا عام 1517م/923هـ، عندما أعلن بها سلاطين بني عثمان.

ومع أن مؤتمر السقيفة حصر بطريقة غير مباشرة الخلافة في قریش، ويكون بذلك قد ضيق دائرة المرشحين لمنصب الخلافة، فإنه لم يبين طريقة اختيار الخليفة وسكت عن هذه القضية سكوتا تاما، وإذا ما استثنينا ما جاء في القرآن والسنة من الثناء على الشورى، وذم الاختلاف والفرقة، لا نجد فيها كذلك بيانا لطريقة اختيار الخليفة، وقد يكون ذلك من يسر الإسلام الذي ترك هذه القضية لنظر المسلمين واجتهادهم يقضون فيها وفق أنفع السبل وأجداها لهم في كل عصر، وإذا كان كذلك فكيف جرى اختيار خلفاء الدولة الإسلامية عبر مسيرة التاريخ الإسلامي الطويلة ؟

31 - ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج 1، ص 19، المسعودي، مروج الذهب، 297/2.

32 - الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل : مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، 149/2 تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، 1969.

33 - الفصل في الملل والأهواء والنحل.

34 - الأحكام السلطانية، ص 5.

35 - المقدمة، ص 144.

قيل في استخلاف أبي بكر أنه تم بطريقة الانتخاب الاستشارية، وأن استخلاف عمر كان بطريقة العهد إليه من أبي بكر، وكان استخلاف عثمان قد تم بطريقة الاختيار الشوري، وقيل في استخلاف علي بن أبي طالب أنه انتخاب عارضه فريق من الأمة، هذه الاختيارات لم تتم كما نرى وفق منهج واحد أو حسب طريقة واحدة منظمة³⁶.

ومنذ تغلب معاوية على الحكم صارت الخلافة ملكا وراثيا³⁷ محصورا ضمن البيت الواحد تكون في الغالب بعهد من الخليفة القائم إلى الأقرب فالأقرب من آل بيته، ثم تأتي بيعة الناس تاليا، وسار بنو العباس على سنة الأمويين، ولم يشذ الفاطميون عنهم ولا العثمانيون، وكان الفاطميون، وغيرهم من طوائف الشيعة، أحرص الناس على الالتزام بمبدأ الوراثة في الحكم. وحصر السلطان في البيت الواحد كان هو الطابع المسيطر في الحالة السياسية للمجتمع الإسلامي منذ عصر بني أمية وحتى إلغاء الخلافة الإسلامية عام 1343هـ/1924م.

ولم تتجاف الإمارات والدويلات الإسلامية عن ذلك وحصرت الحكم في بيوتها، وسار على نهج توريث الحكم الأغلبة، والطولونيون، والإخشيديون، وبنو حمدان، والبويهيون، والسلاجقة، والسامانيون، والغزنويون، وأمثالهم من الإمارات الإسلامية الأخرى.

وخلاصة القول أن القرآن والسنة لم يعينا طريقة لاختيار الخليفة، وظل الأمر متروكا للأمة، وليس من طبيعة الفكر الإسلامي، ولا من خصائصه أن يفرض على الأمة طريقاً يسلبها حقها في الاختيار، وليس من طريق إلا طريقاً تختار فيه من تهواه وتبايع فيه من ترضاه، وهو تأكيد على إيمان الرسول صلى الله عليه وسلم بتطور الأنظمة السياسية للأمة خلال مسيرتها التاريخية.

2- إمارة المؤمنين وموضوع البيعة :

من المعلوم أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لقب بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن المعلوم أيضا أن إمارة المؤمنين تقوم على البيعة التي هي عقد بين الأمة ومن يتولى تسيير أمورها فهي تستمد مشروعيتها من إجماع علماء الأمة الإسلامية منذ عهد الصحابة.

36 - انظر الطبري، ج 4، ص 365 وما بعدها، وج 4، ص 427 وما بعده.

37 - الدوري عبد العزيز : النظم الإسلامية، ص 37، الطبعة الأولى، مطبعة بخيت، بغداد.

والذائع أن أول من لقب بأمير المؤمنين وعرف به هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه³⁸. وقد سمي بهذا الاسم لسببين :

أحدهما : كراهية الاستئثار لما روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : كان أبو بكر رضي الله عنه يقال له خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يقال لي خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يطول هذا، فقال له المغيرة بن شعبه : أنت أميرنا ونحن المؤمنون، قال : فذاك إذن³⁹.

الثاني : أن لبيد بن ربيعة⁴⁰، وعدي بن حاتم (ت 68هـ) قدما إلى المدينة، وأناخا راحلتيهما بفناء المسجد ثم دخلا فإذا بهما بعمر بن العاص فقالا له : "استأذن لنا على أمير المؤمنين يا عمرو، فقال عمر : أنتما والله أصبتهما اسمه، نحن المؤمنون وهو أميرنا، فوثب عمرو، فدخل على عمر رضي الله عنه فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال عمر رضي الله عنه ما بدا لك في هذا الاسم يعلم الله لنخرج مما قلت، قال إن لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم قدما فأناخا راحلتيهما بفناء المسجد ثم دخلا وقال لي : استأذن لنا يا عمرو على أمير المؤمنين، فهما والله أصابا اسمك، أنت الأمير ونحن المؤمنون فجرى الأمر على ذلك".

فإطلاق لقب أمير المؤمنين كان من ابتكار الصحابة، وقد توارث الخلفاء هذا اللقب لا سيما خلفاء بني أمية وخلفاء بين العباس.

فلقب أمير المؤمنين الذي يطلق على القائم بالرسالة العظمى، فيه تأكيد على الارتباط الوثيق لنظام الحكم بالإسلام، فهو يعني مبدأ الاستمرارية منذ العهد الإسلامي الأول إلى اليوم، ويعني أيضا أن نظام الحكم في المغرب هو نظام أصيل ثابت منذ عهد الخلافة الراشدة. إلا أن أهم ما يميز المغرب ويشكل الشق السياسي والديني من خصوصيته، وجود ملكية ذات أبعاد دينية حضارية تاريخية وسياسية وفقا للعديد من فصول الدستور خاصة الفصل 19 منه الذي ينص على أن "الملك أمير المؤمنين والممثل الأسمى للأمة ورمز وحدتها، وضامن دوام الدولة واستمرارها، وهو حامي همى الدين، والساهر على احترام الدستور، وله صيانة حقوق وحريات المواطنين، والجماعات والهيئات، وهو الضامن لاستقلال البلاد وحوزة المملكة في دائرة حدودها الحقة".

38 - انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص 23 ؛ وابن سعد : الطبقات الكبرى، ج 3، ص 281 ؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج 3، ص 190.

39 - انظر مقدمة ابن خلدون، ج 1، ص 240 ؛ ابن الأزرق : بدائع السلك في طبائع الملك، 2/246 ؛ عبد الحى الكتاني : التراتيب الإدارية، 6/1.

40 - وهو شاعر من أصحاب المعلقات، عاش عمرا طويلا. توفي سنة 41 هجرية.

وقد أشار السيد أحمد التوفيق إلى الالتزام الأخلاقي والديني للبيعة المبنية على تعاقدية : الطاعة والاستقامة على الحق والقانون مقابل حفظ الأموال والأعراض، أي حماية الملة والدين التي يضمنها أمير المؤمنين المشروطة بالبيعة.

فعالم اليوم - يقول السيد الوزير - هو عالم الأمة، فمن واجبه حمايتها عقائديا، انطلاقا من المسؤولية التي أوكله بها أمير المؤمنين، فعالم الأمة والإمام مكلفان من طرف الأمة بحماية دينها الإسلامي، ومذهبها المالكي وعقيدتها الأشعرية⁴¹.

فمؤسسة إمارة المؤمنين هي صمام أمان للمجتمع، فهي التي تتولى رعاية الشأن الديني، فلا يبقى هناك مجال للمتلاعبين أو المستغلين فتتوحد بذلك الأمة، وتبعد عنها كل تشتت وخلاف كما هو مشاهد في بلاد مختلفة.

فإمارة المؤمنين ميثاق غليظ متين، هو الضامن لتحصين الهوية والشخصية المغربية.

ولقد استمدت إمارة المؤمنين مشروعيتها من الاختيارات الدينية للأمة التي ارتضت الإسلام دينا للدولة منذ نشوئها، وزاد من متانتها كون الدولة العلوية سليلة بيت النبوة والرسالة. وهذه الخصوصية المغربية تجعل أمير المؤمنين هو المرجع الأساس للفصل في القضايا المصيرية كالحفاظ على الوحدة الدينية والترايبية والاجتماعية.

فالمغاربة موحدون مرتبطون بإمارة المؤمنين إذ هي الضامنة لهذه الوحدة، فبدونها لا يمكن أن تتوحد الأمة ؛ وقد نجا المغرب من كل المؤامرات التي حيكت حوله بهذا التلاحم حول إمارة المؤمنين⁴².

3- مشروعية البيعة :

البيعة من المبادئ الإسلامية الأصيلة وهي سنة نبوية أعطاها المسلمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرارا في حياته وبقيت نافذة بعد وفاته يعطيها المسلمون لخلفائه الراشدين المهديين والذين يتولون أمور المسلمين لعدة قرون حتى سقوط نظام الخلافة في آخر العهد العثماني.

41 - من كلمة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية في حفل تنصيب أعضاء المجلس العلمي لكل من عمالة طنجة أصيلة وإقليم الفحص أنجرة.

42 - اسماعيل الخطيب، "مفهوم إمارة المؤمنين"، جريدة ثمودة، العدد 227، ص 12.

إن أخذ البيعة وإعطائها لهما مستند شرعي من القرآن الكريم والسنة المطهرة وإجماع المسلمين⁴³.

أ- مشروعية البيعة في القرآن الكريم :

وردت آيات في كتاب الله تقرر مشروعية البيعة، ومن هذه الآيات :

1- قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾⁴⁴. هذه الآية تبين البيعة التي أعطاها الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالبيعة النبوية هي في حقيقتها وجوهرها بيعة الله عز وجل، وقوله تعالى : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ فيه نوع من التأكيد على أن حقيقة البيعة النبوية هي لله تعالى⁴⁵.

2- قوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾⁴⁶.

والآية نزلت تحكي عن قصة بيعة الرضوان في الحديبية وهذه البيعة نوع من الولاء العسكري، حيث بايع الصحابة - رضي الله عنهم - الرسول صلى الله عليه وسلم على الثبات بعد الإشاعة أن عثمان بن عفان قتل عندما ذهب يفاوض قريشا بمكة.

3- وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يَشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁴⁷ أمر الله في هذه الآية رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبايع المؤمنات اللاتي جئن إليه.

ب- مشروعية البيعة في السنة النبوية :

فقد ثبت من السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب البيعة من أصحابه أكثر من مرة وأنه أخذها منهم رضي الله عنهم. ووجدنا في السيرة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخذ البيعة

43 - انظر النظام السياسي في الإسلام للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس، ص 300-303.

44 - سورة الفتح، الآية 10.

45 - انظر بيعة النساء لمحمد علي قطب، ص 41 بتصرف.

46 - سورة الفتح، الآية 18.

47 - سورة الممتحنة، الآية 12.

في العقبة مرتين قبل الهجرة إلى المدينة المنورة وقبل قيام الدولة الإسلامية الأولى بقيادته صلى الله عليه وسلم، وكذلك أخذها في مناسبات أخرى بعد قيام الدولة الإسلامية.

1- روى الإمام البخاري رحمه الله بإسناده عن عباد بن الصامت رضي الله عنه قال : "دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فقال : فيما أخذ علينا أن بايعناه على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان"⁴⁸. وفي هذا الحديث دلالة على أن طلب المبايعة من الأصحاب سنة وكذلك مبايعتهم على ذلك سنة، والوفاء بها واجب ونقضها عمدا معصية⁴⁹.

2- وأخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن عثمان بن خيثم أن محمد بن الأسود بن خلف أخبره أن أباه الأسود رضي الله عنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع الناس يوم الفتح. قال : "جلس عند قرن⁵⁰ مستقبلة فبايع الناس على الإسلام والشهادة. قلت : وما الشهادة ؟ قال : أخبرني محمد بن الأسود ابن خلف أنه بايعهم على الإيمان وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله⁵¹. وبايع النبي صلى الله عليه وسلم الرجال والنساء بعد فتح مكة وكانت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان من المبايعات⁵².

3- عن بشير بن الخصاصية رضي الله عنه قال : "أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده فقال : "تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وتصلي الصلوات الخمس لوقتها وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان وتحج البيت وتجاهد في سبيل الله"⁵³ وهذه البيعة تكون على أركان الإسلام وعلى الجهاد.

48 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر، 1387هـ (1959م)، ج 16، ص 113-114.

49 - ماذا يعني انتمائي للإسلام للأستاذ فتحي يكن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، 1403هـ (1982م) ص 165.

50 - بالسكون : جبل صغير بأعلى الجبل، وفي السيرة الحلبية، ص 109 : وجلس صلى الله عليه وسلم على الصفا يوم الفتح يبايع الناس.

51 - حياة الصحابة للكاندهلوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، 1389هـ (1969م)، ص 352-353.

52 - كتاب الطبقات الكبرى تصنيف محمد بن سعد كاتب الواقدي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، طبع مصورا عن طبعة في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل سنة 1321هـ، ج 8، ص 171.

53 - حياة الصحابة للكاندهلوي، ج 1، ص 354 وأخرجه الطبراني في الأوسط والأحكام والبيهقي وابن عساكر وأبو نعيم.

4- وأخرج ابن جرير عن جرير رضي الله عنه قال : "بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة والنصح للمسلمين"⁵⁴ وهي بيعة على السمع والطاعة والنصح ما استطاع.

5- وأخرج البخاري عن سلمة رضي الله عنه قال : "بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ثم عدلت إلى ظل الشجرة. لما خف الناس قال : "يا ابن الأكوع ألا تباع ؟ قال قلت : قد بايعت يا رسول الله، قال : "أيضا"، فبايعته الثانية، فقلت له : يا أبا مسلم، على أي شيء كنتم تباعون يومئذ ؟ قال : على الموت"⁵⁵. وهذه البيعة أخذها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديبية حين أشيع خبر مقتل عثمان رضي الله عنه وفي رواية أخرى : أنها البيعة على الثبات.

وأما مشروعية البيعة من السنة للخلفاء فقد وردت عدة أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في البيعة وأحكامها ومنها :

- 1- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما"⁵⁶.
- 2- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وستكون خلفاء فتكثر. قالوا : فما تأمر ؟ قال : فوا ببيعة الأول فالأول وأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم"⁵⁷.
- 3- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنقه الآخر"⁵⁸.

ج- مشروعية البيعة من إجماع المسلمين :

فقد أجمع المسلمون في كل العصور من عهد الصحابة رضي الله عنهم إلى يومنا هذا على مشروعية البيعة ومنها :

- 1- إجماع المجتمعين في السقيفة على بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه خليفة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، ثم مبايعة عامة المسلمين بعد ذلك في المسجد⁵⁹.

54 - المرجع السابق، ص 370.

55 - حياة الصحابة للكاندهلوي، ج 1، ص 368.

56 - صحيح مسلم بشرح النووي، ج 12، ص 242.

57 - صحيح مسلم بشرح النووي، ج 12، ص 231.

58 - صحيح مسلم بشرح النووي، ج 12، ص 233-234.

59 - انظر التمهيد لهذا البحث.

2- إجماع المسلمين في بيعة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأخرج البخاري "فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمان ثم قال : أما بعد يا علي : إني قد نظرت في أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان فلا تجعلن على نفسك سبيلا، وأخذ بيد عثمان رضي الله عنه وقال : أبايعك على سنة الله وسنة رسوله والخليفتين من بعد، فبايعه عبد الرحمان وبايعه الناس : المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمين"⁶⁰.

4- طبيعة عقد البيعة :

انتهينا إلى أن البيعة عقد وميثاق بين الأمة الإسلامية أو ممثليها أهل الحل والعقد من جهة، وبين الإمام الذي يرأس الخلافة الإسلامية من جهة أخرى، يترتب على ذلك العقد واجبات وحقوق لكلا الطرفين.

ولقد صاغ العلماء المسلمون ذلك العقد الصيغة القانونية فقالوا "أن الإمامة عقد" والعقد في عرفهم له مدلوله الخاص، فهناك ماهية مشتركة، ثم لكل عقد موضوعه وأركانه وأحكامه وشروطه⁶¹. والسؤال الذي يطرح : ما هي طبيعة هذا العقد ؟ هل هو بمثابة عقد البيع أو غيره ؟

إن البيعة عقد مكتوب بين الإمام والأمة يتفقان بموجبه على الالتزام بحقوق وواجبات كلا الطرفين، فهو عقد متكافئ الأطراف يربط الحاكم بالمحكومين وينتج عنه كل ما ينتج على العقود بالمفهوم القانوني للكلمة.

ويرى ابن خلدون أن هذا العقد شبيه بعقد البيع بموضوعه وبطرفيه البائع والمشتري، والمبيع هو الخلافة، فيقول⁶² : وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري.

ويرى الأستاذ محمود فياض أن البيعة عقد وكالة ويقول⁶³ : "وإذن فالبيعة هي عقد وكالة بين الأمة وحاكمها المنتخب من أفرادها والمسؤول عنها. وظاهر جداً أن عقد الوكالة ليس عقد تمليك

60 - حياة الصحابة للكاندهلوي، ج 1، ص 384.

61 - النظريات السياسية الإسلامية للدكتور الريس، دار التراث، القاهرة، طبعة سادسة 1976م، ص 212-213 بتصرف.

62 - مقدمة ابن خلدون، مطبعة مصطفى محمد بمصر، ص 209.

63 - الفقه السياسي عند المسلمين للأستاذ محمود فياض، (سلسلة الثقافة الإسلامية)، ص 26، نقلا عن النظام السياسي في الإسلام للدكتور أبو فارس، ص 310.

الوكيل، ولا يقتضي تملكها، وإنما هو عقد إذن بالتصرف باسم الموكل في حدود ما رسمه الوكيل وأذن بالتصرف فيه، ثم هو عقد مؤقت مشروط، فهو خاضع لرقابة الأصل فإن رأى الوكيل ملتزما للشروط المحددة ورأى أن استمرار العقد في صالحه أبقى الوكيل إن شاء، فإن رأى الوكيل قد جانب الشرط أو خرج من العهدة عزله إن شاء إذا لم ينزل من تلقاء نفسه، كذلك لا ينقضي عقد الوكالة⁶⁴ على أن البيعة عقد وكالة ويقول⁶⁴ : "ولهذا اتفق فقهاء الإسلام على أن الحاكم وكيل عن الأمة خاضع لرقابتها ولها عليه سلطان التولي والعزل والتوجيه. ولكل فرد من أفرادها حق أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وهي السلطة الكبرى التي جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلامهم كما يقول الأستاذ محمد عبده في كتابه الإسلام والنصرانية".

ثم يتابع الأستاذ محمود فياض حديثه قائلا⁶⁵ : "ومما يقطع بصحة فكرة وكالة الحكم عن الأمة وخضوعه لرقابتها وسلطانها، أن جميع الفقهاء اعتبروه واحدا من أفراد الأمة في كل تصرفاته وألزموه بمتالفه وجنایاته، فهو يؤاخذ بالقصاص إذا قتل عمدا أو ظلما، ويلزم بالأموال التي يتلفها، وقطع يده إذا سرق، ويحد أو يرحم إذا زنى".

ويقول الإمام القفال من الشافعية : "إذا زنى الخليفة يقيم عليه الحد من ولى الحكم عنه وهو الأمة".

ويرى آخرون أن هناك شبهة بين البيعة في النظام السياسي الإسلامي والعقد السياسي الغربي من حيث كون كل واحد منهما تعاقدًا قائمًا بين طرفين لهما أهلية التعاقد، والتعاقد السياسي لا يخرج من مضمون هذه البيعة⁶⁶.

ويناقش الدكتور محمد عبد القادر أبو فارس تلك الآراء المختلفة عن طبيعة عقد البيعة فيقول⁶⁷ : "ونحن مع تسليمنا بأنه يوجد تشابه بين البيعة وعقد البيع من كونها اتفاقًا بين طرفين يترتب عليه آثار، إلا أن طبيعة عقد البيع تختلف اختلافًا جذريًا عن طبيعة البيعة كعقد. فعقد البيع

64 - الفقه السياسي عند المسلمين، المصدر السابق، ص 27.

65 - المصدر السابق، ص 27.

66 - انظر الخلافة والإمامة لعبد الكريم الخطيب، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي، 1383هـ (1963م)، ص 682-693.

67 - النظام السياسي في الإسلام للدكتور محمد عبد القادر أبو فارس، ص 212.

يفيد تملك المشتري المبيع وتملك البائع المشتري، ثم تنقطع الصلة نهائيا بينهما بعد ذلك، فللبائع أن يتصرف في الثمن تصرفا مطلقا يقرر أن الرأي الأقرب إلى الصواب هو اعتبار البيعة عقد وكالة "إذ يراقب الموكل الوكيل على تصرفه ويحاسبه، فإن أحسن استمر في وظيفته وإلا عزله واختار غيره وهكذا فالعلاقة بينهما لا تنقطع.

ولكنه مع هذا تبقى ثغرة وهي أن في عقد الوكالة يستطيع الموكل أن يعزل الوكيل وإن لم يقصر في الوكالة.

وإزاء هذا يمكن أن تكون هذه الوكالة مؤقتة بزمان ومقيدة بشروط يلتزم بها الطرفان فإذا تحققت الشروط ضمن المدة المتفق عليها في عقد الوكالة لم يجز للموكل أن يعزل وكيله، وهذا يتحقق إذا حددت مدة الخلافة بزمان معين⁶⁸.

أما القول بأن البيعة أشبه بالعقد السياسي فهو صحيح وثابت في التاريخ السياسي الإسلامي. وكان الفكر السياسي الإسلامي قد سبق الفكر الديمقراطي الغربي في هذا الشأن حيث قرر مبدأ العقد بين الأمة والإمام بأن تتعهد الأمة أو الجماعة المبايعة للإمام بالطاعة في كل ما يصدر منه وفقا لمبادئ دستور مسبق وتبايعه على كتاب الله وسنة رسوله، ويعاهد الإمام الأمة الإسلامية على أن يحكم بكتاب الله وسنة رسوله، وأن يقوم بالعدل بين الناس ويأخذ لنفسه السمع والطاعة ممن أعطاهم هذا العقد.

5- البيعة والقسم الدستوري المعاصر :

الحقيقة أن عبارات الولاء والقسم واليمين التي ينص عليها في دساتير الدول المعاصرة لها مدلول مشترك مع مفهوم البيعة في النظام السياسي الإسلامي من حيث تأكيد معنى الالتزام بالعهد والميثاق وتأكيد الولاء للمبادئ، ولكنها تختلف عن البيعة الإسلامية اختلافا جوهريا من ناحية الموضوع الذي يتوثق عليه ويقسم اليمين تأكيدا للالتزام به.

فأما البيعة فموضوع ميثاقها هو مبادئ الإسلام وقيمة وشريعته ونظمه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

68 - المصدر السابق، ص 212-213.

وأما القسم الدستوري المعمول به لدى معظم الدول المعاصرة فموضوع ميثاقه هو دستور الدولة ومبادئها وقوانينها العلمانية ونظمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المستوردة من النظم الغربية. وإن كان الأمر في نظرنا الاعتماد على مبدأ البيعة الإسلامية بدلا عن القسم الدستوري. فبمجرد قراءة سريعة للملامح ثقافتنا الأكاديمية، وخاصة ما يسمى منها جانب تنظيم الحكم في منظوره الإسلامي وما يرتبط به من ضوابط ومصطلحات وشارات وألقاب سلطانية، وإجراءات ومساطر شرعية ينبئنا بالموروث الثقافي الزاخر، الذي مازال يواكب حياتنا ويضفي على شخصيتنا حلة من البهاء والوقار، والاعتزاز والفخر مما لا تكاد تعثر على مثل له اليوم في دنيا الإسلام - طولها وعرضها - فيما نعرف.

ولعل لقب "أمير المؤمنين" و"نظام البيعة والخلافة" يمثل الاختيار السديد لنظام الحكم الذي أجمعت الأمة على التمسك به⁶⁹.

وعلى الصعيد الدستوري أعطى المشرع حصانة دستورية من أية مراجعة محتملة تحت أي ظرف من الظروف كيفما كان، وهو ما نصت عليه المادة السادسة بعد المائة من الدستور، التي أكدت على عدم دستورية مراجعة كل من النظام الملكي والدين الإسلامي، حيث جاء فيها: "النظام الملكي للدولة وكذلك النصوص المتعلقة بالدين الإسلامي لا يمكن أن تتناولها المراجعة".

والمغربي أينما كان سواء في وطنه أو خارج وطنه تربطه بإمارة المؤمنين ببيعة شرعية تؤكد هذه الرابطة وتجعلها عقدا لا يقبل الانفصام.

وقد أخذ المغرب على نفسه بتوثيق البيعة للموكة على ما تقتضيه الأحكام الشرعية والتقاليد المرعية خلفا عن سلف، وإنه من الخصائص التي طبعت البيعة في المغرب هي أنها كانت دائما عقدا مكتوبا يقوم به أهل الحل والعقد في البلاد⁷⁰.

وقد جاءت ببيعة الملك محمد السادس أمير المؤمنين أعز الله أمره بعد وفاة والده المرحوم الحسن الثاني يوم الجمعة 9 ربيع الثاني 1420 هجرية الموافق 23 يوليوز 1999م وتلا نص البيعة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية السيد عبد الكبير العلوي المدغري ومما جاء في نص البيعة: "الحمد لله الذي

69 - من تقديم لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يسف، الأمين العام للمجلس العلمي الأعلى، من كتاب: خطب إمارة المؤمنين في الشأن الديني والنصوص المنظمة للمؤسسة العلمية، ص 16.

70 - انظر نافع محمد اغزيل، البيعة مظهر متميز من مظاهر قداسة الوثيقة العبدلية، ص 13 وما بعدها، عرض ألقى بالمعهد العالي للقضاء بالرباط، بالندوة التي نظمتها الهيئة الوطنية لعدول المغرب، أيام 6 و7 و8 يونيو 2000.

جعل الإمامة العظمى أمنا للأمة ونعمة ورحمة، وجعل البيعة ميثاقا والطاعة الأولى عهدا ووفاقا، فقد قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ اللَّهُ فَسَنُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وقال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ وقال مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية".

وإنه لما قضى الله بوفاة أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين إمام المسلمين في هذا البلد الأمين جلالة الملك الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن قدس الله روحه وطيب ثراه وعطر بأريج الرحمة مثواه.

ولما كانت بيعته الشرعية في أعناق المغاربة جميعا من طنجة إلى الكويرة. وكانت البيعة من الشرع وهي الرابطة المقدسة التي تربط المؤمنين بأمرهم وتوثق الصلة بين المسلمين وإمامهم. وكان فيها ضمان حقوق الراعي والرعية وحفظ الأمانة والمسؤولية. وسيرا على المعهود في تقاليدنا الملوكية المرعية والتي بفضلها تتقل البيعة بولاية العهد من الملك إلى ولي عهده من بعده، فإن أصحاب السمو الأمراء وعلماء الأمة وكبار رجالات ونواب الأمة ومستشاريها ورؤساء الأحزاب السياسية وكبار ضباط القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية الموقعين أسفله، إذ يعبرون عن ألمهم لفقدان رمز الأمة سليل الملوك العلويين الكرام وواسطة عقد الأئمة العظماء الأعلام مولانا الحسن بن مولانا محمد بن مولانا يوسف بن مولانا الحسن.

ويبتهلون إلى الله جلت قدرته وتجلت عظمته أن يسكنه فسيح الجنان ويحسن إليه أكبر الإحسان على إخلاصه وتضحيته وأداء الأمانة على وجهها ووفائه بالرسالة بأكملها يقدمون بيعتهم الشرعية لوأرث سره صاحب الجلالة والمهابة أمير المؤمنين سيدنا محمد بن الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن جعل الله أيامه أيام يمن وخير وبركة وسعادة على شعبه وبلده وحقق على يديه الكريمتين آمال هذه الأمة الوفية المتمسكة بعرشه والمتفائلة بعهده، ملتزمين بما تقتضيه البيعة من الطاعة والولاء والإخلاص والوفاء في السر والعلانية والمنشط والمكره طاعة لله عز وجل واقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم سائلين الله لأمر المؤمنين طول العمر ودوام النصر والعز والتمكين.

وحرر بالرباط يوم الجمعة 9 ربيع الثاني 1420 الموافق 23 يوليوز 1999. (انظر نص البيعة في انبعاث أمة لسنة 1999).

مرونة الإسلام في التوافق على اتباع الإمام

الأستاذ الحسن بوقسيمي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - ظهر المهرارز
فاس

مقدمة

إن ما يُحدث الفتنة في الأمة ويضللّ ضعاف النفوس والعقول هو النظر التجزيئي للأشياء والنصوص وبناء أحكام عليها يُتَوَهَّم أنها صحيحة يُتَعَبَّدُ بها ؛ ومما افترق بسببه أغلب الفرق والملل والنحل - في تاريخنا الإسلامي - استناد بعضهم إلى نصوص تخدم اتجاههم وتوجههم المذهبي، واستناد آخرين إلى نصوص أخرى تخدم في الجهة المقابلة اتجاههم وتوجههم المذهبي أيضا، مثال هذا مذهب الجبر ومذهب الاختيار.

على أن رد النصوص بعضها إلى بعض بنظر شمولي وبصيرة نافذة، بمنهج الاستقراء التام لا الناقص - إذ النصوص محصورة بين دفتي المصحف وفي كتب السنة والحديث - وبمنهج استحضار السياق الداخلي (المقالي) والخارجي (المقامي)، وكذا مقاصد الشارع والمكلف ؛ حتى إذا تعذر تنزيل أحكام الشارع كاملة كما سيقّت أصالة، عمدنا إلى أخف الضررين من تنزيلها ناقصة بإقامة صلب الدين حتى لا تضيق مصالح الناس التي يتصدرها تحقيق العبودية لله شكرا على ما أسدى لهم من طمأنينة جسدية وروحية ؛ إذ لا عيش مع الجوع ولا أمن مع الخوف كما في صريح قوله جل في علاه : ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: الآية 3 و4)، ومما هو معلوم من قواعد العلم أنه إذا تعذر تولية الأصلح في الولايات الدينية والدينية، لجأ الإمام إلى تولية الأمثل فالأفضل.

بهذا المنهج الثلاثي الأبعاد - الشمولي والسياقي والمقاصدي، في التعامل مع نصوص الوحي كتابا وسنة - تتم أجزاء الموضوع ويستقيم الفهم ويكمل التحليل ويصح الاستنتاج.

ذلك أن الفهم عن الله ورسوله مرادهما هو بناء متماسك الأجزاء متكاملها ؛ فلا مناص من أن يُفهم القرآن ببنائه على السنة وبناء السنة على القرآن، وكذا بناء العام على الخاص، والمطلق على المقيد والمجمل على المبين والمتأخر على المتقدم والقواعد على الفروع وهكذا، والعكس أيضا صحيح ؛ مما يحقق التوسط والاعتدال فهما وتنزيلا، والنصوص لم تنزل ليضرب بعضها بعضا أو تتناقض فيما بينها، ومن لم يدرك أسرارها فهمها على غير ما هي مسوقة له.

وهذا ما نروم التنبيه إليه لكل من يبغي البحث أو الاطلاع على موضوع السياسة الشرعية - أو الإمامة أو الخلافة أو نظام الحكم في الإسلام - التي يعدها البعض من قواعد العقائد وأصول الدين "التي صنف فيها المتكلمون من أول إثبات واجب الوجود إلى إثبات الإمامة"¹.

• خاصية الإسلام المرونة :

يتميز ديننا الإسلامي بالمرونة ورفع المشقة والخرج، والتسديد والمقاربة عقيدة وشرعية، تربية وسلوكا، سلما وحربا، إثابة وعقابا. والحديث عن المرونة هو في حقيقته حديث عن الدين الإسلامي بجميع ما ينظمه من مجالات الحياة والفرد والمؤسسات، يعجز عن الإلمام به مقالٌ حَسْبُ صاحبه هنا أن يثير الإشكال لينبه على منهج علمي للتعامل معه، يتحقق من خلاله النظر المعتدل والوسطية الجامعة.

ومن أبرز ما يوضح خاصية المرونة هاته تناسب الأمر الشرعي مع الأمر الكوني في حياة الإنسان مطلق الإنسان، كما أن الأدلة أكثر من أن تحصى على العمل والحكم بغلبة الظن لا القطع، فالله جل في علاه تعبّدنا بالتقريبات في الأمور لا بالتحقيقات فيها، ومن المعلوم من الدين بالضرورة نبذ التنطع والتشدد والمغالاة ؛ فمطلق القطع أمر إضافي اعتباري نسبي، والعمل بالتقريب والتغليب يقوم مقام اليقين والكمال حال تعذرهما طبعاً. ولهذا نص سبحانه وتعالى على قاعدة جلية ومحكمة، واقعية ودائمة دوام الحياة الفانية، وهي من خصائص هذه الأمة في قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ (التغابن : 16)، وقد ورد هذا في سياق العلاقات اليومية المتعاقبة المتصلة بالأهل والأقارب المذكور في قوله جل جلاله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ، وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التغابن : 14 و15).

1 - الموافقات في أصول الشريعة للشاطبي، 406 / 3.

ولئن كان هذا متعلقا بسياق الأسرة الخاصة، فهو أجدر وأليق بسياق الأسرة العامة (الإمام والأمة) ؛ إذ إمام المسلمين ولي من لا ولي له، وكلتا الأسرتين أقامهما الله تعالى على الولاية المتمثل أصلها في القرب والمحبة اللذين هما عماد كل تجمع ناجح.

لذا فالواجب عند الإمام الشاطبي "إجراء الفهم في الشريعة على أوزان الاشتراك الجمهوري الذي يسع الأميين كما يسع غيرهم"²، والشريعة إما تكاليف اعتقادية أو تكاليف عملية ؛ "أما الاعتقادية بأن تكون من القرب للفهم والسهولة على العقل، بحيث يشترك فيها الجمهور، من كان منهم ثاقب الفهم أو بليدا، فإنها لو كانت مما لا يدركه إلا الخواص لم تكن الشريعة عامة ...

وأما العمليات فمن مراعاة الأمة فيها أن وقع تكليفهم بالجلال في الأعمال والتقريبات في الأمور ؛ بحيث يدركها الجمهور ... وأجرى لنا غلبة الظن في الأحكام مجرى اليقين"³.

أما ابن العربي فقال في معرض استنباطه للأحكام من قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْأَفْكِ عَصَبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور، 11) : "قد بينا في كتب الأصول حقيقة الخير، وأنه ما زاد نفعه على ضرره، وحقيقة الشر ما زاد ضرره على نفعه، وأن خيرا لا شر فيه هو الجنة، وشر لا خير فيه هو جهنم، ولهذا صار البلاء النازل على الأولياء خيرا ؛ لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا، وخيره - وهو الثواب - كثير في الآخرة"⁴.

هذا وإن مجال السياسة الشرعية ألصق بحياة الأمة في شتى قضاياها - كما هي حال الوالدين بأسرتهم ؛ لذا فهو قائم على ما ترجح - بالظن الغالب والقرائن والأمارات - أنه الأحسن والأقرب للتقوى والرشد والصلاح، وهذا بإمعان النظر الشمولي المستند إلى واقع العالم اليوم المشتمل على دول وشعوب منها المسلمة وغير المسلمة، بمختلف تقاليدها وعاداتها وقيمها، وبمختلف المعاهدات والشراكات والاتفاقيات المبرمة فيما بينها ؛ وذلك حتى لا تعطل النصوص وكذا المصالح والأعمال، وهذا المنهج الرباني هو المناسب لعالمية الإسلام وصلاحية الشريعة لكل زمان ومكان.

2 - المرجع السابق، 87/2.

3 - المرجع السابق، 88/2 و90.

4 - أحكام القرآن، 1353/3.

• المرونة في الإمامة / الخلافة :

من رحمة الله بخلقه أن دلهم على حل مشاكلهم وبلوغ مصالحهم بأمر محسوسة تقتضي قياس ما الأصلح لهم لاتخاذ مواقف وأحكام مناسبة ؛ فإن توافرت مصلحتان اختاروا تحقيق أكبرهما، أو توافرت مفسدتان اختاروا ارتكاب أخفهما.

وإن المجال السياسي من أبرز ما يتجلى فيه بوضوح خاصية المرونة والوسطية الجامعة ؛ خصوصا في زمن طغت فيه قوة الآخر بمنهج العولمة الجارف للاقتصاد وللسياسة وللإجتماع والتربية وللقيم وللحياة كلها ؛ لصوغها في قالب واحد تسيّره إرادة سياسية واحدة، تستبد بالتحكم في حركات الشعوب وسكناتها عبر شركاتها العملاقة ووسائل اتصالها وتواصلها الموجّه للتصورات والتصرفات، من غير أخذ بعين الاعتبار لا قيم تلك الشعوب ولا دينها ولا قوانينها ولا عاداتها.

- مفهوم الإمامة ووظيفتها :

عرف العلامة الماوردي (450هـ/1058م) الإمامة بقوله : "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا".

فلفظ "موضوعة" يدل على أنه لا تكليف في الحكم الوضعي ولا تخير، وإنما هو ارتباط بين شيئين بجعل أحدهما سببا للآخر أو شرطاً له أو مانعاً منه.

فالإمام خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وبطبيعة الحال لن يصل أحد إلى درجة رسولنا الأكرم المجتبى المصطفى المشروح الصدر، لكن أن يكون على هديه وستته فهذا بالإمكان.

ومما تقتضيه حراسة الدين وسياسة الدنيا التسديد والمقاربة ؛ ولهذا اختار ابن قيم الجوزية رأي أبي الوفاء ابن عقيل في قوله : "جرى في جواز العمل في السلطنة بالسياسة الشرعية أنه هو الحزم، ولا يخلو من القول به إمام"، وبناء عليه عرّف ابن عقيل السياسة بقوله : "السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا نزل به وحي"⁵.

5 - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، لابن القيم، 29/1.

وقد علق عليه ابن القيم معضدا له مستدلا عليه بقوله : "وهذا موضع مزلة أقدام ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك ومعترك صعب، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق، وجرّأوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، محتاجة إلى غيرها، وسدوا على نفوسهم طرقا صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له، وعطلوها مع علمهم وعلم غيرهم قطعا أنها حق مطابق للواقع ؛ ظنا منهم منافاتها لقواعد الشرع، ولعمر الله إنها لم تناف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وإن نافت ما فهموه من شريعته باجتهادهم.

والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة الشريعة وتقصير في معرفة الواقع وتنزيل أحدهما على الآخر ...

وأفرطت طائفة أخرى - قابلت هذه الطائفة - فسوّغت من ذلك ما ينافي حكم الله ورسوله. وكلا الطائفتين أُتِيَتْ من تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه ؛ فإن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات ؛ فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه، والله سبحانه أعلم وأحكم وأعدل أن يخص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء، ثم ينفي ما هو أظهر منها وأقوى دلالة وأبين أمارة فلا يجعله منها، ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها.

بل قد بين سبحانه - بما شرعه من الطرق - أن مقصوده إقامة العدل بين عباده وقيام الناس بالقسط ؛ فأى طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين وليست مخالفة له.

فلا يقال إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع، بل هي موافقة لما جاء به، بل هي جزء من أجزائه ونحن نسميها سياسة تبعا لمصطلحهم، وإنما هي عدل الله ورسوله ظهر بهذه الأمارات والعلامات"⁶.

ثم مضى ابن القيم يعدد ما اتخذته الرسول الكريم في سياسته ومواقفه وأحكامه بحسب المصلحة ورأي الإمام مستندا إلى مجرد العلامات والأمارات. وهو رحمه الله تعالى - في صنيعه هذا - أسس كتابه على رأي ابن عقيل ومذهب الإمام مالك "إلى التوصل بالإقرار بما يراه الحاكم"⁷ ؛ مما

6 - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، 32-30/1.

7 - المرجع السابق، 4/1.

جعل ابن القيم يستنتج أنه "لم يزل حذاق الحكام والولاة يستخرجون الحقوق بالفراسة والأمارات، فإذا ظهرت لم يقدموا عليها شهادة تخالفها ولا إقراراً"⁸.

• التوافق على اتباع الإمام من خلال بعض النصوص الشرعية :

إن نظرة متأنية في ما ورد من نصوص حديثية في صحيح الإمام مسلم - مثلاً - يجلي مسألة المرونة المرتكزة على قيمة الصبر من أجل مصلحة الأمة بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم ما أقام فيهم صلب الدين، خصوصاً في زمن الفتنة والأثرة وخلط العمل الصالح بالسيئ، وطغيان صفات البغض والشحناء والكراهية والحقد والحسد والظلم بشتى ألوانه وأصنافه ؛ وقيمة الصبر هاته حتى لا يفرق أمر الأمة وهي جميع. لذا فقد ورد في "صحيح مسلم، كتاب الإمارة" ما يلي :

"باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول :

... عن زيد بن وهب عن عبد الله قال : قال رسول الله : "إنها ستكون بعدي أثره وأمور تنكرونها. قالوا : يا رسول الله، كيف تأمر من أدرك منا ذلك ؟ قال : "تؤدون الحق الذي عليكم، وتسالون الله الذي لكم.

... عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال : "دخلت المسجد فإذا عبد الله ابن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس مجتمعون عليه فأتيتهم فجلست إليه، فقال : كنا مع رسول الله في سفر فنزلنا منزلاً ؛ فمننا من يصلح خبائه ومننا من ينتضل ومننا من هو في جشره، إذ نادى منادي رسول الله : الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله فقال : إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة فيقول المؤمن : هذه هذه. فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يجب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنقه الآخر. فدنوت منه فقلت له : أنشدك الله أنت سمعت هذا من رسول

8 - المرجع السابق، 65/1.

الله ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه، وقال : سمعته أذناي ووعاه قلبي، فقلت له : هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ونقتل أنفسنا والله يقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً﴾ ؟ قال : فسكت ساعة، ثم قال : أطعه في طاعة الله واعصه في معصية الله".

"باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستئثارهم :

... عن أسيد بن حضير "أن رجلا من الأنصار خلا برسول الله، فقال : "ألا تستعملني كما استعملت فلانا ؟ فقال : إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض".

"باب في طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق :

... عن علقمة بن وائل الحضرمي عن أبيه قال : "سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله، فقال : يا نبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه، ثم سألوه فأعرض عنه، ثم سألوه في الثانية - أو في الثالثة - فجذبه الأشعث بن قيس، وقال : اسمعوا وأطيعوا ؛ فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم".

"باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة :

... حدثني بسر بن عبيد الله الحضرمي أنه سمع أبا إدريس الخولاني يقول : "سمعت حذيفة ابن اليمان يقول : كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت : يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير شر ؟ قال : نعم. فقلت : هل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : نعم وفيه دخن. قلت : وما دخنه ؟ قال : قوم يستنون بغير سنتي ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. فقلت : هل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها. فقلت : يا رسول الله صفهم لنا. قال : نعم قوم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا. قلت : يا رسول الله فما ترى إن أدركني ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم. فقلت : فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك".

"باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع :

... عن زياد بن علاقة قال : "سمعت عرفجة قال : سمعت رسول الله يقول : إنه ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان".

"باب خيار الأئمة وشرارهم :

... عن عوف بن مالك عن رسول الله قال : "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم. قيل : يا رسول الله أفلا نناذبهم بالسيف ؟ فقال : لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، وإذا رأيتم من ولا تكم شيئا تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدا من طاعة".

إمارة المؤمنين ببلدنا خير ما يقوم بمصالح العباد :

ما دام الدين من وحي الله والوطن من خلق الله، فإن تقديس الدين لا يتحقق إلا بتنزيل أحكامه في واقع الناس، ولا يتأتى هذا إلا من خلال مؤسسة إمارة المؤمنين الحامية للدين والسائسة للعالم ؛ والإمامة واجبة وجوبا شرعيا عند علمائنا حتى تضمن استقرارنا ودوام كينونة دولتنا. وما دامت إمارة المؤمنين رمز هويتنا الإسلامية ببلدنا المغرب، فإنها خير ما يحقق للعباد مصالحهم الدينية والدنيوية في الحد الأعلى، وهي خير من يفض النزاع والخلاف بين مختلف الأحزاب ويحقق التوازن بينها في الحد الأدنى ؛ إذ هي متعالية عن التجاذبات الحزبية والإيديولوجية. وتحصيل تلك المصالح يكون من جهتين اثنتين :

أولاهما من جهة منهاج التسديد والمقاربة التي تتميز بها إمارة المؤمنين التي نعتز بها، ذاك المنهاج المتمثل في :

- الإرث التاريخي العريق المتجذر في وعينا السياسي والديني، والذي يدل بقوة على حفظ الأمن والوحدة الترابية والمذهبية والفكرية للمغاربة قاطبة ؛ ذلكم أنه بقيادة إمارة المؤمنين تم صد هجمات المستعمر مثلا على شمال إفريقيا على مر الأزمنة والعصور.

- وفي مختلف التقنيات والدساتير المسهمة في ترسيخ دولة الحق والعدل، ومجتمع السلم والتكافل الاجتماعي ؛ ذلك أن إمارة المؤمنين الدينية تتكامل والملكية الدنيوية التي تطورت من ملكية مطلقة إلى ملكية دستورية ترجع في تدبيرها للشؤون العامة إلى مرجعية الأمة من خلال

مؤسسات الشعب، وفق ما تتطلبه مختلف الظروف والمستجدات المحلية والعالمية المترجمة إلى بنود وقوانين ودساتير تضبط مختلف التصورات والتصرفات، من دستور 1962 إلى دستور 2011 الذي جاء بهدف "الشروع في المرحلة الموالية من مسار الجهورية المتقدمة، بما تنطوي عليه من تطوير لنموذجنا الديمقراطي التنموي المتميز، وما تقتضيه من مراجعة دستورية عميقة، نعتبرها عماداً لما نعتزم إطلاقه من إصلاحات جديدة شاملة، في تجاوب دائم مع كل مكونات الأمة"⁹.

ثانيتها من جهة مقتضيات البيعة المستلزمة للسمع والطاعة لأمر المؤمنين، ولزوم الجماعة وعدم الخروج عن الإمام أو محاربتة، والنصرة والتأييد والدعاء والنصيحة له.

خاتمة :

في الحديث الثامن والعشرون في جامع العلوم والحكم ما يلي : "عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : "وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا : يا رسول الله، كأنها موعظة مودّع، فأوصنا، قال : أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبدٌ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة". رواه أبو داود والترمذي، وقال : حديث حسن صحيح.

يتضح من كل هذا أن النصوص الشرعية لم تأت ليضرب بعضها بعضاً كما في وهم الفهوم القاصرة، بل قواعد الشرع المنصوص عليها أو المستنبطة الدالة على العمل والحكم بغلبة الظن لا القطع، وأن الله جل في علاه تعبّدنا بالتقريبات في الأمور لا بالتحقيقات فيها، وارتكاب أخف الضررين وأقوى المصلحتين في حالة التعارض، وأنه إذا تعذر تولية الأصلح في الولايات الدينية والدنيوية، لجأ الإمام إلى تولية الأمثل فالأفضل؛ فخير القرون والأقوام هم قرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين يلونهم وهكذا، ويستحيل أن يكون آخر الأمة أفضل من أولها بإطلاق، وبناء عليه لا يناسب تنزيل أحكام شرعنا - والحال هذه - إلا بأمثال تلك القواعد المرنة التي تجمع ولا تفرق وتبني ولا تهدم؛ وخير ما يجسد هذا التنزيل ببلدنا هو مؤسسة إمارة المؤمنين.

9 - هذا مما صدر به صاحب الجلالة خطابه الملكي في 9 مارس 2011.

<http://www.maroc.ma/NR/exeres/187CF739-4DEA-47B1-AD44-02D9A7EAFAC.htm>

إن تلك القواعد وغيرها لم تترك لذي نية مغرضة سبيلا للتمكين للمخططات الخفية والعننية بتشتيت الأمة وتفريقها، فشرعنا الحنيف أوكل إلى الإمام الاجتهاد بما يراه مناسبا لاستخراج الحقوق بالفراسة والأمارات، وما يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ما أمكن وبأي طريق كان. مع العلم أنه لا يوجد اجتهاد غير محفوف بالخطأ، وأن للمجتهد المخطئ أجرا، وللمصيب أجرين، كما أن تراجع الأمة - مع توالي الحقب والأزمان - من حسن إلى سيء بطغيان الظلم وكثرة الاختلاف، وأن الملتزم بدينه كالقابض على الجمر، وأمثال هذا هو إخبار بقدر الله من المعصوم صلى الله عليه وسلم؛ لينبّهنا على مسألة المرونة والتسديد والمقاربة، وجمع الكلمة وتأليف القلوب ما استطعنا إليه سبيلا.

الإمارة والاستشارة : من التواصل الفاعل إلى التشاركية المتواصلة

الأستاذ عبد الوهاب الجاي
كلية الآداب - فاس

إن قراءة متأملة لمسار الناظم العلائقي بين فقهَي الإمارة والاستشارة، تحيلنا إلى إدراك مرامي الفلسفة التشاركية التي أطرت مستوياتهما الوظيفية وأبعادهما المآلية الرسالية، سواء من حيث النظر والتمحيص، أو من حيث التسيير والتدبير.

فالعلاقة هي علاقة تلازم مبناها العمل بنظام تشاوري عن طريق وضع هيئة علمية استشارية، ليكون القرار السياسي سديداً شرعياً.

كيف إذن صوّر الفكر الفقهي المغربي الهيئة الاستشارية؟ وما وجه تأصيل قواعدها؟ وكيف نظر إلى بنيتها ووظيفتها؟ وكيف تفاعلت إمارة المؤمنين معها؟ وهل كان فعلها مطلوباً أم أصيلاً؟. تلك أهم التساؤلات التي وجهت موضوعنا وحركت إشكاليات بحثنا، ولعل في ذلك مناسبة لقراءة متون الفكر المغربي، والوقوف عند طرائقه في معالجة موضوعات الفكر السياسي والاجتماعي والديني، وهو يستنهض الهمم والعزائم للانخراط في صناعة الحضارة المغربية بكل أطيافها وخصوصياتها.

1 - خطاب الاستشارة في الفكر الفقهي المغربي :

سار الإنتاج النظري السياسي بالمغرب، مع ما يمثله من نصوص تأصيلية، ومتون ضابطة لمشروعية السلطة ونظام الحكم وشرائطهما¹ في مسار المنظومة الفكرية الإسلامية، ولم يشكل قطيعة مع ما تواضع عليه الفقه الإسلامي، بل أعاد إنتاج مضامين المؤلفات الموسومة بالأحكام السلطانية

1 - من مثل : مقمع الكفرة بالسنان والحسام في بيان إيجاب الاستعداد وحرب النظام لصاحبه الغالي اللجائي، والمفاخر العلية والدرر السنية في الدولة الحسنية العلوية لعبد السلام اللجائي، ثم تاج الملك المبتكر ومواده من خراج وعسكر للفقهاء الفلاقي السفياي، ومطالع السعادة في فك سياسة الرياسة لعل السملالي ...

والسياسات الشرعية²، باعتبار غلبة قيمتها المصدرية في الساحة الثقافية الإسلامية، مع مراعاة واقعية للخصوصية التاريخية لنظام الحكم في المغرب.

ومن ثم، تتجسد المرجعية في المنظومة الفكرية الإسلامية التي طبعت الساحة الفقهية بالمغرب، من خلال الحضور القوي والوازن للمذهب المالكي الذي أسهم إلى حد بعيد في بناء شخصية مغربية تتميز بالاعتدال والوسطية، كما تتجسد في دعوة الفقهاء والعلماء بتنزيل مضامين فقه الاستشارة عبر تشبثهم بالاشتراك في التدبير والانتقال إلى مجال أفسح وأكثر اتساعاً وأدق تنظيمياً إسهاماً منهم في تسيير شؤون البلاد السياسية.

ولأجل بلوغ هذا المقصد، واستدلالاً على مبدأ التشاور باعتباره قيمة مجتمعية حضارية، اضطر الفكر المغربي، نقلاً عن الفكر السياسي الإسلامي، إلى استدعاء نصوص من خارج ثقافته خصوصاً حكم الفرس والروم وآثار الهند وأقوال العجم، ففي سياق حديثه عن الشورى وفضل عاقبتها، استشهد صاحب مقمع الكفرة، بالسنان والحسام في بيان إيجاب الاستعداد وحرب النظام، ببعض ما جاء في باب حكم الفرس، إذ يقول مثلاً: "ويروى أن روميا وفارسيا تفاخرا بسيرتهما وتحاورا في ذلك، فقال الفارسي محتجا على الرومي : نحن لا نملك على أنفسنا من يشاور، لزعمة أن المشاورة مذمومة. وقال الرومي محتجا عليه : نحن لا نملك على أنفسنا من لا يشاور"³.

ومن حكم الهند أورد قول بعض الملوك : "إن الملك الحازم يزداد برأي الوزراء والخدمة، كما يزداد البحر بموارده من الأنهار، وينال بالحزم من الرأي ما لا يناله أصحاب القوة والجلد"⁴.

وفي سياق حكمة المشاورة وفساد الاستبداد بالرأي، يقول : "لا ينفعك سوء رأيك في باطنك ولا علو مكانك في نفسك، أن تجمع إلى رأيك رأي غيرك، فإن أحمدت أجبت وإن أجحفت أعذرت، فإن في ذلك خصالاً منها : وإن وافق رأيك رأي غيرك ازداد رأيك شدة عندك، وإن خالفه عرضته على نظرك، فإن رأيته معتلياً لما رأيته قبلته، وإن رأيته متضعا عنه استقيت عنه (...) وإذا شاورت

2 - من مثل : بدائع السلك في طبائع الملك لمحمد الأزرق الأندلسي، وكتاب سراج الملوك للطرطوشي، والأحكام السلطانية والولايات الدينية للإمام الماوردي، وكتاب المقدمة لابن خلدون ...

3 - راجع : الغالي اللجائي : مقمع الكفرة.

4 - نفسه.

فأصبت محمد الجماعة رأيك لأنهم لنفوسهم يحمدون، وإن أخطأت حملت الجماعة خطأك لأنهم عن نفوسهم يكافحون"⁵.

وبشحن الآثار والأقوال المروية عن الروم والهند والعجم، وإضافة مضمونها وفلسفتها لما هو مقرر في الأصول الإسلامية : قرآنا كريما وسنة نبوية شريفة وإجماعاً خلص الغالي اللجائي إلى الاستنتاجات الآتية :

- الشورى من قواعد الشرع وعزائم الأحكام.

- المشاورة مأمور بها، وليشاور الأفضل المفضل.

- المشاورة من أساس المملكة وقواعد السلطنة.

ومن جهة ثانية رام الفكر المغربي ربط الاستشارة بتحقيق العدل والحرية ومناهضة الاستبداد، إذ في تذويب المستبد والتصدي لاحتكار الرأي، يبرز مفهوم الاستشارة باعتباره أصلاً من أصول الحكم في الإسلام، الذي يضمن للدولة منعته السياسية، فأخطر المهالك التي أحاطت بالأمم والحضارات : الاستبداد بالرأي وترك المشورة.

مسألة ربط الاستشارة بتحقيق العدل ورفع الظلم ترد عند الفقيه السفياني الفلاق عند حديثه عن العدل النبوي، إذ يقول : "وأما العدل النبوي، فجملة القول فيه أن يجمع السلطان إلى نفسه حملة العلم، والقائمين بأمره، والحافظين لحدود الله والناصحين لعباد الله" ؛ ثم أضاف قائلاً : "فاتخذ أيها الملك العلماء شعاراً والصالحين وثاراً، فتدور المملكة بين نصائح العلماء ودعوات الصلحاء"⁶. وهكذا انتهى الفلاق السفياني إلى المعادلة التالية : إن الملك الحازم لا يتم حزمه إلا بمشاورة الوزراء الأخيار، ولا يتم عدله إلا باستفتاء العلماء الأبرار.

إن الحديث عن الاستشارة في الفكر المغربي وإبراز مسالك تصوراته ومجاري تطوراتها، عندما انتقل من خطاب يميل إلى التنظير والنصيحة إلى خطاب واقعي تنزيلي إصلاحي، يقودنا إلى التساؤل عن مؤسسة الاستشارة من حيث طبيعتها وبنيتها وشروطها، ومن حيث تلازمها وتواصلها وتكاملها مع إمارة المؤمنين.

5 - نفسه.

6 - محمد الفلاق السفياني، تاج الملك المبتكر ومواده من خراج وعسكر.

2- مؤسسة الاستشارة : البنية والوظيفة :

لما كانت مهمة أهل الحل والعقد غير منحصرة في القضايا النظرية من تدريس وإفتاء وتأليف، بل تتجاوز ذلك إلى المشاركة في تدبير السياسة العامة للمجتمع، من بيعة السلاطين إلى تأمين الأبعاد الروحية والعمرائية والحضارية للمملكة المغربية، وفقا للتعبير الجامع المانع الذي نقبسه من السليمان الأعرج : "أهل الحل والعقد والأخذ والرد والرياسة والسياسة"⁷. فإن إدراك الأبعاد الوظيفية المنوطة بالهيئة الاستشارية مرهون بالنظر في ضوابط وشروط أهل الاستشارة.

إن حديث الفقهاء عن المسألة جاء في مجمله مطابقا ومبيناً لنصوص الأدبيات السلطانية والنصائح الملوكية ونظم الحكم والدولة، ولعل أعز ما يطلب في المستشار جملة شروط أفضلها العلم والأدب والعقل والحكمة والتجربة والدين والنصيحة وسلامة الفكر وخلوص النية من الأغراض والأهواء، إلى غير ذلك مما هو مبثوث في متون الفقهاء ونصوص العلماء.

ويمكن تلخيص معالم هذا التشكيل في البناء المحكم الذي سار عليه التأليف في الموضوع بما جاء عند أكنسوس في كتابه الجيش العرمرم : "ويطلب في المشورة أموراً منها أن يكون ذا عقل وافر"⁸، مستدلاً بقوله صلى الله عليه وسلم : "استرشدوا العاقل ترشدوا". وقول عبد الله الكامل لولده محمد النفس الزكية : "احذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً، واحذر مشورة العاقل إن كان عدواً". ثم عضد بقول بعض الحكماء : "من استعان بذوي العقول فاز بإدراك المأمول".

والقول الجامع لشرط العقل مع التجربة عند اللجائي، أن يكون المستشار عاقلاً مجرباً⁹. ومما جاء في الموضوع عند ابن الأزرقي الأندلسي في بدائعه : "العقل الكامل بطول التجربة مع الفطنة والذكاء، قيل : "إن الأحق الجاهل إذا استشرته زاد في لبسك وأدخل عليك التخليط في رأيك، ولم يقم بحقيق نصحك". وقيل : "احذر مشاورة رجلين : شاب معجب بنفسه قليل التجارب في غرة، أو كبير قد أخذ الدهر من عقله، كما أخذ من جسمه"¹⁰.

7 - السليمان الأعرج : اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب، الطبعة الأولى، مطبعة الأمنية، الرباط، 1391هـ/1971م. ص 13.

8 - راجع : عبد اللطيف حسني : الأصول الفكرية لنشأة الوطنية المغربية، دراسة في تطور الأفكار السياسية 1800 - 1912م.

9 - اللجائي : مقمع الكفرة.

10 - ابن الأزرقي الأندلسي : بدائع السلك.

ونجد نفس المعنى عند الإمام الماوردي في أحكامه السلطانية، عندما قال : "المشارك في الرأي وجب أن تكون فيه التجربة والحنكة التي تؤدي إلى صواب الرأي وصحة التدبير". وجاء في رسالة ندب الملوك للعدل للفقهاء الحسن اليوسي مخاطبا السلطان المولى إسماعيل : "أكثر مشاورة الفقهاء، واستعمل نفسك بالحلم، وخذ عن أهل وذوي العقل والرأي والحكمة"¹¹.

أما الدين والتقوى فمما ينبغي غلبتهما على صفات المستشار، فمن غلب عليه الدين كان مأمون السريرة موفق العزيمة، خالص النية، ناصحا ودودا، يدل المستشار بمحض الرأي وبصر الفكر، ويجتهد له في نصحه وينظر في أمره بجميع أجزاء قبله.

ومن تمام مقاصدية الاستشارة تحدث الفقهاء عن سلامة فكر المستشار، وصفوه من مكدرات الهموم والانشغالات.

فإن من غمرت بكرة قبله الهموم لم يستقر له رأي. وقد ذكر ابن الأزرقي الأندلسي في هذا الباب أصنافا من مثل : "الجائع حتى يشبع، والعطشان حتى ينقع، والأسير حتى يطلق، والضال حتى يجد، والراغب حتى يمنح، وصاحب الخف الضيق وحاقن البول، وصاحب المرأة السليطة، ومعلم الصبيان، وراعي الغنم، والكثير القعود مع النساء"¹².

ويستحضر في مقام اعتبار رأي المستشار البراءة من الأهواء والأغراض والحاجات، لأن الرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد. قال ابن الحاج : "لأن الأغراض جاذبة والهوى حاد"¹³. وقال اليوسي : "فعلى سيدنا أن يقتدي بالفضلاء ولا يقتدي بأهل الأهواء".

ومن شرط سلامة المستشار خلوه من غائلة الحسد، وإظهار المحبة والنصيحة، مع التربص الدوائر، وقد قيل الحسد يبعث أهل المحبة على البغضاء، وذوي الولاية على البعد والفرقة، فمن الحكمة لمن هم بفعل أن لا يستشير إلا الحازم غير الحسود واللييب غير الحقود، وأن لا يدخل في رأيه البخيل والجبان والحريص، قال ابن الأزرقي : "لا تدخل في رأيك بخيلا فيقصر فعلك، ولا جبانا

11 - راجع : فاطمة خليل القبلي : رسائل اليوسي، ص 630.

12 - ابن الأزرقي : مرجع سابق، ص ص 300 - 321.

13 - نفسه.

فيخوفك ما لا تخاف. ولا حريصا فيعدك ما لا يرجى"¹⁴. هذه جملة شروط مقررة نظمها العلماء في مسلك أوله العلم والعقل والتجربة، وآخره النصيحة والصدق والمحبة. مروراً بشرط سلامة الفكر وخلوص النية من الأهواء والأغراض والابتعاد عن الهموم والانشغالات والحقد والحسد والبخل والجن. وبقي النظر في بنية الهيئة الاستشارية هل هي مخصوصة بأهل الحل والعقد دون غيرهم ؟ أم منفتحة على غيرهم من الخبراء والأكابر والأعيان ؟

دافع المؤرخ الفقيه أحمد بن خالد الناصري على الرأي القائل بتخصيص أهل الحل والعقد والعلم بشرف التشاور مع السلطان، إذ نقرأ في كتابه الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ما نصه "وإذا كان لابد من المشورة فليس إلا مع أهل الحل والعقد، وأهل الحل والعقد هم أهل العلم والدين والبصر بهذا الأمر الخاص، لأنه يشترط في كل من ولي النظر في أمر من الأمور العلم به"¹⁵. ولعل هذا ما يبرر كلام الفقيه أحمد العراقي في قوله : "فأما التدبير فأوله ديوان يحضره أمير المؤمنين، والعلماء والأتقياء ليكون على النهج الشرعي"¹⁶. فالاستشارة، إذن، بحسب أصحاب هذا الرأي لم تكن تعني أخذ رأي الأكثرية، وإنما تعني أهل الرأي، ولم تكن استفتاءً شعبياً في كل أمر من الأمور، وإنما الاعتماد على من تصح مشورته¹⁷.

وقد مال اتجاه آخر إلى إدخال فئات مجتمعية لها وزنها وقيمتها، كرؤساء القبائل والوجهاء، إذ يصف الفقيه اللجائي أهل الشورى بالبطانة المتكونة من العلماء ووجهاء القبائل، والسلطان ينبغي أن يكون الأقرب إليه فالأقرب : أهل العلم والعقل والأدب والأصالة والشرف، وذوي الكمال من كل قبيلة. وإن كان على خلاف ذلك كان نقصاً في التدبير"¹⁸. وإلى نفس هذا الرأي ذهب عبد الكبير الكتاني بقوله : "يختار مولانا، دام علاه، من كل قبيلة وفرقة وبلدة أصحاب الشطارة والذكاء والحزم والضبط"¹⁹.

14 - ابن الأزرق : بدائع السلك، ص 300.

15 - انظر : الناصري : الاستقصا، ج 9، ص 184.

16 - انظر : محمد داود : تاريخ تطوان، ج 5، ص 104.

17 - راجع : عبد الكريم غلاب : دفاعاً عن الديمقراطية، دار الفكر المغربي، طنجة - المغرب، 1996م، ص 26.

18 - الغالي اللجائي : مقمع الكفرة، مرجع سابق، ص 443.

19 - "رسالة عبد الكبير الكتاني إلى السلطان مولاي عبد الحفيظ"، مجلة دار النيابة، عدد 17، ص 86.

وحول الأكابر الأعيان، وهم الذين ينبغي للسلطان أن يجتمع بهم مرة أو مرتين في العام، يقول علي السوسي السملالي : "إن المجلس الاستشاري الذي على السلطان الرجوع إليه، يجب أن يكون مكوناً من الوزراء الذين لهم اطلاع على تدبير الملك، ثم أعيان الشرفاء العقلاء، ثم العلماء، ثم أعيان القبائل"²⁰.

كيف تفاعلت، إذن إمارة المؤمنين مع خطاب الفكر الفقهي المغربي ؟ وإلى أي حد أشركت الهيئة الاستشارية في اتخاذ القرارات التديرية ؟

3 - إمارة المؤمنين وسؤال الاستشارة :

شكلت الاستشارات السلطانية تقليداً في تاريخ الدولة العلوية، إذ اكتست طابعاً متميزاً سهر الملوك على تطبيقه والتشبث به، بالنظر إلى قيمتهم المعرفية، إذ جمعوا بين الملك والعلم، والورع والصلاح، والفقهاء وسياسة الدنيا ورعاية الدين. فالبلاطات والقصور كانت، ولا تزال، قبلة للعلم والعلماء، ومساحة للتدبر والتفكير، وميداناً للبحث والدراسة، ومقراً لتقليب الأفكار، ومجالاً للتشاور والنقاش والمداولة. ازدهرت بممراتها المعارف والعلوم، وظهرت بأفقهها الآداب والفنون، وانتشرت بأركانها وساحاتها المناظرات، فكانت بحق منبع الحضارة والعمران.

ومن صور تمسك السلاطين بمبدأ الاستشارة، طبيعة علاقتهم بالعلماء، إذ كانوا يحترمونهم ويعاملونهم بإجلال وتقدير وإكرام وتكريم، ويحرصون على تقريبهم والتواضع لهم وإغراق النعم عليهم، وعيادة مرضاهم وحضور جنازتهم²¹.

إن التلازم قائم بين إمارة المؤمنين، باعتبارها ممثلة لصاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وبين مؤسسة الاستشارة باعتبارها شريكا في تدبير الشؤون المتعلقة بمصالح الأمة، ويمكن تصور طبيعة هذه العلاقة التلازمية بأشكال مختلفة :

- مشتركات الإمارة والاستشارة تجعلهما مرتبطتين في الأهداف والمقاصد، إذ يمتحنان من نفس المرجعية مفهوماً ووظيفة.

20 - علي السوسي السملالي : عناية الاستعانة في حكم التوظيف والمعونة. ص 68.

21 - انظر : آسية الهاشمي البلعيتي : المجالس العلمية السلطانية على عهد الدولة العلوية الشريفة، مطبعة فضالة، المحمدية، 1416هـ/ 1996 م، ص 230.

- مشتركات التدبير تجعلهما ذاتا واحدة وإن اختلفا في الأدوار، فلا مناص لكل منهما من اختراق مجال الآخر، إذ الاستشارة حاضرة باستمرار في ممارسة الحكم.

- التشاركية في التدبير والتسيير لها تعلق بمؤسسة الاستشارة، باعتبارها مصدراً من مصادر التعقيد الفقهي والأصولي والمقاصدي، القادر على صناعة فقه مواكب للمستجدات والحوادث والنوازل.

ومن ثم، فإن خط الاستشارة يقع في الصميم من العلاقة ذاتها، سواء من الناحية التاريخية أو المعرفية. لذلك فإن الخيط الناظم بينهما مبناه ومنتهاه يتعلق ببناء صرح الأمة المغربية، والدفاع عن موقعها وتحصين وجودها الحضاري وهذا عين مقام التشاركية المتواصلة.

إمارة المؤمنين حفظ للدين والدنيا

الأستاذ عبد الرزاق وورقية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس

مقدمة :

لما خلق الله الإنسان وأنزله إلى الأرض، واستخلفه على عمارتها وعبادته عز وجل، أصبح الاجتماع الإنساني ضروريا من أجل تحقيق ذلك المقصد الرباني، فترتبت عن ذلك ضرورة وجود سلطان يسوس الناس ويدبر شؤونهم، ويحميهم من بعضهم البعض، وقد مرت في تاريخ البشرية دول كثيرة تروم حفظ النظام الإنساني من التهالك والتفكك، وجاء الإسلام مقررًا ما صلح من تلك التراتيب، ومشرعا ما به كمالها، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إمام الأمة وأميرها، ساهرا على حماية حوزتها، وحاثا على حفظ الضروريات وجلب المكارم، حتى إذا توفي صلى الله عليه وسلم خلفه الخلفاء الراشدون متقلدين منصب الإمامة والخلافة، فترسخت منذ ذلك العهد إمارة المؤمنين ؛ مؤسسة ضرورية لحماية الدين وحراسة الدنيا، وقد أولى فقهاء الإسلام أهمية عظمى لهذه المؤسسة نظرا لما تمثله في نظام الإسلام، وما تحتله في قلوب المسلمين من قيمة كلية، فانبروا للتعريف بها، والبرهان على وجوب إقامتها، والحفاظ عليها، وتقعيد أحكامها من وجوب الطاعة لأولي الأمر، وإعانة أمير المؤمنين على حفظ الدين وتدبير المصالح العامة، مؤصلين لكل ذلك بنصوص القرآن، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وسنن الخلفاء الراشدين، مهذبين استنتاجاتهم بما أيده التجارب البشرية عبر التاريخ، وقد بسطوا ما انتهت إليه أنظارهم في أبواب من كتبهم الفقهية أحيانا، وفي أحيان أخرى أفردوا لموضوع إمارة المؤمنين كتبًا مستقلة وهي الموسومة بـ "الأحكام السلطانية" أو "الآداب الملوكية"، ولما كانت إمارة المؤمنين هي حامية الملة والدين في بلدنا المغرب، وكان واجب الطاعة والولاء حق علينا لمولانا أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله، يليق بنا في إطار البحث الأكاديمي بيان مقتضيات هذه المؤسسة العظيمة الأهمية، في حراسة الدين وتدبير أمور الدنيا، وانطلاقا من ذلك سنحاول في هذا المقال تقديم مدخل أولي تعريفني بإمارة المؤمنين عند فقهاء الإسلام، ووجوب إقامتها وأهميتها عندهم، وكذا حاجة باقي الخطط الشرعية لها.

1. إمارة المؤمنين : مصطلحات وتعريفات فقهية :

تداول الفقهاء الحديث عن إمارة المؤمنين عبر مصطلحات عديدة، مختلفة لفظاً، ومتفقة معنى، منها : الإمامة الكبرى، الخلافة، إمارة المؤمنين، إمارة المسلمين ... تؤول في معانيها إلى تصور واحد مداره على مؤسسة إمامة المؤمنين ورياسة دولتهم في شؤون دينهم ودنياهم، وفيما يلي نورد بعضاً من هذه المصطلحات مع تعريفاتها اللغوية والفقهية :

أ. الإمامة :

الإمامة في اللغة : من الأم "والأُمُّ : القَصْد ... والأُمُّ : العَلَم الذي يَتَّبَعُهُ الْجَيْش ... وأُمُّ الْقَوْمِ وأُمُّ بِهِمْ : تَقَدَّمَهُمْ، وهي الإِمَامَةُ . والإِمَامُ : كل من ائْتَمَّ بِهِ قَوْمٌ ... من رئيسٍ وغيره"¹.

فالإمامة في اللغة تطلق عموماً على الرياسة والتقدم والقيادة.

وفي اصطلاح الفقهاء قال إمام الحرمين الجويني (ت 478هـ) : "الإمامة رياسة تامة، وزعامة عامة، تتعلق بالخاصة والعامة في مهمات الدين والدنيا"². وورد في حاشية ابن عابدين "أنها رياسة عامة في الدين والدنيا خلافة عن النبي"³.

وقال بعضهم : "الإمامة الكبرى هي تصرف عام على الأنام، وعند المتكلمين هي خلافة الرسول عليه السلام في إقامة الدين، وحفظ حوزة الإسلام بحيث يجب اتباعه على كافة الأمة وهو الخليفة"⁴.

وذهب آخرون إلى أن الإمامة "استحقاق تصرف عام في الدين والدنيا على المسلمين"⁵.

وتبعاً للإمامة عرفوا الإمام الذي هو أمير المؤمنين بأنه صاحب هذه الرياسة الدينية والدينية، جاء في قواعد الفقه : "والإمام هو الذي له الرياسة العامة في الدين والدنيا جميعاً في الإمامة الكبرى وهو الخليفة عند المتكلمين"⁶.

-
- 1 - لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، الطبعة الأولى، بيروت : ج 12 / ص 25.
 - 2 - غياث الأمم، إمام الحرمين الجويني، تحقيق ودراسة مصطفى حلمي وفؤاد عبد المنعم أحمد، ط دار الدعوة، الاسكندرية، ص : 15.
 - 3 - حاشية ابن عابدين، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ط 1421هـ، ج 1/ ص 548.
 - 4 - قواعد الفقه، محمد المجدي البركتي، دار الصدف ببلشرز، كراتشي ط 1407هـ/ 1986م، ج 1/ ص 190.
 - 5 - البحر الرائق، ابن نجيم الحنفي، دار المعرفة بيروت ط 1، د.ت، ج 6/ ص 299.
 - 6 - قواعد الفقه، ج 1/ ص 190.

وقالوا أيضا في تعريفه والرفع من شأنه : "الإمام الأعظم وهو القائم بخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، فيا لها رتبة ما أسناها ومرتبة ما أعلاها"⁷.

ب. الخلافة والإمارة :

الخلافة في اللغة من الخلف وهو البديل والعوض، جاء في لسان العرب "الْخَلْفَ خَلَفَ الْإِنْسَانُ الَّذِي يَخْلُفُهُ مِنْ بَعْدِهِ، يَأْتِي بِمَعْنَى الْبَدْلِ فَيَكُونُ خَلْفًا مِنْهُ أَيْ بَدَلًا ... يُقَالُ فِي الْفِعْلِ مِنْهُ خَلَفَهُ فِي قَوْمِهِ وَفِي أَهْلِهِ يَخْلُفُهُ خَلْفًا وَخِلَافَةً"⁸.

وفي الشرع أطلقها الفقهاء على الإمامة الكبرى وعلى الإمارة حيث ورد عندهم أن "الخلافة الإمارة والنيابة عن الغير، وشرعها هي الإمامة الكبرى"⁹.

وقرروا أيضا أن "الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"¹⁰.

فيتحصل من هذه الاصطلاحات الفقهية الواردة في باب الإمارة أن الإمارة والإمامة والخلافة كلها أسماء لمسمى واحد، وهو النيابة عن النبوة في رئاسة الأمة وتدبير شؤونها الدينية والدنيوية، ويطلق على متقلدها خليفة وإماما وأميرا، وبالإضافة إلى من يرأسهم يطلق عليه أمير المؤمنين.

وقد برهن العلامة ابن خلدون على توارده هذه المصطلحات على معنى واحد، وقرر بعد ذلك أن الإمامة نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا به، وتسمى "خلافة وإمامة والقائم بها خليفة وإماما فأما تسميته إماما فتشبيها بإمام الصلاة في اتباعه والافتداء به ولهذا يقال الإمامة الكبرى، وأما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله"¹¹.

وقد درج الصحابة وعلماء الأمة من بعدهم على إطلاق أمير المؤمنين لقبا على إمام الأمة المتقلد لمنصب الإمامة على المسلمين في دينهم ودنياهم، وعلى هذا الاصطلاح درج علماء المغرب قديما

7 - مغني المحتاج، محمد الخطيب الشربيني، دار الفكر، بيروت ط. د. ت، ج 4/ ص 129.

8 - لسان العرب، ج 9 ص 89.

9 - قواعد الفقه : ج 1/ ص 280.

10 - مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار القلم بيروت، ط 5، 1984م، ج 1 : ص 191.

11 - مقدمة ابن خلدون، ج 1 : ص 191.

وحديثاً، وهذا ما تؤكد الوثائق التاريخية والسلطانية الواردة في الباب، وسار على نهجهم السيد الدستور المغربي الحالي في الفصل 41 منه، بتأكيد على أن : "الملك أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين والضامن لحرية ممارسة الشؤون الدينية"¹².

وجاء في الفصل 42 من الدستور : "الملك رئيس الدولة وممثلها الأسمى، ورمز وحدة الأمة، وضامن استمرارها"¹³.

وهذا الفصلان من الدستور جاء - كما هو واضح - موافقين للمنظور الشرعي لإمارة المؤمنين، وخادمين لتراتب الشريعة في حفظ الدين وحراسة الدنيا.

2. اندراج مبحث إمارة المؤمنين في علم الفقه أم في علم الكلام ؟

ذهب جمهور فقهاء أهل السنة إلى إدراج مبحث الإمامة ضمن المباحث الفقهية، إذ يعتبرونها من فروض الكفاية¹⁴، ويوردون عنها الحديث ضمن كتب الفقه المعتادة، أو يخصصون لها كتباً مفردة تحت عناوين مختلفة كالأحكام السلطانية، أو الآداب الملوكية ... إلا أنه في المقابل نجد بعض الطوائف الأخرى يقحمون الحديث عن الإمامة في كتب العقائد وعلم الكلام، وهذا دأب الفرق الكلامية عادة كالشيعة مثلاً، وقد جاراهم بعض أهل السنة للرد على مطاعنهم في الخلفاء الراشدين¹⁵ لذلك نجد بعض متكلمي أهل السنة كذلك أدرجوا الحديث عن الإمامة في كتبهم الكلامية.

3. أهمية مؤسسة إمارة المؤمنين :

أكد الفقهاء على أهمية مؤسسة إمارة المؤمنين في حفظ مصالح الأمة الدينية والدنيوية، واعتبروها أصلاً لا تستقر بدونه قواعد الملة، قال الإمام الماوردي : "إن الله جلت قدرته ندب للأمة زعيماً خلف به النبوة، وحاط به الملة، وفوض إليه السياسة، ليصدر التدبير عن دين مشروع، وتجتمع الكلمة على رأي متبوع، فكانت الإمامة أصلاً عليه استقرت قواعد الملة، وانتظمت به مصالح الأمة حتى استتب بها الأمور العامة، وصدرت عنها الولايات الخاصة، فلزم تقديم حكمها على كل حكم سلطاني"¹⁶.

12 - الدستور المغربي، 2011، الفصل 41 منه.

13 - الدستور المغربي، 2011، الفصل 42 منه.

14 - حاشية ابن عابدين، ج 1/ ص 547.

15 - حاشية ابن عابدين، ج 1/ ص 547.

16 - الأحكام السلطانية، أبو الحسن علي الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، [د.ت.]، ص : 43.

وقال الإمام الغزالي كلاما نفيسا في ضرورة إمارة المؤمنين وأهميتها في حفظ الدين ووحدة الأمة، جاء فيه : "لا يتمارى متدين في أن الدب عن حوزة الدين والنضال دون بيضته، والانتداب لنصرته وحراسته، بالمحافظة على نظام أمور جند الإسلام وعدته أمر ضروري واجب لا بد منه، وأن النظام لا يستمر على الدوام إلا بمترصّد يكلاً الخلق بالعين الساهرة، فمهما اشرأبت فئة للثوران، وكشرت عن نابها، وأشرفت على الاستحكام بادر إلى تطفئتها، وحسم غائلتها، فإنها لو تركت حتى إذا ثارت اشتغل بتطفئتها العوام والطغام والأفراد والآحاد، لأفضى ذلك إلى التعادي والتضاد، وصارت الأمور شورى وبقي الناس فوضى مهملين سدى، متهافين على ورطات الردى، مقتحمين فيه مسالك الهوى ومناهج المنى، وعند ذلك تتناقض الإرادات، وتتنازع الشهوات، وتفضي بالآخرة إلى استيلاء الرذائل على الفضائل، ويتوثب الطغام على علماء الإسلام والأمثال، وتمتد الأيدي إلى الأموال والفروج، وأصبحت الأيدي السافلة عالية، وليس يخفى ما في ذلك من حل عصام الأمور الدينية والدنيوية، فيتبين بهذا للنّاظر البصير أن الإمام ضرورة للخلق لا غنية لهم عنه في دفع الباطل وتقرير الحق"¹⁷.

4. وجوب نصب الإمام وطاعته :

أجمع فقهاء المسلمين على وجوب نصب الإمام أميرا على المؤمنين لتدبير شؤون دينهم ودنياهم¹⁸. نقل هذا الإجماع الإمام الماوردي بقوله : "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع"¹⁹.

ونقل أيضا هذا الإجماع إمام الحرمين الجويني مؤكدا اتفاق مذاهب العلماء قاطبة على وجوب نصب الإمام²⁰.

وأكد هذا الاتفاق كذلك العلامة ابن خلدون بقوله : "ثم إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك، ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار، واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام"²¹.

17 - فضائح الباطنية، أبو حامد الغزالي، تحقيق عبد الرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة : 1383هـ/1964م، ص 171-172.

18 - ينظر الأحكام السلطانية، ص : 5.

19 - ينظر المصدر السابق نفسه.

20 - غياث الأمم : 16.

21 - مقدمة ابن خلدون ج : 1 ص : 191.

وقد استدل الفقهاء على ضرورة نصب أمير المؤمنين بأدلة نقلية وأخرى عقلية واقعية :

أ. الأدلة النقلية :

أولها القرآن الكريم : حيث استدل الفقهاء بالآيات الواردة في طاعة أولي الأمر، كقوله تعالى : ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾²²، وقال القرافي مستدلا بهذه الآية : "فطاعتهم فرع وجودهم، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"²³.

وثانيها السنة : إذ ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الإرشاد إليها والإشارة إلى منصبها²⁴ كما في قوله : "الأئمة من قریش"²⁵.

أضف إلى ذلك الأحاديث الواردة في طاعة الإمام والأمير، حيث "ثبت كتابا وسنة الأمر بطاعة الأئمة"²⁶.

وأيضا إرشاده صلى الله عليه وسلم إلى الاستئذان بسنة الخلفاء الراشدين، وتقديم الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لأمر الإمامة ومبايعة الإمام على كل شيء حتى إنهم اشتغلوا بذلك عن تجهيزه صلى الله عليه وسلم²⁷.

ومما يستدل به من السنة كذلك على مشروعية الإمارة وضرورتها تلك التصرفات النبوية الإمامية، فتصرفه بوصف الإمامة كما ذكر القرافي : «وصف زائد على النبوة والرسالة والفتيا والقضاء»²⁸، إذ أن تصرف صاحب الشريعة بهذا الوصف يتعلق بتدبير الشأن العام من جلب المصالح العامة للأمة ودرء المفاسد العامة عنها، ذلك أن الإمام هو الذي فوضت إليه السياسة العامة في الخلائق، وضبط معاهد المصالح، ودرء المفاسد، وقمع الجناة وصد الطغاة وتوطين العباد في البلاد إلى غير ذلك مما هو من هذا الجنس²⁹ من وظائف ومهمات أمير الدولة وما يتفرع عنها، وهذا النوع من التصرف النبوي اعتبر أصلا لإمارة المؤمنين وتصرفاتها في شؤون الأمة الدينية والدنيوية.

22 - سورة النساء، الآية : 59.

23 - الذخيرة، شهاب الدين القرافي، تحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط 1994م، ج 10/ص 24-23.

24 - السيل الجرار، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الكتب العلمية، بيروت ط 1، 1405هـ، ج 4، ص 504-503.

25 - أخرجه الإمام أحمد في مسنده، من حديث أنس بن مالك، رقم : 11859.

26 - السيل الجرار، ج 4/ص 504-503.

27 - السيل الجرار، ج 4/ص 504-503.

28 - الإحكام، للقرافي ص : 105.

29 - المصدر السابق، نفسه ص : 105.

ب. الأدلة العقلية :

ذهب بعض الفقهاء إلى تأييد الأدلة النقلية السابقة بسند من الحجج العقلية المقتضية لضرورة إقامة مؤسسة إمارة المؤمنين وحفظها حماية للدين والملة والنظام، ومن جملة هذه الحجج أمران :

- أحدهما : "ضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم منفردين، ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الأغراض، فما لم يكن الحاكم الوازع أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم، مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية"³⁰.

- ثانيهما : مفاده أن انتفاء وجود إمارة المؤمنين "يفضي إلى الهرج والتظالم"³¹ واندراس الشريعة لكون أن أمير المؤمنين هو الأصل في الولايات الدينية والخطط الشرعية اللازمة لاستمرار الدين ومقاصده.

5. حاجة الخطط الدينية جميعها إلى إمارة المؤمنين :

من الأمر المعلوم عند الفقهاء وجوب إقامة الشريعة وتنزيلها، وذلك لن يتم إلا عبر خطط شرعية وولايات دينية (كالقضاء والفتيا والحسبة والمظالم ... وغيرها)، وعند إجالتهم النظر في كيفية تثبيت تلك الخطط والولايات وجدوا أن ذلك متوقف على مؤسسة إمارة المؤمنين، لأن أمير المؤمنين هو الإمام الأعظم، وهو القاضي وهو المفتي، وهذه الخطط تستحدث بأمر وتفويض منه لأنه هو الأصل فيها، وأكد ذلك ابن خلدون قائلا : "فاعلم أن الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء ... كلها مندرجة تحت الإمامة الكبرى التي هي الخلافة، فكأنها الإمام الكبير والأصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وداخله فيها لعموم نظر الخلافة وتصرفها في سائر أحوال الملة الدينية والدينية وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم"³².

خاتمة :

حاولت في هذه السطور بيان معنى إمارة المؤمنين عند الفقهاء، وضرورة وجودها شرعا وعقلا، وبيان كونها الأصل لجميع الخطط الشرعية والولايات الدينية، وهذا كله بإجمال يناسب المقام، على أنه يمكن توسيع البحث في الموضوع مستقبلا ليصبح كل محور من محاوره عنوان مقال علمي، خدمة لما نرومه من تثبيت المفهوم وتأصيله، وأكثر تفصيلا لما تم إجماله هنا.

30 - مقدمة ابن خلدون ج : 1 ص : 192-193.

31 - الذخيرة، ج 10/ص 23-24.

32 - مقدمة ابن خلدون، ج : 1 ص : 219.

خصوصية الفكر الديني بالمغرب : النموذج المغربي والسياق الأوروبي

الأستاذ عبد الحميد العلمي،

كلية الشريعة - فاس

لما كان الإسلام خاتم الأديان، فقد كتب الله له أن يصل إلى مختلف الشعوب والبلدان، فحاز الغرب الإسلامي شرف ذلك الوصول، وتلقاه أهله بالترضي والقبول، فاستعانوا على ما هم فيه بما فطرهم الله عليه من حب الدين وتعظيم النبي الأمين ولمن له انتساب لدوحته الشريفة، فاستقرت أحوالهم في الابتداء على ضبط أوضاعهم بمسمى الدين، وربط أنماط سلوكهم بفروض الطاعة ولزوم الجماعة، واستمر ذلك الضبط قروناً عدداً أسفرت عن خيارات يمكن اعتبارها ثوابت أرسدت دعائم الشهود الحضاري في هذا المصر من العالم الإسلامي.

لذا اخترت أن أترجم هذا المبحث بـ: "خصوصية الفكر الديني بالغرب الإسلامي : النموذج المغربي والسياق الأوروبي"، وبعد استيفاء النظر في قيوده وجدته مؤسساً على مسألتين : إحداهما لها تعلق بالخصوصية، والثانية بالنموذج.

المسألة الأولى : خصوصية الفكر الديني بالغرب الإسلامي :

من المعلوم أن شمال إفريقية والأندلس عرفت بعد الفتح الإسلامي عقائد شتى في الأصلين. وتكاد تجمع المصادر على حضور مذاهب الأوزاعي وأبي حنيفة والشافعي في الفروع ؛ ومذاهب الشيعة والخوارج والمعتزلة في العقيدة، واستمر الأمر على هذا الوضع إلى أن منّ الله على هذه الديار بدخول المذهب المالكي إليها. وفق الترتيب الآتي :

1- الأندلس :

في أيام عبد الرحمن بن معاوية (138-172هـ) دخل الموطأ إلى الأندلس على يد الغازي بن قيس (ت 199 هـ) وقد تتلمذ على زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبظون (ت 204 هـ) الذي ثبتت لقياه بذلك

فأخذ الموطأ عنه في صورته المنقحة وذلك أيام هشام بن عبد الرحمن (172هـ-180هـ)، ثم أخذ المذهب المالكي طريقه إلى الحياة التشريعية أيام الحكم بن هشام (180هـ-206هـ) "الذي ألزم الناس جميعاً به وصير القضاء والفتيا عليه"¹.

2- تونس :

في القرن الثاني قيص الله للمذهب المالكي أن يحقق وجوده في شمال إفريقية بتونس أولاً على يد جماعة ممن ثبتت لقياتهم بالإمام مالك وهم : علي بن زياد (ت 183هـ) ، وابن أشرس الأنصاري وأسد ابن الفرات (ت 213هـ) وسحنون (ت 240هـ).

قال القاضي عياض في المدارك : "وأما إفريقية وما وراءها من المغرب فقد كان الغالب عليها في القديم مذهب الكوفيين إلى أن دخل علي بن زياد وابن أشرس والبهلول بن راشد وبعدهم أسد ابن الفرات وغيرهم بمذهب مالك فأخذ به كثير من الناس"².

3- المغرب الأقصى :

أما أهل المغرب الأقصى فقد عرفوا مذهب مالك أيام الدولة الإدريسية، قال الناصري في الاستقصا : "والمعروف أن مذهب مالك ظهر أولاً بالأندلس ثم انتقل إلى المغرب الأقصى أيام الأدارسة"³.

وقد استشكل بعضهم تردد القول بمالكية إدريس الأول، وجزم صاحب الأزهار العاطرة أن الفترة لا تسعف على التعلق بالتقليد فقال : "إن الإمام إدريس قد علم فضله وكماله وعلمه عند مالك وغيره من الأئمة، وهو معاصر له ولغيره من الأئمة، وهو إمام مجتهد في محل الاجتهاد. والمجتهد لا يقلد غيره"⁴.

أما ابنه إدريس الثاني فقد ثبتت مالكيته لتواتر النقول عليها، ومن تجلياتها :

أ - أخذه الموطأ عن قاضيه عامر بن محمد بن سعيد القيسي مع حفظه له.

ب - دعوته إلى أحقية الأخذ بمذهب مالك وحث الناس على اتباعه.

1 - ترتيب المدارك، 55/1.

2 - نفسه، 25/1.

3 - الاستقصا، 191/1.

4 - الأزهار العاطرة، 58.

فقد جزم المقرري في كنوز الأسرار بقوله : "وعلى مذهبه كان إدريس الثاني وجميع العلماء من أهل المغرب الأقصى بسبب تقليده لمالك وتحصيله كتاب الموطأ وحفظه له"⁵.

ومما أثر عن إدريس الثاني قوله : "نحن أحق باتباع مذهبه وقراءة كتابه لذا أمر بذلك في جميع عمالاته"⁶.

والقول بتعميم المذهب في جميع العمالات مشعر بتحديد الخيارات المفضية إلى الحديث عن ثلاثة مقتضيات متبوعة بثلاث خصوصيات.

• المقتضيات والخصوصيات :

1 - مقتضيات تمسك المغاربة بالمذهب المالكي وهي :

أ - المقتضى الأول : ويتعلق بالضمانات التشريعية الخادمة للإيالة الشرعية لثبوت حقوق الراعي والرعية، وبأبها العمل بالمصالح المرسلّة التي تعتبر عند الإمام مالك من أصول الاستدلال المعتمدة. وقد وجد فيها مجتمع الغرب الإسلامي دليلاً يمكن إعماله في مختلف القضايا الحياتية والتراتيب الإدارية. لذا تواتر النقل بأحقية تلك الضمانات من الفقهاء والأمراء فقد ذكر صاحب المعيار أن الأمير الحكم الأموي صرح أنه نظر طويلاً في أخبار الفقهاء فلم ير مذهباً أسلم من المذهب المالكي"⁷.

ب - المقتضى الثاني : يتعلق بالقوة التشريعية للمدرسة المالكية، وهي ما يعبر عنها بشخصية القانون في المدارس الوضعية. ومما يصور هذه الشخصية أن المذهب المالكي لم يقتصر منذ نشأته على حدود قطرية أو ألوان عرقية أو اعتبارات جنسية، بل إن شخصيته الفقهية جعلت أحكامه صالحة للإعمال في مختلف البيئات.

ج - المقتضى الثالث : يتعلق بقدرة الفقه المالكي على حراسة الأحكام الدستورية ودعم المؤسسة القضائية بناء على السلطة الفقهية التي قادها فقهاء استحقوا لقب المشاورين. يقول صاحب النفع : "كان السلاطين يراعون أحوال الشرع في كل الأمور وتعظيم الفقهاء والعمل بأقوالهم وإحضارهم مجالسهم واستشارتهم".

5 - الأزهار العاطرة، 130.

6 - نفسه 130.

7 - المعيار، 6/357 بتصرف.

ولفظ الاستشارة يصدق على مهام منها :

- * تدقيق النظر في الأمور العامة للمسلمين وممارسة مبدأ المشاورة فيما يخدم مصالحهم.
- * انخراط المشاورين في توجيه السلطة القضائية، فقد جرت عادة القضاة أن يتوجهوا ببعض الأقضية إلى هذه الهيئة قصد دراستها ومساعدتهم على بيان أحكامها.
- يقول خوان ماركوس كيصادا : "وباستعمال هذا المبدأ في الحقل القضائي فإن الأشخاص الذين يساعدون القضاة في إدارة القضاء يشكلون نوعاً من مجلس الشورى"⁸.
- وقد ترتب عن هذه المقتضيات انطباع صفة التدين لدى المغاربة بثلاث خصوصيات هي :
الخصوصية الأولى : تتعلق بتمسك أهل المغرب بمذهب أهل السنة القاضي بوجوب الطاعة ولزوم الجماعة، قال الناصري : "أما حالهم في الأصول والاعتقاد، فبعد أن طهرهم الله تعالى من نزعة الخارجية أولاً، والرافضية ثانياً، أقاموا على مذهب أهل السنة والجماعة"⁹.
- وجاء في النبوغ المغربي : "فإن مذهب مالك لم يتوطد أمره في هذا المصر كمذهب فقهي فقط، ولكن كعقيدة أيضاً"¹⁰.

ولعل الخطاب الذي وجهه المولى إدريس الأول (ت 177هـ) إلى المغاربة فيه ما يدل على ما نحن فيه حيث استهله بقوله : "أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وإلى العدل في الرعية والقسم بالسوية، ورفع المظالم، والأخذ بيد المظلوم، وإحياء السنة وإماتة البدعة، وإنفاذ حكم الكتاب على القريب والبعيد"¹¹.

ولا شك أن الدعوى إلى التمسك بالسنة، ومجانبة البدعة مما علم من أمر السلف الصالح ومنهم الإمام مالك رحمه الله الذي أثرت عنه أقوال في التأويل والاستواء، كما صنف في القدر تأليفاً لتلميذه عبد الله بن وهب سماه كتاب القدر وما ورد من ذلك في الآثار¹².

8 - النظام القضائي بالأندلس، ص 17 من الترجمة المرقونة.

9 - الاستقصا، 140/1.

10 - النبوغ، 54/1.

11 - أصل هذا الخطاب في الوثيقة اليمنية المنشورة بكتاب الإمام إدريس مؤسس الدولة المغربية، إعداد وتنسيق عبد الرحيم بن سلامة.

12 - تحقيق عبد العزيز عبد الرحمن الغنيم، دار السلطان، السعودية، 1986م.

الخصوصية الثانية : وتتعلق بتشوف المغاربة إلى الوحدة المذهبية المتضمنة لقيم الإسلام السامية فتحقق لهم بذلك سلوك في التدين مستمد من أصول المدرسة المالكية التي تفردت بالأمور الآتية :

1- أخذها بقاعدة الأعراف والعادات : فقد ذكر أبو العباس المقري أن بعض حكام الأندلس قال : "إننا ما استقمنا في هذه الديار إلا بحفظ العوائد"¹³. وقال القرافي : "إذا جاءك رجل من غير إقليمك لا تجره على عرف بلدك ... فهذا هو الحق الواضح. والجمود على المنقولات إضلال في الدين وجهل بمقاصد المسلمين"¹⁴.

2- أخذها بعمل أهل المدينة وذلك كمسألة ترجيع الأذان وخيار المجلس وغيرها ...

3- تفردها بالعمل بمراعاة الخلاف وهي إعمال دليل الخصم في لازم مدلوله الذي أعمل في نقيضه دليل آخر. ومثالها : الحكم في نكاح الشغار بالفسخ مع إثبات النسب والميراث للأولاد واستحقاق الزوجة الصداق بما استحل من بضعها.

4- عملها بقاعدة الخروج من الخلاف¹⁵.

5- عملها بقاعدة تجنب الخلاف¹⁶.

ووجه الدلالة بعمل المالكية بهالة علاقة برفع الخلاف له استمداد من الخصوصية المتميزة التي ارتضاها المغاربة لممارسة شعائرهم الدينية.

الخصوصية الثالثة : وتتعلق باختيار المغاربة لربط سلوكهم الديني بمحبة الشرفاء تشرعاً لا تشيعاً، لذلك راعوا في تدينهم التعلق بذلك الحب لأنه مستمد من محبة الله. فأقبلوا على توقيف من سلك في منهاجه الطريق إلى المحبوب. وهذا من بوادر التصوف عند المغاربة، فقد ذكر صاحب كتاب معطيات الحضارة المغربية أن دولة الأدارسة لم تقم "إلا بذلك النفوذ الروحي الذي يحظى به الأشراف، والذي سيمثل دوراً مهماً في تمهيد السبيل لكثير من الشيوخ الذين سيتزعمون الطريقة في العصور التالية"¹⁷.

13 - أزهار الرياض، 59/1.

14 - الفروق، 177/1.

15 - وبابها الورع والأخذ بالأحوط.

16 - ومثالها السماح بإتمام الصلاة للمالكي المأموم مع علمه بحنفية الإمام الذي لا يعتبر قراءة الفاتحة شرطاً في صحة الصلاة.

17 - معطيات الحضارة المغربية، 144/1.

وهكذا حمل أبو مدين (ت 594هـ) طريقة الجنيد (ت 297هـ) للمغرب من سلسلة الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ) ومن جهة الغزالي عن علي بن حرزهم.

قال ابن عاشر في المرشد المعين :

في عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك

وبإمعان النظر في هذه الخصوصيات يتبين أن تمسك المغاربة بها كان مستجيباً للمقتضيات الدينية والسياسية والاجتماعية، وما كان لهم أن يكونوا كذلك لولا تشبثهم بتلك الخيارات التي بوأتمهم مكان الريادة في ممارسة نفوذهم العلمي والحضاري طوال اثني عشر قرناً خلت.

فهل استطاعت تلك الخصوصيات أن تضمن لأهل المغرب النموذج الأمثل للتواصل الحضاري في السياق الأوروبي ؟ هذا هو موضوع المسألة الثانية :

المسألة الثانية : النموذج المغربي والسياق الأوروبي :

1- النموذج المغربي بين إنشاء المؤسسات وضمان التجليات :

من المقرر أن جريان التدين على أصول الشرع الثابتة أفضى إلى ظهور نموذج مغربي محصن من الأهواء المتفرقة والسلوكات المتطرفة. فتحققت له بسبب ذلك الشروط اللازمة لإثبات الذات وضمان تدين أمثل فيما جاوره من القارات. لذا اقتضى منهج الدراسة أن أعرض لهذا النموذج من خلال الإفادات الآتية :

الإفادة الأولى : تتعلق بإقامة الجوامع والمدارس والمؤسسات، وذلك لجعلها فضاءات لممارسة الشعائر الدينية والتضلع من العلوم الإسلامية.

فقد كان يوم السبت مستهل شهر رمضان المعظم من عام 245هـ الموافق لـ 2 دجنبر 859م إيذاناً بوضع الأساس لبناء جامع القرويين بفاس الذي آلت إليه الريادة في الجمع بين الواجبات الدينية والدراسات الشرعية، فاحتلت بفضل ذلك الجامع مكانة سنوية بوأتمها شرف الحفاظ على الخصوصية المغربية والانخراط في بناء الفكر العلمي بالديار الأوروبية.

وقد كانت مدينة سبتة معبرا استراتيجيا لذلك العبور. وتخبّرنا المصادر أن جماعة من أعلام سبتة درسوا بجامع القرويين أمثال :

أ - عبد الرحيم بن أحمد الكتامي المعروف بابن العجوز.

ب - أبو عبد الله محمد بن علي بن الشيخ.

ج - عمر بن ميمون بن بكر القيسي.

د - حمود بن غالب الهمداني¹⁸.

وغير هؤلاء كثير ممن استوطنوا فاس أو رجعوا إلى بلادهم سفراء لنموذج التدين المغربي القادر على الاندماج في الفضاء الأوروبي.

الإفادة الثانية: تتعلق بتبادل الزيارات العلمية ومزاولة الخطط الشرعية بالديار الأندلسية.

1 - فمن الذين وفدوا من الأندلس إلى المغرب:

أ - أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد الخزرجي القرطبي (ت 582هـ).

ب - إبراهيم بن يوسف بن محمد الأوسي المالقي (ت 615هـ). روى بفاس عن أبي الحسن بن جبير وابن حرزهم الفاسي (ت 559هـ). حدث عنهما بالموطأ¹⁹.

ج - الطبيب المالقي أبو القاسم القرشي الذي عُين مديراً للمارستان بفاس عام 754هـ.

د - الجراح الغرناطي أبو عبد الله محمد القربلياني.

هـ - السفير أبو الحسن النباهي صاحب كتاب المرقبة العليا²⁰.

2 - ومن الذين وفدوا من فاس إلى الأندلس:

أ - أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسي (ت 357هـ). رحل إلى الأندلس واستقر بها مرابطاً، حدث عنه بها أبو الفرج الثغري (ت 390هـ).

ب - أبو هارون بن يحيى الفاسي (ت 388هـ) دخل الأندلس واستقر بها.

ج - محمد بن مخلوف الفاسي قدم قرطبة في شهر رمضان (ت 388هـ)، وكتب عنه محمد بن عتاب الفقيه.

18 - ذكر محمد بن القاسم السبتي في كتابه اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، أن عدد المساجد بها بلغ ألف مسجد كما بلغ عدد الخزانات العلمية اثنتين وستين خزانة.

19 - الجذوة، 87.

20 - مقال: "العلاقة الثقافية" لأحمد مختار العبادي، ضمن: الكتاب الذهبي.

د - عبد الله بن مرزوق عينه سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف خطيبا بقصر الحمراء واستناداً بالمدرسة النصرية.

هـ - أبو الحسن الأنصاري عينه سلطان غرناطة محتسبا للعاصمة ومقرئاً بها.

الإفادة الثالثة : تتعلق بأعلام أثروا أسهموا في الفكر الأوروبي ومنهم :

أ - ابن خلدون صاحب المقدمة الذي أخذ عن العلماء الذين رافقوا السلطان أبا الحسن إلى تونس كالسطي الفاسي والذي استقدمه السلطان أبو عنان إلى فاس سنة 755هـ ونظمه في مجلسه، فلقى الطبيب المنجم إبراهيم بن زرزر اليهودي، كما لقي عام 761هـ بجامع القرويين خطيب قسطنطينة أبا علي بن باديس الماهر في التنجيم²¹.

ب - محي الدين بن عربي الحاتمي (ت 638هـ) لقي بفاس أبا عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن التميمي الفاسي وسمع منه كتاب المستفاد في مناقب الصالحين والعباد من أهل مدينة فاس وما والاها من البلاد.

ج - ابن رشد الحفيد شارح أرسطو وصاحب الكليات في الطب.

د - ابن طفيل صاحب حي بن يقظان الذي تأثر به رابليه وروبنسن وغيرهما.

هـ - ابن حزم الأندلسي، فقد ثبت أن أبا علي الحسن بن علي الفاسي كان يؤم بقرطبة مجلس عبد الرحمن بن يزيد الأزدي. "وفي هذا المجلس صحبه ابن حزم الظاهري لما عقل وانتفع به كثيرا"²².

الإفادة الرابعة : تتعلق بالفصل التواصلي المغربي في المجال الأوروبي :

لقد تضافرت كتابات المسلمين وغيرهم من اليهود والمسيحيين على أن العلوم الإسلامية وصلت إلى الديار الأوروبية عن طريق المد العلمي الذي عرفته حواضر المغرب والأندلس والذي قاده مجموعة من القساوسة والأخبار ورجال العلم والمعرفة ؛ فقد ذكر كلينار الذي زار مدينة فاس أنها كانت تحتوي على مائتي مدرسة.

21 - "جامع القرويين"، عبد الكريم بن الحسني ص 167، الكتاب الذهبي.

22 - نفسه.

ومن الذين وردوا على فاس ودخلوا القرويين واتصلوا بأعلامها : لوبليش (ت 1218م)، والأسقف أندري الذي زار فاس في عهد بني وطاس لمحاورة العلماء في العقيدة. وكذلك اليهودي خلوف وغيرهم كثير...²³.

فإلى جانب العديد من المسلمين والمثأت من المسيحيين الذين تجشموا عناء السفر لزيارة فاس والمقام بها نجد طائفة من اليهود ممن بلغوا درجة السفارة والوزارة لما ينعمون به من صفة المواطنة...²⁴.

كذلك نجد القسيس نيكولا كلينار يرد على فاس من أجل تحسين معارفه في اللغة العربية على يد علماء فاس.

وفي سنة 1032هـ أرسلت الجمهورية الهولندية سفيرها إلى المغرب واختارت العالم جاكوبيس خوليس مهندساً ملحقاً بالسفارة، فانتهاز فرصة إقامته لتقوية معارفه في العربية، فتأتى له ذلك على أيدي علماء فاس. ونظراً إلى أن أوروبا كانت محتاجة إلى المادة العلمية فقد أخذ معه مجموعة من المخطوطات منها :

أ - كتاب المستغني في الطب.

ب - كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، ترجم ونشر بأروبا منتصف القرن 19م.

وقد عقب الناطق باسم جامعة ليدن بهولندا بقوله : "عندما شرعنا في تدريس العربية بليدن فإن علماء المغرب الأقصى، وبعضهم دون شك طلاب جامعة القرويين كانوا أساتذة مستعربينا الهولنديين"²⁵.

إن قناعة الأوروبيين بما للتراث الإسلامي من أهمية في النهوض بالشأن الحضاري دفعهم إلى الإقبال عليه، بل إلى انتحاله في بعض الأحيان. فقد نقل عن ابن عبدون الإشبيلي أنه كان يمنع "بيع الكتب للنصارى لأنهم ينسبونها إلى أساقفتهم"²⁶.

23 - جامع القرويين، لعبد الهادي التازي، 119/2.

24 - نفسه، 419/2.

25 - كلمة الأستاذ درويش باسم جامعة ليدن، ضمن الكتاب الذهبي، ص 70.

26 - انتقال العلوم إلى أوروبا. المعايير والآليات، عبد الخالق الشدادى، ص 78.

ومما قيده تلاميذ جيرار الكرمي أنه جاء من شمال إيطاليا إلى طليطلة طالبا كتاب المجسطي، وهناك "وجد كما هائلا من المخطوطات العربية فقرر تعلم اللسان العربي لترجمتها"²⁷.

ومما انبنى على رغبة علماء أوروبا في الترجمة قيام مرقس الطليطلي بترجمة القرآن وكتاب العقيدة لابن تومرت إلى اللاتينية²⁸.

كما اشتهر في المجال نفسه من اليهود بدرو وألفنسو وموسى سفردى.

وفي الطب ترجمت الكليات لابن رشد والتيسير لابن زهر وأرجوزة ابن سينا.

وإذا كنت لست بحاجة إلى الحديث عن صحة زيارة سلفستر الثاني (ت 495هـ) لجامعة القرويين ونقله الأعداد العربية إلى أوروبا، فإن الذي عليه بعض الباحثين أنه ثبت التحاقه بدير سانتا ماريا شمال برشلونة حيث قضى بها ثلاث سنوات، وإليه يرجع الفضل في انتعاش العلوم والتقنيات بأوروبا²⁹.

كما أن الثابت عندهم أن فرديريك الثاني تبادل السفارات مع مجموعة من الدول، وكانت له مراسلات مع مسلمين خارج صقلية تتضمن قضايا رياضية وفلسفية ومنهم ابن سبعين المرسي نزيل سبتة الذي انتدبه الخليفة الموحدى للإجابة عما يعرف بالمسائل الصقلية³⁰.

ولا ننسى هنا أثر المترجمين والنقلة من اليهود والنصارى وإسهامهم في نقل الفكر الإسلامى إلى أوروبا، إذ عرفت أقوال ابن باجة في المدرسة الألمانية ونظريات ابن رشد في القضايا الطبية والمسائل الأرسطية؛ فهذا إسحاق ألباغ يستثمر تلك المقولات للرد على الغزالي وابن ميمون، كذلك كان الأمر بالنسبة لموسى نربوني في شرحه على دلالة الحائرين. وصاحب الدلالة هو موسى بن ميمون الإسرائيلي القرطبي الطبيب الفيلسوف اللاهوتي رئيس اليهود في عصره (ت 601هـ)، خرج مع أسرته من قرطبة في عصر الموحدين واستقر بفاس مدة. وكان يحفظ القرآن عن ظهر قلب.

وبوجود هذا اليهودي بفاس، ووجود جليبر النصراني قبله، تكون فاس قد استقبلت في عهدي مختلفين رجلين :

27 - نفسه

28 - مدرسة المترجمين بطليطلة، أحمد كموم، ص 113.

29 - انتقال العلوم إلى أوروبا. المعايير والآليات، عبد الخالق الشدادى، ص 72.

30 - نفسه 88.

- أحدهما صار حبراً لليهود بمصر والآخر حبراً للنصارى بروما باسم البابا سلفستر الثاني.

- إن الحديث عن ريادة النموذج المغربي في التواصل الحضاري منوط باستحضار ما أنجبه من أعلام خدموا العلم على مرّ الأزمان، فانتجوا تراثاً مشبعاً بنفحات مغربية ترجمت إلى عدة لغات أجنبية، فقيض الله لهم أن تسطع أنوارهم لتمس مختلف المجالات العلمية ما أهلهم بحق أن يكونوا رواد التواصل الحضاري باقتدار.

2- النموذج المغربي والسياق الأوروبي :

لقد تقرر أن تمسك المغاربة بثوابتهم الدينية جعل منهم النموذج المتخذ من الانخراط في المنظومة الحضارية داخل القارة الأوروبية.

فكانت لتلك الثوابت تجليات بنفحات مالكية ظهرت آثارها في التشريعات الفرنسية والإسبانية والألمانية والتلمودات اليهودية.

إذ من المعلوم أن الفقه المالكي له حضور في المساطر الفرنسية في مدونة نابليون خاصة في الأحكام المتعلقة بالعقود والالتزامات.

كذلك كان الأمر في القانون المدني الإسباني في أحكام الأسرة وعقود الزواج، كما أخذ المشرع الألماني ببعض أحكام القراض في قانون الشركات.

وقد كان للمدرسة المالكية أثر في النوازل اليهودية، إذ تدلنا المصادر على أن اليهودي المغربي إسحاق بن يعقوب الكوهن ألف 320 فتوى كلها محررة باللغة العربية وهي مقتبسة من الفقه المالكي.

ولعل أهم ما جاء به نموذج التدين المغربي القائم على وحدة العقيدة وسلامة الشريعة والسلوك تأثر أوروبا بمبادئ الأخلاق، مما حدا بهارسيل بوازار إلى وضع كتاب حول الإنسية الإسلامية، أو الإسلام والخلق الدولي³¹.

والناظر في تاريخ الدولة المغربية يجد أن نموذج التدين فيها استمر حاضراً في كل الحقب والفترات.

31 - انظر كل هذا في فاس منبع الإشعاع في القارة الإفريقية لعبد العزيز بنعبد الله، الجزء الثاني، ص 557.

فإذا كان للأداسة فضل الدعوة والتأسيس، فللمرابطين والموحدين أثر في البناء والتقعيد. سواء تعلق الأمر بإيفاد المغاربة إلى الأندلس بغرض الريادة والتشديد، أو بقبول نازحيها في حالات العسر والتشديد.

فهذا الخليفة الموحي الرشيد بن المأمون يصدر ظهيراً جاء فيه : "هذا ظهير شريف أمر به أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ... للمتقلين من بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ... حيث أنهى ذو الوزارتين الشيخ أبو جعفر ما أصابهم من الجلاء ودهاهم من أمر الأعداء ... ويتلمس لهم مكاناً للقرار، وعند ذلك أذن لهم في النقلة إلى رباط الفتح وأن يتخذوا مساكنه وأرضه، بدلاً من مساكنهم وأرضهم وأن يعمرُوا فيه فإنه مناخ التاجر والفلاح، وملتقى الحادي والملاح، وأن يتوسعوا في الحرث، ففي أرضه هناك متسع على عادتهم ببلادهم. وكتب في الحادي والعشرين لشعبان المكرم من سنة سبع وثلاثين وستمائة"³².

كذلك استمر الأمر في فترة المرينيين الذين اعتنوا بالعلم ومدارسه وكان لهم حضور متميز في تقوية الحركة العلمية بأوروبا.

وبقي العهد موصولاً لدى ملوك الدولة العلوية الشريفة الذين لهم أياد سابقات على حماية التدين المغربي من الشائبات. لذا سجلوا للمغرب حضوراً مشرفاً في بناء المؤسسات وإصلاح المنظومات وإقامة العلاقات وإرسال البعثات وتوجيه الدبلوماسية، فحاز بذلك شرف الوحدة والاستقرار وضمن الحضور العلمي والتواصل الحضاري على المستوى القاري والعالمي.

فهذا محمد الأمين بن سليمان تركي نزيل فاس، ألف للمولى عبد الحفيظ العلوي كتاباً أسماه التحفة الناضرة في الحكومة الحاضرة عرض فيه لأنظمة الدول العالمية وحكوماتها، ونبه على القوانين الدستورية المعمول بها وخلص إلى القول : "فتمسكوا أيها المؤمنون بحبل أمير المؤمنين العالم العاقل واعتصموا بجانب هذا السلطان الفاضل الكامل. فإنه كان في الدنيا تسعون حكومة شرعية إسلامية قبل مائة سنة، ولم يبق منها الآن خالصة إلا الحكومة المغربية"³³.

ومن منطوق هذا النص تتجلى أبعاد الخصوصية المغربية القائمة على التمسك بثوابتنا الشرعية.

32 - عصر المرابطين لعبد الله عنان، 737/2.

33 - التحفة الناضرة في الحكومة الحاضرة، ص 16.

إطلالات تاريخية عن الأندلس

الحضارة الأندلسية في عصري المرابطين والموحدين

الأستاذة حياة شتواني

أستاذة باحثة في الأدب العربي وعلوم التربية

أقام المسلمون في الأندلس ثمانية قرون (92هـ-897هـ) شيدوا فيها حضارة عظيمة ارتوى الأوربيون من منابعها الفياضة بنهم ظمآن، واقتطفوا من جنانها الوارفة الظلال أطيب الجنى وأعذب الثمار.

ولم يكن المغاربة في عصري المرابطين والموحدين بمنأى عن ساحة هذا البنيان الحضاري السامق، بل أسهموا في إعلائه وتطويره، وضربوا في ذلك بأعلى السهام، فكانوا بذلك غرة في جبين تاريخ الأندلس الحضاري.

ويلقي هذا العرض أضواء ساطعة على ما كان للمغاربة من أياد بيض على هذه الحضارة الرفيعة.

1- الحضارة الأندلسية في عهد المرابطين :

زعم بعض رجالات الاستشراق من أمثال رينهارت دوزي ومن تبعه من بعض الدارسين العرب¹ أن الفكر في عهد المرابطين بالأندلس رانت عليه أدران الجمود والتحجر، وأن جذوة الحضارة خمدت في هذا العهد، وذلك لأن المرابطين، حسب زعمهم، كانوا برابرة صحراويين متوحشين أجلافا متعصبين، وهي مزاعم تنم عن المقت والكراهية، وتنطق بالتعصب والهوى. وقد فندها عدد من الباحثين من مستشرقين وعرب، من أمثال : فرانيسكو كوديرا وخليان رييرا² ولفي

1 - مثل محمد مجيد السعيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1980م. وحكمت علي الأوسي، الأدب الأندلسي في عهد الموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة.

2 - انظر : تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل جنثالث بالنثيا، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955م، من ص 19 إلى ص 21.

بروفنسال³ وعباس الجراري⁴ وحسن الوراكي⁵ وعصمت عبد اللطيف دندش⁶ وحمدي عبد المنعم محمد حسين⁷ وغيرهم.

كما أن هذه المزاعم تفندوها أيضا حقائق التاريخ التي تشهد بأنه لو لم يتدخل المرابطون في الأندلس في عهد ملوك الطوائف لدرء عدوان النصارى عليهم، وصد هجماتهم عنهم، لكان عمر الإسلام والمسلمين قد انتهى بهذا الصقع الإسلامي في القرن الخامس الهجري. فالمرابطون بقيادة البطل العظيم يوسف بن تاشفين هم الذين أمدوا عمر الأندلس أربعة قرون أخرى، وأنقذوا الحضارة الأندلسية من السقوط والانهيار، فقد كانت الأندلس في عهد ملوك الطوائف تعرف تفككا سياسيا وانحدارا عسكريا، جعل هؤلاء الملوك فريسة سهلة ولقمة سائغة للنصارى الذين لم يتوقفوا لحظة واحدة عن إنهابهم واستنزاف قواهم. لكن لما اتسع الخرق، وأعضل الداء، وتأكد لملوك الطوائف - وعلى رأسهم المعتمد ابن عباد - أن النصارى يرغبون في القضاء عليهم واحدا تلو الآخر من أجل الاستيلاء على كل أرجاء الأندلس، تحقيقا لحلمهم في طرد العرب نهائيا من هذا البلد، رأوا أن لا مناص لهم من طرق أبواب المرابطين في المغرب الأقصى مستنجدين بهم باعتبارهم أكبر قوة إسلامية مجاهدة في ذلك الوقت. وفعلا، فقد تمكن المرابطون بقيادة أميرهم يوسف بن تاشفين من إحراز نصر باهر على العدو النصراني وذلك في معركة الزلاقة الشهيرة سنة 479هـ. وهو نصر اهتزت له أركان المسيحية في أوروبا كلها، وقرت به عين الإسلام، وطابت به نفس الإيمان بهذا الصقع الإسلامي. كما أحرز المرابطون انتصارات أخرى ساحقة على النصارى أرغمت أنوفهم وأذلت جبروتهم مثل معركة أقليش (507هـ) ومعركة إفراغه (528هـ) ومعركة كركي (531هـ). ونجح المرابطون أيضا في استعادة بعض المدن المهمة التي أضاعها الأندلسيون مثل بلنسية (495هـ)، وطلبيرة (503هـ)، وقللمرية (511هـ)، وقورية وغيرها.

أما حكمهم بهذا البلد، فقد قام على أسس دينية، فلم يكن أمراء المرابطين يبتون في أمر إلا بعد الرجوع فيه إلى كبار الفقهاء وأصحاب الفتوى، وكانوا يشددون دوما على ولائهم وعمالهم وغيرهم من المسؤولين بالتزام الرفق بالرعية، وإقامة العدل بينهم، ورفع الحجاب عن المظلومين والشاكين⁸.

3 - سلسلة محاضرات عامة في أدب الأندلس وتاريخها، ترجمها إلى العربية محمد عبد الهادي شعيرة، وراجعها عبد الحميد العبادي بك، المطبعة، الأميرية، القاهرة، 1951م.

4 - الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، مكتبة المعارف، الرباط، ط3، 1986م.

5 - ابن صارة الشنتريني، حياته وشعره، ط1، 1986م.

6 - الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، تاريخ سياسي وحضارة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988م.

7 - التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1997م.

8 - "وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين"، محمود علي مكي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديرد، مج9، ع1-2، سنة 1959م، الرسالة 15، ص: 183.

وكان كل من ظهرت عليه بوادر الانحراف، وثبت عليه ذلك بالأدلة، تعرض للعقاب. فقد جاء مثلا في كتاب الأمير يوسف بن تاشفين إلى أبي عبد الله بن فاطمة حين عينه على بلنسية عام 479هـ: "... واستعمل عليها من يرفق بها، ويعدل فيها، واطرح كل من يحيف عليها ويؤذيها، ومن سبب عليها من عمالك زيادة، أو خرق لنفسه درهما ظلما، فاعزله عن عمله، وعاقبه في بدنه، وألزمه رد ما أخذ متعديا إلى أهله، واجعله نكالا لغيره، حتى لا يقدم منهم أحد على مثل فعله"⁹.

وقد ساعد الاستقرار الذي عرفه الأندلسيون في ظل المرابطين على ازدهار المجال الاقتصادي، فنشطت الزراعة نشاطا واسعا، وكثرت المحاصيل الزراعية وتنوعت؛ من قمح وشعير وبقول وخضر وفواكه وأفلاويه.

وبلغت الصناعة أوجها في هذا العصر أيضا، وظهرت في الأندلس مراكز صناعية ضخمة ذاع صيتها ولمع نجمها مثل إشبيلية التي عرفت بالصناعات الحربية¹⁰ وصناعة الزيت المستخرج من الزيتون¹¹ وصناعة قصب السكر¹²، واشتهرت شاطبة بصناعة الورق، وذكر الإدريسي أنه كان يعمل بها من الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض، وكان يعم المشارق والمغرب¹³. واختصت مالقة بصناعة الزجاج¹⁴ وصناعة الخزف والفخار¹⁵، وتفردت مرسية بصناعة الحصر وإتقانها¹⁶. واحتلت ألمرية في هذه الفترة المركز الأول في صناعة المنسوجات الحريرية في الأندلس، وقد أشار الإدريسي إلى مقدار ما وصلت إليه هذه الصناعة من تطور في عهدهم بقوله: "مدينة ألمرية كانت في أيام الملثم مدينة الإسلام، وكان بها ثمان مائة طراز يعمل بها الحلل والديباج والسلاقطون، والأصبهاني، والجرجاني، والستور المكلفة، والثياب المعينة، والخمر والعتابي، والمعاجر، وصنوف الحرير"¹⁷.

وأشار ليوبولدو توريس بالباس إلى مدى ازدهار صناعة المنسوجات الحريرية في ألمرية بقوله: "إن الكنائس والمتاحف بإسبانيا تحتفظ حتى الآن بنماذج من المنسوجات الحريرية المصنوعة في ألمرية

9 - قلائد العقبين في محاسن الأعيان للفتح بن خاقان، قدم له ووضع فهرسه: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، ص: 117.

10 - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للطيب للمقمري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1986م، 1/188.

11 - صفة جزيرة الأندلس - منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار - للحميري، عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها ليفي برونفسال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1973م، ص: 21-101.

12 - النفح، 1/193.

13 - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1989م، ص: 556.

14 - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي، حققه وعلق عليه: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1/424.

15 - النفح، 1/202.

16 - نفسه، 1/201.

17 - نزهة المشتاق، ص: 562.

في عصر علي بن يوسف، مثال ذلك ثوب القداس الذي كان يرتديه القديس خوان دي أورتيجا، والمحفوظ الآن بكنيسة أورتوبيو (برغش)، والذي يحمل اسم علي بن يوسف¹⁸.

أما التجارة، فقد ازدهرت في هذه الحقبة ازدهارا عظيما. وقد ساعد على ذلك حماية المرابطين للطرق، وتأمينهم للمسالك، وعنايتهم بالبحر والأسطول، وتحسينهم للنظام الضريبي وبخاصة في عهد يوسف بن تاشفين وبداية حكم علي بن يوسف. كما كان لامتداد رقعة الدولة في السودان والمغرب والأندلس أثر كبير في فتح منافذ متعددة لتسويق المنتجات الزراعية والصناعية، فنشطت حركة الصادر والوارد، وشاع بين الناس لون من الرخاء والرفاهية، وقد أشار الإدريسي إلى ذلك بقوله: "فلم يكن أيسر من أهل الأندلس مالا ولا أتعرج منهم في الصناعات وأصناف التجارات تصريفا وادخارا"¹⁹.

ووصف ابن أبي زرع الحالة الاقتصادية في هذه الفترة بقوله: "وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن، تناهى القمح في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال، والقطاني لا تباع ولا تشتري، وكان ذلك مصطحبا بطول أيامهم ... وكثرت الخيرات في دولتهم، وعمرت البلاد، ووقعت الغبطة"²⁰.

ومن الناحية الاجتماعية بذل المرابطون كل الجهود في سبيل إصلاح المجتمع الأندلسي، وتطهيره من أدران الفساد مستلهمين في ذلك مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقاموا على سبيل المثال بمحاربة كثير من وسائل اللهو والمجون، واشتدوا في متابعة المحلات التي تباع الخمر، وأمروا بإراقة دنائها، ومعاينة صانعيها، وأمروا قضاتهم وفقهاءهم بمعاينة شاربها، كما اشتدوا في تنفيذ العقوبة، واشتهر القاضي أبو بكر بن العربي بعقاب شارب الخمر وأرباب اللهو، وكانت له فيهم عقوبات مهلكة²¹.

أما فن الموسيقى والغناء، فقد راج في الأندلس في عهد المرابطين، وقد نبغ في هذا الفن أبو بكر ابن باجة الذي عد إمام الملحنين في عصره²²، وقد تخرج على يده تلامذة مثل أبي عامر بن محمد بن

18 - الفن المرابطي والموحدي، ليوبولدو وتوريس بالباس، ترجمة: السيد مصطفى غازي، القاهرة 1971م، ص: 62-63.

19 - نزعة المشتاق، ص: 556-562.

20 - الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لابن أبي زرع، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1999م، ص: 201.

21 - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ببيروت، ط2، 1980م، 93/4 وانظر: "نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين" لحسين مؤنس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديريد، المجلد 1، العدد 3، سنة 1995م الوثيقة 1، ص: 113.

22 - المغرب في حلى المغرب، 119/2.

الحمارة الغرناطي، وقد برع في الألحان، واشتهر عنه أنه كان يعمد للشعراء، فيقطع العود بيده، ثم يصنع منه عودا للغناء، وينظم الشعر ويلحنه ويغني به²³.

ومن تلامذة ابن باجة أيضا إسحاق بن شمعون اليهودي القرطبي الذي وصفه ابن سعيد بأنه "أحد عجائب الزمان في الاقتدار على الألحان. وكان قد لازم ابن باجة، وأحسن الغناء بلسانه ويده، وكان له نظم رائع"²⁴.

أما العلوم والآداب، فقد نفقت سوقهما في عصر المرابطين على عكس ما يدعيه خصومهم، وتألفت أسماء كثير من أعلام الثقافة الأندلسية، من أمثال أبي إسحاق بن خفاجة شاعر الطبيعة الأول بالأندلس، وابن أبي الخصال "رئيس كتاب الأندلس"²⁵، والأعمى التطيلي سابق فرسان حلبة الموشحات بها²⁶، وأبي بكر بن قزمان إمام الزجالين بها²⁷، وأبي القاسم خلف بن يوسف بن تومرت الذي كان من أئمة النحاة والأدباء الثقات الأخيار²⁸، وأبي بكر بن باجة الذي نبغ في الفلسفة والرياضيات والمنطق والهندسة²⁹؛ وأبي مروان عبد الملك بن زهر الذي لم يكن في زمانه من يماثله في مزاوله أعمال صناعة الطب³⁰. وتدين له الجراحة بأول فكرة عن جراحة الجهاز التنفسي، وبتعليماته الدقيقة عن انتقال العظام، وعن الكسور³¹.

وفي مجال التاريخ نبغ أبو زكريا يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المعروف بابن الصيرفي، وقد ألف في تاريخ الأندلس في العصر المرابطي كتابا سماه الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية كما ألف كتابا آخر سماه قصص الأنبياء وسياسة الرؤساء وهما مؤلفان لم يصل إلينا مع الأسف.

23 - المغرب، 120/2.

24 - نفسه، 127/1.

25 - النفح، 184/3.

26 - مقدمة ابن خلدون، تحقيق علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة 1339*3.

27 - نفسه، 1350/3.

28 - الغنية (فهرست شیوخ القاضي عیاض بن موسی السبتي)، تحقيق ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1982م، ص: 149.

29 - خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني، تح: آذرتاش آذرنوش، نقحه وزاد عليه: محمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، ومحمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، ط2، 1986م، 332/2.

30 - عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق: نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

31 - حضارة الإسلام وأثرها في الترقى العالمي، جلال مظهر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص: 328.

كما برزت في هذا العلم أسماء كثيرة مثل أبي نصر الفتح بن خاقان، وابن بشكوال، وغيرهم، ولمع في هذه الفترة أيضا عدد من كبار جغرافيين الأندلس والمغرب مثل الشريف الإدريسي صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، والحجاري صاحب كتاب المسهب في غرائب المغرب.

أما العلوم الفلاحية، فمن أشهر أعلامها في هذا العصر العلامة أبو عبد الله محمد بن مالك الطغرني الذي ألف كتابا فيها سماه زهر البستان ونزهة الأذهان³².

من هنا يتضح أن حضارة الأندلس لم ينضب معينها الصافي في عهد المرابطين، بل ظلت فورثها دافقة، وجذوتها متقدمة متألثة في كل نواحي الحياة.

وهكذا فصحاء المغرب الأقصى لم تنجب مرابطين بدوا أجلافا كما زعم دوزي، بل أنبتت على حبات رمالها رجالا أبطالا، وقادة أكفاء، وبناة حضارة أندلسية كاد صرحها ينهار لولاهم.

2- الحضارة الأندلسية في عصر الموحدين :

بدخول الأندلس تحت ظلال الحكم الموحي، تبلغ هذه الحضارة أوج ازدهارها في جميع نواحي الحياة، ويعزى ذلك إلى عدة عوامل، أبرزها نزوع خلفاء الموحدين إلى العلم³³، وإطلاقهم حرية التفكير والبحث، وتوجيه كبير عنايتهم لرجال العلم والأدب.

كما يعزى ذلك أيضا إلى حنكتهم السياسية، واهتمامهم الشديد بالدين، وشغفهم بالجهاد. وهكذا عرفت الأندلس في ظلهم حركة جهادية قوية. فكانت أيامهم شرفا وعزا للإسلام والمسلمين. وكان جيشهم من أعظم جيوش العالم في العصور الوسطى. وبلغ أسطولهم غاية القوة حتى إن

32 - مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم : 1260د.

33 - فقد كان المهدي بن تومرت الزعيم الروحي لخلفاء الموحدين عالما متبحرا في العلم قبل أن يكون داعية أو صاحب دعوة دينية. وقد استهل كتابه أعز ما يطلب - وهو كتاب يحمل مبادئ الدعوة وتعاليم المهدي - بعبارة مشهورة يدعو فيها إلى طلب العلم والانكباب على تحصيله وهي قوله : "أعز ما يطلب، وأفضل ما يكتسب، وأنفس ما يذخر، وأحسن ما يعمل، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير، هو أعز ما يطلب، وأفضل المكاسب، وأنفس الذخائر، وأحسن الأعمال"، (أعز ما يطلب لمحمد ابن تومرت المهدي (ت 524هـ)، تقديم وتحقيق عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط 1997م، ص 33).

وكان معظم خلفاء الموحدين يشاركون زعيمهم المهدي في تلك الصفة - أي حب العلم - فقد كان عبد المؤمن بن علي الكومي (ت 558هـ) "مؤثرا لأهل العلم، محبا لهم، محسنا إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم والإعظام لهم". (المعجب، ص 172). وكان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (ت 580هـ) "أعرف الناس كيف تكلمت العرب، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام ... وكان أحسن الناس ألفاظا بالقرآن وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية ... مع إثثار للعلم شديد، وتعطش إليه مفرط، وكان له مشاركة في علم الأدب، واتساع في حفظ اللغة". (المعجب، ص 199). وكان لأبي يوسف يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن (ت 595هـ) "شغف بالأدب شديد، وكان يقرض شيئا من الشعر" (المعجب، ص 239).

السلطان صلاح الدين الأيوبي طلب من المنصور أسطولا ليرد به عادية الصليبيين عن المشرق³⁴. لقد عاشت الأندلس في ظل الموحدين في جو من الطمأنينة والاستقرار، لا سيما أنهم كانوا شديدي الاهتمام بالأندلس باعتبارها دار جهاد. ونستطيع أن نرى في الرسائل الموحدية الرسمية شيئا من هذا الاهتمام؛ فكانت الكتب تنفذ بانتظام إلى ولاية الأندلس، وفيها يوصي الخلفاء هؤلاء بتأسيس الرعية، وتوخي رضاهم في اقتضاء حقوقهم، وكف أيدي الظالمين عنهم، وإباحة جواز البحر إلى المشتكين والمظلومين³⁵، كما يؤكدون عليهم ألا يقضوا في أحكام القتل من تلقاء أنفسهم إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة، وأن يدقق في الجرائم التي دون القتل، وكذلك في سائر المعاملات والأموال، فلا يبيث في أمرها إلا بعد التثبت والمطالعة، وتعرف وجه الحق فيها، والاستناد إلى النصوص والأحكام الصحيحة³⁶.

وتشيد الروايات بعدل خلفاء الموحدين وبخاصة يعقوب المنصور، فقد كان مؤثرا للعدل، متحررا له، وكان حريصا على أن يكون الاتصال مباشرا بينه وبين الحكام والمحكومين، لذلك كان يقعد للناس عامة لا يُجَبِّب عنه أحد، وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم³⁷. كما حرص على أن لا يتباطأ المسؤولون في تلبية رغبات الرعية واتخاذ الوسائل الكفيلة بتسيير أمور حياتهم. وكان مما أوصى به المنصور شيوخ الموحدين في مرضه الأخير أن قال: "أوصيكم بتقوى الله تعالى وبالأيام واليتيمة"، فسأله ومن الأيتام واليتيمة؟ قال: اليتيمة جزيرة الأندلس، والأيتام سكانها المسلمون، ولتعلموا أنه ليس في نفوسنا أعظم من همها"³⁸.

ومن مظاهر اهتمام خلفاء الموحدين بالأندلس أيضا أنهم بذلوا كل جهودهم في سبيل إزالة الشوائب الخلقية من المجتمع، ومحاربة مظاهر الخلاعة وشرب الخمر³⁹.

- 34 - مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، لجمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت 697هـ)، ج 2: عصر صلاح الدين (ت 589هـ): 361، نشره لأول مرة عن مخطوطات كمبردج وباريس واستانبول وحققه وعلق حواشيه وقدم له: جمال الدين الشيال، الإسكندرية 1957م. راجع نص الرسالة التي بعث بها صلاح الدين إلى المنصور في ص: 500 وما بعدها من هذا المؤلف.
- 35 - انظر على سبيل المثال الرسالة التي بعث بها المنصور إلى الولاية في البيان المغرب (قسم الموحدين): 173، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، ومحمد زنيبر، ومحمد بن تاويت، وعبد القادر زمامة، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط 1، 1985م.
- 36 - انظر على سبيل المثال النص الكامل للرسالة التي بعث بها الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى جميع الولاة بالعدوة والأندلس في المن بالامامة لابن صاحب الصلاة (ت 594هـ)، ابتداء من ص: 225 إلى ص 229. تح: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1987.
- 37 - المعجب: 235-236.
- 38 - البيان المغرب - قسم الموحدين - : 231-232.
- 39 - راجع الرسالة التي بعث بها الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى ولاته وعماله يأمرهم فيها بإراقة الخمر وكسر دنائها في: رسائل موحدية (مجموعة جديدة)، تحقيق ودراسة: أحمد عزاوي 67/1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة ابن طفيل بالقنيطرة، سلسلة نصوص ووثائق رقم 2، ط 1، 1995م.

أما من الناحية الاقتصادية، فقد تمتعت الأندلس بالرخاء الاقتصادي في الحقبة مدار البحث، وفي هذا الصدد قال المراكشي متحدثا عن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن : "ولم تنزل أيام أبي يعقوب أعيادا وأعراسا ومواسم، كثرة خصب، وانتشار أمن، ودرور أرزاق، واتساع معاش، ولم ير أهل المغرب أياما قط مثلها"⁴⁰. وكثرت الأموال في عهد هذا الخليفة حتى إن الناس نالوا معه "في إمارته وبعد ذلك في خلافته من جميع الطبقات، من الكتاب، والعمال، والطلبة، والقضاة، والرعية، بصلاح أحوالهم ونماء أموالهم ما لم يعهد مثلها في زمان حتى شبهها الطلبة وأهل التواريخ بأيام عثمان ابن عفان"⁴¹. ويؤيد المراكشي ذلك بقوله : "فقد استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال"⁴². وقال أيضا إنه "لم يرتفع لملك من ملوك المغرب قبل أبي يعقوب هذا وبعده، ما ارتفع إليه من الأموال"⁴³.

أما الحركة العلمية والأدبية في الأندلس فقد بلغت مستوى عاليا من الازدهار والقوة أيام الموحدين، فقد اضطرت جذوة الشعر في هذه الفترة، لا سيما وأن خلفاء الموحدين كانوا يتذوقونه⁴⁴ ويكرمون أهله. ومن الشعراء الذين نبغوا في هذه الفترة الرصافي البلنسي، وأبو العباس أحمد بن السيد الإشبيلي المعروف بالصلص، والشاعر القرطبي القرشي الأصم المرواني المعروف بالطلليق، وأبو الحسن علي ابن أحمد المعروف بابن لبال الشريشي، وأبو جعفر بن سعيد. ومن أعلام الأدب أبو بكر عبد الرحمن بن مغاور الشاطبي القرطبي، وأبو بكر صفوان بن إدريس التجيبي مؤلف كتاب زاد المسافر.

كما امتازت هذه الفترة بوفرة في دراسة علوم اللغة والدين والفقه، ومن ثم نجد أنفسنا أمام جمهرة كبيرة من أعلامها من أمثال : أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي الأعمى (ت 581هـ) في النحو⁴⁵، وأبي محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن سعيد الإشبيلي (ت 581هـ) في علم الحديث⁴⁶،

40 - المعجب : 215.

41 - المن بالإمامة : 168.

42 - المعجب : 199.

43 - نفسه : 214.

44 - فعند عبور عبد المؤمن بن علي الأندلس لأول مرة، اجتمع لديه في جبل الفتح وفود من وجوه بلاد الأندلس ورؤسائها وأعيانها للتهنئة والمبايعة، فاستدعى الشعراء في هذا اليوم، وسمع من كثير منهم، (المعجب : 282) وكانت له ملاحظات نقدية على قصائدهم تعكس تذوقه للشعر. (المعجب : 285-286).

45 - المغرب، 448/1.

46 - الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، لبرهان الدين إبراهيم بن علي بن فرحون اليعمري (ت 799هـ) : 175-176، دار الكتب العلمية، بيروت.

وأبي عبد الله محمد بن علي بن ذي النون الحجري (ت 591هـ) في علم القراءات⁴⁷، وأبي الوليد بن رشد (583هـ) في الفقه، ومن أشهر كتبه في هذا المجال كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ولا يعلم في وقته أنفع منه، ولا أحسن سياقاً⁴⁸.

أما الفلسفة فقد ضربت الأندلس فيها بأعلى قدح في هذه الفترة من خلال فيلسوفين يعدان من أشهر رجال الفكر في تاريخ الإنسانية هما ابن طفيل (ت 581هـ) وابن رشد (ت 595هـ)، فابن طفيل كان ممن صحب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن⁴⁹، وحظي لديه، وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشرعية كما تدل على ذلك رسالته حي بن يقظان⁵⁰، وهي رسالة ترجمت في العصور الوسطى إلى اللاتينية. وقد وصفها العلامة الإسباني الكبير "مينيندث إيبلا" بأنها هي العمل الفلسفي والأدبي والديني والتربوي والنفساني الأكثر أصالة وعمقاً في تاريخ الأدب الإنساني العربي على الإطلاق، إنها لا تهم الفلاسفة فحسب، بل تهم كل من يهتم بتاريخ الفكر الإنساني قاطبة⁵¹.

أما ابن رشد، فهو من تلامذة ابن طفيل، وتعد فلسفته حلقة من حلقات التقريب بين الشريعة والحكمة، أو بين الدين والفلسفة. وأفرد لذلك بعض كتبه، مثل كتاب فصل المقال في ما بين الشريعة

47 - التكملة لكتاب الصلة لأبي عبد الله محمد بن الأبار القضاعي البلسني (ت 658هـ)، عني بنشره ووقف على طبعه : عزت العطار الحسيني، مطبعة السعادة بمصر 1955م، 865/2.

48 - الديباج المذهب، 289.

49 - كان الخليفة يوسف معتنياً بالفلسفة محباً لها، وقد أمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي. (المعجب : 199)، وبرع في هذا العلم حتى ليصفه المراكشي بأنه لم يكن في بني عبد المؤمن ملك أعلم بالحقيقة منه. (المعجب : 204).

50 - وهي رواية فلسفية مشهورة تحكي قصة صبي ترك وحيداً في جزيرة منعزلة، فتلقفته طيبة وحنّت عليه، وتعهدهته بالتربية حتى كبر الطفل، وأخذ يتعرف على الأشياء التي حوله بنفسه. وتمكن بنظرته الفائقة وتأمله العميق من أن يتعرف على قوانين الطبيعة، وأن يؤمن بوجود الخالق. وما زال "حي بن يقظان" يطلب الفناء عن نفسه والإخلاص في مشاهدة الحق حتى سار في طريق التصوف، ثم اتفق له بعد ذلك صحبة "آسال"، وكان من جزيرة قريبة انتقلت إليها ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الأنبياء المتقدمين، وقد رحل إلى جزيرة "حي" طلباً للعزلة والتعبد، والتقى الاثنان، وعلم كل منهما بحقيقة الآخر، وطمع "آسال" في أن يهدي الله على يد "حي" طائفة من معارفه، فارتحلا إلى الجزيرة، وشرع "حي" في تعليم أهلها أسرار الحكمة، ولكنه أدرك أن مخاطبتهم عن طريق المكاشفة غير ممكن، فعاد مع رفيقه إلى جزيرته الأولى، وانقطعا إلى عبادة الله حتى أدركهما الموت.

والقصة - رغم طابعها الرمزي - محاولة للتوفيق بين الحكمة والشرعية، إذ جعل ابن طفيل من "آسال" رمزاً للرجل الصالح الناشئ في حضن الشريعة، وجعل "حي" يمثل حلول العقل الفعال في الإنسان. وفي تعرفه بآسال واتفاقهما معا إشارة إلى اتفاق الحكمة مع الشريعة. أما إخفاق "حي" في إقناع العامة فيدل على أن جمهورهم بعيد عن فهم الحقائق الخالصة. (راجع : ظهر الإسلام، أحمد أمين دار الكتاب العربي، بيروت، ط 5، 1969م، 243-244-243/3. والشعر الأندلسي في عصر الموحدين، فوزي سعد عيسى : مطبعة الجيزة بالإسكندرية، ط 1، 1979م) 88-89.

51 - الإسلام في حضارته ونظمه، أنور الرفاعي : دار الفكر، دمشق، 1973م، ص 681.

والحكمة من الاتصال. ومن آثاره أيضا شروحه لفلسفة أرسطو⁵²، وهي شروح كان لها صدى كبير في الأوساط الفكرية الأوروبية طيلة القرون الوسطى.

هذا ولم يكتف أهل الأندلس في هذه الحقبة بالدراسات النظرية مثل الفقه والكلام والفلسفة، وإنما كانت لهم عناية كبيرة بالدراسات العلمية كالطب وعلوم الفلك والتنجيم والفلاحة والعشب والنبات. ومن الأطباء المرموقين في هذا العهد أبو جعفر بن الغزال، وكان خبيرا بتركيب الأدوية ومعرفة مفرداتها، وكان المنصور يعتمد عليه في الأدوية المركبة والمعاجين ويتناولها منه⁵³، وبرز أيضا أبو جعفر أحمد بن حسان الغرناطي، وله من الكتب كتاب تدبير الصحة، ألفه للمنصور⁵⁴، كما سطع في هذه الفترة نجم أبي الوليد محمد بن رشد (ت 595هـ)، ومن أشهر كتبه في هذا المجال كتاب الكليات وقد تكلم فيه عن التشريح ووظائف الأعضاء، وعلى الأمراض وأعراضها، وعلى الأغذية وحفظ الصحة والعلاج.

ولم تكن صناعة الطب في هذه الفترة وقفا على الرجال، بل مارستها النساء أيضا. ومن أشهرهن أم عمرو بنت أبي مروان بن زهر (ت 580م)، وكانت ماهرة في التدبير والعلاج، وحظيت بمكانة ممتازة عند أمراء الموحدين؛ فكانت تلج قصورهم، وتنظر في علاج مرضى نسائهم وأطفالهم وإمائهم⁵⁵.

وفي علم النبات والأعشاب نبغ أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الأموي المعروف بابن الرومية، فقد كان من أعظم النباتيين المسلمين في العصور الوسطى. وقد وصفه ابن الخطيب بأنه "عجيبة نوع الإنسان في عصره وما قبله، وما بعده، في معرفة علم النبات وتمييز العشب وتحليلتها، وإثبات أعيانها على اختلاف أطوار منابتها، بمشرق أو مغرب حسا ومشاهدة، وتحقيقا، لا مدافع له في ذلك ولا منازع، حجة لا ترد ولا تدفع"⁵⁶.

52 - كان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن يتشكى من سوء عبارة التراجمة الذين نقلوا كتب أرسطو، ويذكر غموض أغراضه، فكلف ابن رشد بشرح كتب أرسطو وتلخيصها حتى يمكن تقريبها إلى أفهام الناس. ومن هذه المؤلفات: كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان، وكتاب السماء والعالم، ورسالة الكون والفساد، وكتاب الآثار العلوية، وكتاب الحس والمحسوس. (المعجب: 203-204).

53 - عيون الأنباء: 535.

54 - نفسه، ص. ن.

55 - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لأبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد بن شريفة، مطبعة دار المعارف الجديدة، الرباط، 1984م، ص 8، ق 2: 483.

56 - الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه: محمد عبد الله عنان، الشركة المصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ط 2، 1993م، 208/1.

ولابن الرومية تصانيف في هذا المجال منها شرح حشائش دياسقوريدوس، وأدوية جالينوس، والتنبيه على أوهام ترجمتها. كما صنف في الحشائش كتابا آخر رتب فيه أسمائها على حروف المعجم⁵⁷.

وعرفت علوم الفلك والتنجيم تطورا كبيرا في هذا العصر، فبنى الموحدون مرصدا بإشبيلية لعله أول مرصد بني بأوربا لرصد النجوم⁵⁸، وظهرت أفكار مبكرة في هذه العلوم، مثل أفكار الفيلسوف أبي بكر بن طفيل، فقد صرح في رسالة "حي بن يقظان" بأن الشمس ليست حارة بذاتها، وأنها كروية الشكل، وأعظم من الأرض بكثير، وأن الأرض كروية مثلها، والذي يستضيء منها أبدا بالشمس أعظم من النصف⁵⁹.

أما علم الكيمياء، فقد لمع فيه نجم أبي الحسن علي بن موسى بن علي الأنصاري الجبلي (ت 593هـ)، وقد ألف فيه كتاب شذور الذهب⁶⁰.

وفي ميدان العلوم الفلاحية ظهر العلامة أبو زكريا يحيى بن أحمد بن العوام الإشبيلي، واشتهر بكتاب الفلاحة. وقد اعتمد فيه بالأخص على كتاب الفلاحة لابن بصال الطليطي.

وفي مجال الرحلات اشتهر في هذا العصر محمد بن أحمد بن جبير (ت 614هـ)، ومن أهم آثاره فيها رحلته التي تضمنت مشاهداته التي تعد من أهم المصادر للاطلاع على الحالة الاجتماعية والاقتصادية في حوض البحر الأبيض المتوسط في آخر القرن السادس الهجري. ولها أهمية تاريخية أيضا بالنسبة للمعلومات التي ساقها رحالتنا عن "وليم" ملك صقلية، ولقد ترجم المستشرقون فصولا من الرحلة بأجمعها إلى لغاتهم⁶¹.

إلى جانب العلوم، عرفت الأندلس في ظل الموحدين حركة فنية زاهرة، فقد أقيمت في عهدهم طائفة من المساجد والأبنية الفخمة التي تمتاز بجماها الفني، مثل قصر عبد المؤمن بالأندلس⁶²،

57 - النفح، 596/2.

58 - تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، يوسف أشباح :، ترجمه ووضع حواشيه : محمد عبد الله عنان، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص 502.

59 - العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، محمد المنوني، مطبوعات دار المعرفة للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ط 2، 1997م. وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض علماء الأندلس سبقوا ابن طفيل في القول بكروية الأرض، ومنهم ابن حزم الظاهري الذي برهن على ذلك بنصوص من الكتاب والسنة. (راجع كتابه : الفصل في الملل والأهواء والنحل، تح : محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط 2، 1996م) ابتداء من 241 / 2 إلى : 255 / 2.

60 - النفح، 605/3-606.

61 - عصر المنصور الموحي أو الحياة السياسية والفكرية والدينية في المغرب من سنة 580هـ إلى سنة 595هـ، محمد الرشيد ملين : ، المطبعة الملكية، الرباط، ط 2، 1996م، ص 174.

62 - النفح، 516/3.

وجامع إشبيلية الذي أنشأه الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، ثم ولده الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور⁶³، وقد وصف ابن صاحب الصلاة منبره ومقصورته في قوله: "صنع المنبر من أغرب ما قدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة. واتخذ من أكرم الخشب مفصلا منقوشا مرقشا، محكما بأنواع الصنعة والحكمة في ذلك، من غريب العمل وعجيب الشكل والمثل ... ثم أردفت له بالعمل المقصورة من أحسن الخشب، مختصرة من قضبه، وثيقة لحجه"⁶⁴. كما أقام ولادة الموحدين بالأندلس قصورا في المدن التي حكموها؛ منها قصر السيد أبي يحيى بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وكان يوجد خارج قرطبة على النهر الأعظم تحمله أقواس⁶⁵.

وقد بقيت من المنشآت المعمارية الموحدية بالأندلس آثار عديدة تشهد بتقدم العمران والفنون الزخرفية بالأندلس في هذا العصر، مثل بقايا قصر إشبيلية⁶⁶، وبقايا بعض الأسوار بعدد من المدن الأندلسية؛ مثل بطليوس وإستجة⁶⁷.

تلك إذن هي بعض الخطوط العريضة لأهم معالم الحضارة وأعلامها بالأندلس على عهدي المرابطين والموحدين. ويتبين لنا من خلال ما سبق أنها شملت مختلف نواحي الحياة الأندلسية، وأنها كانت في قمة الرقي والبهاء.

وخلاصة القول، فقد شارك المرابطون والموحدون في مسيرة الحضارة الأندلسية سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعلميا وفنيا ودينيا، وأسهموا في كتابة سفر تاريخها بأحرف من نور، وأضاءوا صفحات هذا التاريخ بشعلة إنجازاتهم العظيمة التي تثير في نفس كل مغربي الزهو والفخر. فكانوا بذلك جوهرة رائعة في جيده.

63 - الأنيس المطرب : 277-300-301.

64 - المن بالإمامة : 387.

65 - النفح، 1/470.

66 - في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم : مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، 1985م، ص 203.

67 - نفسه : 228.

المرأة الأندلسية والكتابة

الأستاذ محمد المغراوي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الرباط

تقديم :

كان التعليم بالغرب الإسلامي يركز على تعليم الخط وحسن الكتابة بطريقة التقليد والمحاكاة وليس عن طريق المقاييس كما كان عليه الأمر بالشرق، ولم يكن التعليم مقتصرا على الأولاد، بل كانت البنات تتعلمن وقد حصلت أعداد كبيرة منهن على مستويات علمية راقية، فصرن عالمات وأديبات وشاعرات. ومن بين المجالات التي برعت فيها النساء بالأندلس مجال الخط وحسن الكتابة والذي كان مرتبطا بجودة الترسل وإجادة الإنشاء.

1- الاهتمام بجودة الخط عند نساء الأندلس :

كان كتاب التراجم يحرصون عند ذكر مؤهلات مترجميهم على إتقان الخط، فينوهون بأصحابه وصاحباته، كما يشيرون أحيانا إلى ضعفه لدى بعضهم، وعلى عدم إتقانه أيضا، وقد نقل عبد الواحد المراكشي عن المؤرخ الأندلسي ابن أبي الفياض أنه "كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف الشريفة بالخط الكوفي"¹، فإذا كان هذا العدد في ضاحية من ضواحي قرطبة فكم كان العدد إذن في باقي بلاد الأندلس ؟ والأمر هنا لا يتعلق بمجرد الكتابة ولكن بإتقان الخط الكوفي المعياري الذي كان إتقانه يحتاج إلى مهارة عالية في اتباع القواعد والضوابط الصناعية، كما يتعلق بكتابة المصحف الكريم الذي لم يكن يقدم عليها إلا مهرة الخطاطين. ومع ذلك فإن المصادر المختلفة لم تحتفظ بذكر سوى قلة من النساء الخطاطات اللائي يبدو أن اهتمامهن بالخط لم يكن يقل عن اهتمام الرجال به.

ومما يؤكد على مكانة الخط في ثقافة النساء والجواري بالأندلس وإتقانهن له اتخاذ عدد من أمرائها وخلفائها لكاتبات من النساء، مثل مزن (ت 358هـ/969م) التي كانت حاذقة بالكتابة ومن

1 - المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق العريان والعلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، 1949، ص 373.

أخط النساء، استكتبها الخليفة عبد الرحمان الناصر لدين الله الأموي، ولبنى بنت عبد المولى (ت 374هـ/984 م) استكتبها ابنه الخليفة الحكم المستنصر بالله، وكان يثق فيها كثيرا حتى أسند لها التوقيع عنه، وكتبت رقية بنت الوزير تمام بن عامر لابنة الأمير المنذر بن محمد بقصر قرطبة، وكانت نظام كاتبة بالبلاط الأموي أيام هشام المؤيد، وغيرهن. ومن الدلالات العميقة على أهمية الخط في الأوساط الأميرية في الأندلس إطلاق عبد الرحمن الأوسط اسم قلم على إحدى جواريه المتميزات بحسن الخط.

لقد كان الافتخار بين النساء بحسن الخط ظاهرة منتشرة في الأندلس، وذلك ما تعبر عنه قصة جرت لإحدى الشاعرات الأندلسيات وهي صفية بنت عبد الله الريي التي، رغم اشتهاها بجودة الخط، فقد عابت امرأة خطها، فما زادت أن ردت عليها بأبيات شعرية رقيقة من شعرها سيأتي ذكرها في ترجمتها.

ولما كانت للخط هذه المكانة، فقد انتقص عند بعض العالقات بسبب عدم إتقانهن له، فمثلا نجد أن الطبيبة الشهيرة أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر أحمد بن عبد الله الطنجالي من أهل القرن الثامن الهجري¹⁴م قد تعرض لها من يعيب خطها أيضا، فدافعت عن نفسها بأبيات من شعرها تفضل فيها العلم على الخط فقالت² :

الخط ليس له في العلم فائدة	وإنما هو تزيين قلم لقرطاس
والدرس سؤلي لا أبغي به بدلا	بقدر علم الفتى يسمو على الناس

أما الشاعرة الغرناطية حفصة بنت الحاج الركونية فلاحظت العلامة السلطانية للخلفاء الموحدون التي كانوا يكتبونها بخط التوقيع ويوقعون بها مراسلاتهم ونصها "والحمد لله وحده"، فضمنتها في أبيات شعرية توجهت بها إلى الخليفة الموحد يعقوب المنصور تسأله صكا قالت فيها³:

يا سيد الناس يا من	يؤمل الناس رفده
امن علي بصك	يكون للدهر عده
تخط يمناك فيه	والحمد لله وحده

2 - ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة، 265/1 ؛ الخطابي، الطب والأطباء، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 79/1 ؛ كحالة، أعلام النساء، بيروت، مؤسسة الرسالة، 260-259/1.

3 - ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، الدار البيضاء، دار المعرفة، د.ت، 261-260/4 ؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، القاهرة، دار المعارف، 139-138/2، و166-164.

2- معجم النساء الأندلسيات الكاتبات والخطاطات⁴ :

سيتضمن هذا المعجم عددا من النساء الأندلسيات اللائي أشارت المصادر إلى اهتمامهن بإجادة ونسح وتأليف، واهتمامهن بجمع الكتب وغير ذلك مما له بالموضوع علاقة.

ابنة محمد بن فيره الأموي التطيلي⁵ : أندلسية، لم يذكر اسمها. سكنت مراكش هي وأخت لها أكبر منها اسمها سعيدة، وكانت صالحة خيرة، ملازمة للقراءة ونسخ الكتب إلى أن توفيت في سن الشباب. وكانت بجانب ذلك شاعرة مجيدة، من شعرها في قريب لها بخيل :

بخلت والبخل داء لا دواء لــــه	أعيا الأطباء طــــرا والمداوينــــا
أطعت شحك حتى لست مقتديا	إذا اقتدى الناس يوما بالنبينا
إذا دعا لك داع بعد مبتهلا	بطول فقر وشح قلت آمينا

أميمة الكاتبة : كانت جارية للوزير الحسين بن حيي المتوفى سنة 401/1010م، والذي كان مكلفا بالوثائق لدى عبد الملك المظفر بن المنصور بن أبي عامر، ووزيرا وصاحب المظالم لدى المهدي، ولعلها كانت كاتبة في البلاط العامري⁶.

البهاء بنت الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية : كانت من خيرة نساء البيت الأموي الحاكم بالأندلس، من أهل الزهد والعبادة والتبتل، وكانت لها أيادي بيضاء في أعمال الخير، ينسب إليها مسجد البهاء من مساجد ربض الرصافة بقرطبة، وكانت تكتب المصاحف بيدها وتحبسها. توفيت لأول ولاية الأمير عبد الرحمان الناصر في رجب سنة 305/917م⁷.

خديجة بنت جعفر بن نصير بن التمار التميمي : تزوجها الفقيه عبد الله بن أسد، فحدثت عنه بموطأ القعنبى بقراءتها عليه في أصله، وقيدت فيه سماعها بخطها في سنة 394هـ. وكانت شديدة الشغف بالكتب، فحبست كتباً كثيرة على ابنتها ابنة أبي محمد بن أسد الفقيه. توفيت بعد سنة 394/1004م⁸.

4 - مرتبة ترتيباً أبجدياً.

5 - ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، 494/8.

6 - التكملة، 250/4 ؛ الذيل والتكملة، 483/8.

7 - التكملة، 243/4.

8 - ابن بشكوال، الصلة، 654/2.

راضية : مولاة الأمير عبد الرحمن الناصر بن محمد الأموي. أعتقها ابنه الحكم بعد وفاة أبيه وأصبحت تدعى نجم، ثم تزوجها لبيب الفتى وحجا معا سنة 353هـ / 964م. لقيا ابن شعبان القرطبي بمصر ونظراءه ودخلا الشام، وكانا يقرآن ويكتبان. روى عنها أبو محمد بن خزرج وقال : عندي بعض كتبها. عمرت طويلا حتى قربت من المائة، وتوفيت في حدود سنة 423هـ / 1031م⁹.

رقية بنت تمام بن عامر بن أحمد بن غالب بن تمام بن علقمة مولى عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفي : أديبة أندلسية كان أبوها وزيرا للأمويين، وكانت هي كاتبة لابنة الأمير المنذر بن محمد بقصر الخلافة بقرطبة¹⁰.

ريحانة : جارية الطبيب الأندلسي أبي عبد الله الكناني، اشتراها هذيل بن خلف بن لب بن رزين البربري بثلاثة آلاف دينار. قال ابن حيان في تاريخه في معرض الحديث عن جودة خطها وثقافتها ومعارفها المتنوعة النادرة : "لم ير في زمانها أخف منها روحا، ولا أسرع حركة، ولا ألين عطفًا، ولا أطيب صوتًا، ولا أحسن غناء، ولا أجود كتابة ولا خطأ، ولا أبدع أدبا، ولا أحضر شاهدا، ومع السلامة من اللحن في كتبها وغنائها، لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض، إلى المعرفة بالطب، وعلم الطبائع ومعرفة التشريح، وغير ذلك مما يقصر عنه علماء الزمان. وكانت محسنة في صناعة الثقاف، والمجاوله بالتراس، واللعب بالرماح والسيوف والخناجر المرفهة، لم يسمع لها بنظير ولا عديل"¹¹.

زمرد : ذكر ابن حيان في تاريخه أنها كاتبة حاذقة، توفيت سنة ست وثلاثين وثلاثمائة (336هـ / 947)¹².

سارة بنت أحمد بن عثمان بن الصلاح الحلبية : شاعرة أديبة وطبيبة ماهرة من أهل الشام، كانت تتعاطى كثيرا من الصناعات فتجيدها، وتكتب الخط الجيد، وتحل الذهب بمعرفة وخبرة فتكتب به. وكانت تفد على الملوك والأمراء وكانت ذات إقدام في الكلام. دخلت إلى الأندلس واتصلت بأمرها أبي عبد الله محمد بن محمد بن نصر المدعو بابن الأحمر (حكم بين 671 و701هـ / 1272-1302) وذلك في أول ولايته. وربما كان لخبرتها في الخط وحل الذهب أثر بين النساخ والخطاطين بالأندلس، خاصة وأنها

9 - الصلة، 655/2 ؛ أعلام النساء، 436/1.

10 - التكملة، 244-245/4.

11 - المقرئ، نفع الطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1968، 655/2.

12 - التكملة، 246/4 ؛ الذيل والتكملة، 485/8.

كانت تجيد الخطوط المشرقية. ثم دخلت إلى المغرب الأقصى وتوفيت بفاس الجديد في أيام الأمير أبي يوسف بن عبد الحق المريني (حكم بين 656-685 هـ/1258-1286)¹³.

سعيدة بنت محمد بن فيره الأموي التطيلي : أندلسية انتقلت إلى المغرب في العصر الموحيدي (ق/13) واستوطنت مدينة مراكش هي وأخت لها أصغر منها لم يذكر المصدر اسمها، وقد أشير إليها. كانتا فاضلتين تعيشان من نسخ الكتب¹⁴.

سيدة بنت عبد الغني بن علي العبدري : غرناطية تكنى أم العلاء، كان أبوها قاضيا بأوريولة وتخلفها في دار الإمارة يتيمة صغيرة، فنشأت بمرسية وتعلمت القرآن، وبرعت وجاد خطها، وكانت طيلة حياتها معلمة في ديار ملوك الأندلس وغيرهم. انتقلت إلى فاس ثم عادت إلى غرناطة، ولحقت بتونس، فعملت بقصر سلطانها أيضا. إلى أن أقعدتها عن ذلك زمانة ألزمتها بيتها لثلاث سنين، فخلقتها في التعليم بتتان لها.

نسخة بيدها كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي من أصل أبي زكريا الدمشقي، ولم تزل قائمة على التلاوة محافظة على الأدعية والأذكار والسعي في الخيرات والقيام على أعمال البر والإيثار بما تملك من فك الرقاب من الأسر من أيدي النصارى وغير ذلك، توفيت بتونس سنة 647/1249 ودفنت بمقبرة من المصلى خارج تونس¹⁵.

صفية بنت عبد الله الريي : من أهل رية، ومن أدبيات وشاعرات الأندلس، عرفت بجودة خطها. من شعرها أبيات رقيقة في امرأة عابت خطها، فردت عليها بقولها :

وعائبة خطي فقلت لها اقصري	فسوف أريك الدر في نظم أسطري
وناديت كفي كي تجود بخطها	وقربت أقلامي ورقمي ومجبري
فخطت بأبيات ثلاث نظمته	ليبدو لها خطي وقلت لها انظري

توفيت شابة دون الثلاثين من عمرها في آخر سنة 417 هـ/1026¹⁶.

13 - ابن القاضي، جذوة الاقتباس، الرباط، 1974، 324-331؛ حسن حسني عبد الوهاب، شهيرات التونسيات، ط2، ص 114-116؛
أعلام النساء، 319/2-321.

14 - الذيل والتكملة، 487/8.

15 - التكملة، 266-265/4؛ الذيل، 487/8؛ ابن الخطيب، الإحاطة، طبعة طنجة، 268-269.

16 - الحميدي، جذوة المقتبس، طبعة القاهرة، ص 388؛ الصلة، 655/2؛ أعلام النساء، 340/2.

ظونة أو طونة : بهذا اشتهرت، واسمها حبيبة بنت عبد العزيز بن موسى بن طاهر بن مناع : كانت عالمة صالحة. تزوجها العالم أبو القاسم بن مدير. سمعت الحافظ الشهير أبا عمر بن عبد البر وكتبت عنه من تواليفه، وأبا العباس العذري الدلائي، وسمع معها زوجها أبو القاسم بقراءتها عليهما. وكانت جيدة الخط ضابطة لما تكتبه. توفيت سنة 506هـ/1112¹⁷.

عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم : قرطبية، قال عنها المؤرخ ابن حيان : "لم يكن في حرائر الأندلس في زمانها من يعدلها فهما وعلمها، وأدبا وشعرا وفصاحة، وعفة وجزالة وحصافة. وكانت شاعرة تمدح ملوك زمانها وتخطبهم فيما يعرض لها من حاجتها، فتبلغ ببيانها حيث لا يبلغه كثير من أدباء وقتها، ولا ترد شفاعتها"، ومحاسنها كثيرة.

عاشت هذه المرأة بكرا لم تتزوج قط، وكانت ذات غنى وثروة، فأفادها تفرغها وغناها في جمع الكتب والعناية بالعلم وتقييده، حتى صارت لها "خزانة علم كبيرة حسنة". وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر. وتوفيت سنة 400هـ/1058¹⁸.

عزيزة بنت محمد بن نميل : من أهل مرسية. سمعت على القاضي أبي بكر بن العربي المعافري مجلسا من حديث أبي الفوارس طراد الزينبي بقراءتها عليه، رأى سماعها المحدث أبو جعفر بن الزبير ووقف على خطها على كتاب الصلة لابن بشكوال مؤرخا بذى قعدة من سنة 551هـ/1156م، وكانت حسنة الخط قويمة اللسان¹⁹.

فاطمة بنت أبي علي حسين بن محمد بن سكرة الصديقي : من أهل مرسية، ودار سلفها سرقسطة. كان أبوها من محدثي الأندلس الكبار، وكان مجاهدا، خرج غازيا إلى كتندة وتركها في حيز الفطام من رضاعها، وأوصى ألا يجتمع عليها فطامها وفقده إن قتل. وفعلا استشهد في هذه المعركة التي جرت سنة 514هـ/1120م. نشأت في بيئة علمية وكانت امرأة صالحة زاهدة تحفظ القرآن وتقوم عليه، وتذكر كثيرا من الحديث النبوي في الأدعية وغيرها. وكانت حسنة الخط ملزمة لمطالعة الكتب. تزوجها صاحب الصلاة بمرسية أبو محمد عبد الله بن موسى بن برطلة، وكانت تطالعه في المسائل العلمية. توفيت بعد سنة 590هـ/1194 وقد نيفت على الثمانين²⁰.

17 - التكملة، 243/4-254.

18 - الصلة، 645/2 ؛ نفح الطيب، 290/4 ؛ أعلام النساء، 6/3.

19 - ابن الزبير، صلة الصلة، الرباط، 1995، 312/5.

20 - التكملة، 262/4-263 ؛ الذيل والتكملة، 489/8 ؛ أعلام النساء، 326/1.

فاطمة بنت زكريا بن عبد الله الكاتب المعروف بالشبلاري : مولى بني أمية. ذكر ابن بشكوال أنها "كانت كاتبة جزلة متخلصة، عمرت طويلا، واستكملت أربعا وتسعين سنة، تكتب على ذلك الكتب الطوال، وتجيد الخط، وتحسن القول. ماتت بكرا في جمادى الأولى سنة 427 هـ/1036، ودفنت بمقبرة أم سلمة بقرطبة"²¹.

قلم (ق/93) : جارية عبد الرحمن الأوسط، كانت كثيرة الخطوة لديه. وهي رومية الأصل من سبي البشكنس (Bascos)، وحملت صبية إلى المشرق فتعلمت الغناء بالمدينة المنورة، ثم عادت إلى الأندلس ضمن ما جلب للأمير عبد الرحمن من جوارى من المشرق. كانت أدبية ذاكرة، حسنة الخط، راوية للشعر، حافظة للأخبار، عالمة بضروب الآداب²².

لبنى بنت عبد المولى : أندلسية، كاتبة الخليفة الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الموقعة عنه. كانت حاذقة بالكتابة، نحوية شاعرة أدبية، بصيرة بالحساب، مشاركة في العلم، لم يكن في قصر الأمير الحكم أنبل منها، وكانت عروضية، وخطاطة ماهرة، وكانت تقارن بمزن كاتبة والده عبد الرحمن الناصر. وتوفيت في حدود سنة 984/374²³.

مريم بنت إبراهيم بن صقيل بن سدراري المرادي : أندلسية، كانت من أهل الذكاء والنبيل، ذات خط بارع، وقرينة جيدة وعقل ودين وصون. تزوجها العالم أبو محمد بن وهبون الكلاعي. وتوفيت سنة 1150/545²⁴.

مزن أو مزنة : كانت حاذقة بالكتابة من أخط النساء، اتخذها الخليفة الناصر لدين الله الأموي في الأندلس كاتبة له. توفيت سنة 969/358²⁵.

نظام الكاتبة : كانت كاتبة بقصر الخلافة بقرطبة في أيام هشام المؤيد بن الحكم المستنصر بالله. وكانت بليغة مدركة محبرة للرسائل جيدة الإنشاء، ورغم أن مترجميها لم يذكروا جودة خطها فإن الخط كان من حلية كتاب ذلك العصر. ومن إنشائها كانت الرسالة التي أرسلها الأمير هشام المؤيد

21 - الصلة، 2/ 656 ؛ أعلام النساء، 58/4.

22 - التكملة، 4/ 241 ؛ أعلام النساء، 219/4.

23 - الصلة، 2/ 653 ؛ التكملة، 4/ 247 ؛ الذيل والتكملة، 8/ 492 ؛ أعلام النساء، 287/4.

24 - الإحاطة، طبعة طنجة، 40.

25 - الصلة، 2/ 654 ؛ الذيل والتكملة، 8/ 492 ؛ أعلام النساء، 49/5.

إلى المظفر عبد الملك المنصور بن محمد بن أبي عامر يعزیه فيها في وفاة أبيه ويجدد له فيها العهد بولايته، وذلك في شوال سنة 1001/392²⁶.

ورقاء بنت يئنان الحاجة : من أهل مدينة طليطلة، انتقلت بعد سقوطها إلى مدينة فاس وسكنت بها، كانت أديبة شاعرة تستظهر القرآن الكريم، مع صلاح وورع. قامت برحلة إلى المشرق أدت خلالها فريضة الحج، لذلك كانت تعرف بالحاجة. كانت بارعة الخط، وتوفيت بعد سنة 1145/540²⁷.

خاتمة :

ظهر من خلال هذا البحث مدى اهتمام نساء الأندلس بالثقافة الخطية وانكبابهن على نسخ الكتب المختلفة، والاعتناء بخطوطهن وتجويدها، إلى جانب عنايتهن بتحصيل العلوم والمعارف المتنوعة، الشيء الذي يؤكد انخراط المرأة الأندلسية في الحياة الثقافية بشكل قوي. لكن للأسف لم نقف لحد الآن على ما نسخته هؤلاء الخطاطات والكاتبات، بسبب فقدان مخطوطات أندلسية كثيرة، وبسبب ضياع أسماء النساخ من العديد من المخطوطات المتوفرة إما بتر أو آخر الكتب أو غير ذلك من العوامل.

26 - التكملة، 249/4 ؛ الذيل والتكملة، 493/8.

27 - التكملة، 256/4 ؛ الذيل والتكملة، 493/8 ؛ صلة الصلة، 310/5.

فُقَهَاءُ الْأَنْدَلُسِ وَمَنْزِلَتُهُمُ الْعِلْمِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ

الأستاذ أنور محمود زناقي
جامعة عين الشمس - مصر

على طول تاريخ الأندلس كان الجانب الديني في بناء الدولة والمجتمع من المميزات الظاهرة لذلك البلد الإسلامي. حقيقة أن العنصر الديني جزء لا يتجزأ من حياة الناس في كل بلد إسلامي آخر، وأن الحاكمين والمحكومين كانوا يتحرون جهد الطاقة أن تكون تصرفاتهم مطابقة لتعاليم الدين أو متمشية معه على الأقل، ولكن الجدير بالملاحظة في الأندلس هو أن الالتزام الديني لم يترك لضمير الحكام أو تقديرهم، وإنما اتخذ شكلاً واقعياً في صورة علماء وفقهاء يقفون إلى جانب الحاكم ويشاركونه في الحكم بصورة فعلية، بحيث يبدو أمام الناس على الأقل أن الجانب الديني من أعمال الدولة يشرف عليه رجال دين عارفون بشؤون العقيدة، وألا خوف نتيجة لذلك من انحراف الدولة عن قواعد الدين الحنيف¹.

وكان هؤلاء الفقهاء القيادة والريادة في المجتمع الأندلسي، بل وشارك البعض منهم في قيادة الأمة مع القوى السياسية في أكثر الفترات، فكان الأمير هشام يوقر الفقهاء ويقربهم ويفض عليهم عطايه، وكان في أشد الحاجة إلى تأييدهم لأن الإمارة التي أنشأها أبوه كانت - رغم استتباب أمرها وتوفر أسباب القوة السياسية والعسكرية لها - في حاجة إلى سند شرعي، فهي مهما بلغت قوتها لم تخرج من الناحية الشرعية الصرفة عن كونها إمارة خارجة على الخلافة العباسية، وهذا بدوره يعرضها للخطر، وقد أحس بهذا من قبل عبد الرحمن الداخل فدعا للخليفة العباسي زمنًا، ولم ينصرف عن ذلك إلا عندما قضى على معظم الثائرين عليه وأحس أن الحكم قد استقر له في الأندلس.

وكان الحكام دائماً في حاجة إلى سند شرعي وسلطان روحي غالب لكي تُسلس قيادتها للرعية، وظهر فقهاء من أمثال عبد الملك بن حبيب وعيسى بن دينار وقرعوس بن العباس القرطبي ويحيى

1 - حسين مؤنس: سُيُوحُ الْعَصْرِ فِي الْأَنْدَلُسِ، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، 1965 م، ص 5.

ابن يحيى الليثي وأصبع بن خليل وأشهد بن عبد العزيز، وعبد الرحمن بن القاسم وعبد السلام بن سعيد بن سحنون، ومحمد بن يحيى السبائي وسعيد بن أبي هند وزيايد بن عبد الرحمن (شبطون) وهو أول من أخل الموطن متفقهاً بالسماع إلى الأندلس²، ويحيى بن مضر وعيسى بن دينار فقيه الأندلس في عصره وكان يعجبه ترك الرأي والأخذ بالحديث³، وطالوت بن عبد الجبار، وقاموا جميعاً بوظيفتهم في بنيان الدولة الأندلسية، وأضافوا على تصرفاتها في نظر الرعية تأييداً حقيقياً كان له أبعاد الأثر في تثبيت دعائم أركانها وتمكينها من السيطرة الفعلية على بلادها⁴.

وحتى بعد أن تمكن الحكم الرضي من القضاء وبعنف على هيج الربض الشهير الذي كاد أن يعصف بكيان الدولة بالكامل فإنه تبين وبوضوح أن ملكه لا يمكن أن يقوم على القوة العسكرية وحدها، وأنه في حاجة إلى تأييد رجال الدين ليستعيد أهليته في نظر رعيته، فأصدر الحكم عفواً عاماً عن الفقهاء المشاركين في الثورة فعاد معظمهم بعد فرارهم وعلى رأسهم يحيى بن يحيى وطالوت بن عبد الجبار وأصبحوا أهل شورا، بل وفي عهد ابنه عبد الرحمن الأوسط أصبح يحيى بن يحيى رجل الدولة الأول، وتكونت من أولئك الفقهاء الكبار جماعة رسمية سميت بجماعة الفقهاء المشاورين وعرف كبيرهم باسم رئيس المفتين أو شيخ المسلمين أو رئيس البلد⁵.

وقد تعاصر أيام عبد الرحمن الأوسط ثلاثة يعدون من أكابر الفقهاء في تاريخ الأندلس كله، هم: عبد الملك بن حبيب، ويحيى بن يحيى الليثي، وعيسى بن دينار، وقد قيل فيهم: "إن عبد الملك عالم الأندلس وعيسى فقيها ويحيى بن يحيى عاقلها"⁶.

وكان الوصول إلى مرتبة كبار الفقهاء يعتمد على الجهد العلمي في المقام الأول من أمثال محمد ابن وضاح وبقي بن مخلد وقاسم بن أصبغ البياني (ت 340هـ/950م) ومحمد بن عبد السلام الخشني وقاسم بن سعدان ومحمد بن إبراهيم بن حيون وأحمد بن خالد بن يزيد المعروف بابن الحباب (ت 322هـ/934م)، ومحمد بن عمر بن لبابة وأسلم بن عبد العزيز⁷.

2 - للمزيد راجع، خالد الصمدي: مدرسة فقه الحديث بالغرب الإسلامي، (منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2006م، ج 1، ص 35).

3 - الضبي: بغية الملتبس، ج 2، ص 525.

4 - للمزيد راجع، خالد الصمدي: مدرسة فقه الحديث بالغرب الإسلامي، ج 1، ص 35.

5 - حسين مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، مرجع سابق، ص 25، 26.

6 - الخشني: أخبار الفقهاء والمحدثين، تحقيق: ماريا لويسا أبيلا ولويس مولينا، مدريد: منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1992، ص 246.

7 - راجع، خالد الصمدي: مدرسة فقه الحديث بالغرب الإسلامي، ج 1، ص 36.

وقد أَلَفَ فُقهاء المالكية نبذ الخلاف والابتعاد عن تعدد الآراء والاقتصار على ما أفتى به مالك وتلاميذه، وكان ذلك في نظرهم أساس تماسك المجتمع الإسلامي في الأندلس والذي كانت تحرص عليه الخلافة الأموية بعد انفصالها عن المشرق، لذلك اتجهوا إلى السلطان مباشرة لتحكيمه في رواج مصادر أخرى للحديث والفقه تتضمن آراء وخلافات ومذاهب⁸. وأصبح الاحتكام في الغالب للحجة والدليل من السنة⁹.

وفي عصر الخلافة الأموية حدث تطور جديد فنجد الخليفة عَبْد الرَّحْمَنِ النَّاصِر رغم توقيره للفُقهاء فإن اتساع الجاه وعظم المنزلة جعلاه قليل الاحتمال للناس، ولم يحتمل أن يكون إلى جواره شيوخ يصلون في قلوب الناس إلى مكانة تقارب مكانته، وخاصة بعد فتنة محمد بن مسرة الجبلي. ومن الواضح أن لهذه الفتنة أثر بعيد في موقف الخلافة من الفُقهاء والعلماء، وظهر فقط ما يمكن تسميته بفُقهاء البلاط من أمثال منذر بن سعيد البلوطي ومحمد بن إسحاق السليم (ت 367هـ/977م)، والفقهاء عبيد الله بن الوليد المَعِيطِي (ت 378هـ/988م) أحد كبار الفُقهاء المشاورين ومحمد بن يتي بن زرب وأبي العباس أحمد بن عَبْد الله بن هرثمة بن ذكوان، وأثناء ولايته القضاء قامت الفتنة وانتشر عقد الخلافة ولقي هو وأهله مهانة كبيرة¹⁰.

أما الحكم المستنصر ابن الناصر فقد توسع في فتح أبوابه لأهل العلم والفُقهاء وقدر لهم الرواتب الجليلة، وكان المستنصر نفسه عالماً جليلاً، إلا أنه بعد موته دبر محمد بن أبي عامر أمراً أزال ما كان قد بقي للفُقهاء من سلطان روحي وسياسي حين استبد بالحكم وسيطر على الخليفة الصغير هشام المؤيد، بل واستبد بأمر الخلافة الأندلسية جملة، ولم يترك لأحد إلى جانبه سلطاناً لا من الفُقهاء ولا من العلماء ولا من غيرهم مكتفياً فقط بابن ذكوان الذي كان صاحب رأيه ومشورته، واستمر ابن ذكوان على هذه المكانة أيام المظفر وعَبْد الرَّحْمَنِ بن أبي عامر وساءت سمعته بين الناس. ولما تولى محمد بن عبد الجبار الأمر نفاه وأهل بيته حتى توفي عام 413هـ/1022م¹¹.

وعندما حدث التدهور السياسي والاقتصادي الذي حل بالعالم الإسلامي في المشرق والمغرب، انقسم دور الفُقهاء فمنهم من شارك في محاولات رَأْب الصدع وتشكيل ذهنية المجتمع وفي توجيه مساراته¹² من أمثال ابن حزم، ومنهم من اندفع في ميدان السياسة وتصدوا للرياسة

8 - نفسه، ج 1، ص 41.

9 - نفسه، ج 1، ص 45.

10 - حُسَيْن مؤنس: شيوخ العصر في الأندلس، مرجع سابق، ص 73.

11 - نفسه، ص 77.

12 - مصطفى بن حمزة: مجلة المجلس العلمي الأعلى بالمغرب، العدد 1، السنة 2007.

وخاضوا غمار الفتنة كما حدث للقاضيين محمد بن إسماعيل بن عباد في اشبيلية، ويعيش بن محمد بن يعيش الأسدي في طُلَيْطَلَة.

ومنهم من جرى في طريق عامة الفُقَهَاء من التماس الوظائف والمكاسب مثل القاضي أبي الأصبغ عيسى بن سهل، ومنهم من نأى عن التدني والانسياق مع التيار وفضل تقديم النصيحة أملاً في إصلاح الأحوال مثل أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي.

وتدهورت الأحوال بسبب استفحال الفتن بين أمراء الطوائف وتزايد الضغط النصراني فقام نفر من الفُقَهَاء باستدعاء المُرابِطِينَ والدعوة إلى القَضَاء على أمراء الطوائف جملة.

أما في عصر دولة المُرابِطِينَ فقد استعاد الفُقَهَاء مكانتهم وبقوة، وتبوأوا مكانة رفيعة وشكلوا هيئة لها رسوخ في المجتمع، ولها سلطة معنوية كبيرة، ونفوذ واسع في تسيير الحياة اليومية¹³، واستعملت المصادر عبارات التعظيم والإجلال لهم فنعتت البعض "بعلو الرتبة" و"سمو الرياسة"¹⁴ و"الحظوة والعزة والرفعة"¹⁵، كما خوطبوا في المراسلات بأفخم العبارات التي تنم عن الهيبة والجلال¹⁶.

وأكد ابن خلدون تلك المكانة بقوله: "فكان لحملة العِلْم بدولتهم مكان من الوجاهة"¹⁷، كما تداول الفُقَهَاء معظم المناصب العليا في ذلك العصر خصوصاً خطط القَضَاء والفتيا والحسبة¹⁸، ويخلص المقرئ إلى أن "خطة القَضَاء هي أعظم الخطط عند الخاصّة والعامة"¹⁹، وحققوا مكانة اجتماعية رفيعة حتى إن بعضهم كان يدخل المدن دخولاً رسمياً يشبه دخول الأمراء²⁰. ويصف الكاتب ابن القصيرة دخول القاضي عيَّاض غرناطة قائلاً: "لما ورد علينا القاضي عيَّاض، خرج النَّاسُ للقاءه، وبرزوا تبريزاً ما رأيت لأمر مؤمر مثله، وحرزت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركاباً نيفاً على مائتي راكب ومن سواد العامة ما لا يحصى كثرة"²¹.

13 - مُحَمَّد زَنْبِير: "الخلفيّة الاجتماعيّة الثقافيّة لحركة المهدي بن تومرت"، مجلة المناهل، المغرب، عدد 24، 1982، ص 103.

14 - ابن فرحون، ص 303.

15 - ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص 289 - 299.

16 - بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، مرجع سابق، ص 145.

17 - راجع، ابن خلدون: المقدمة، تحقيق حامد أحمد الطاهر، ط 1، دار الفجر، القاهرة 2004، ص 45.

18 - كمال السيد أبو مصطفى: "صور من المجتمع الأندلسي"، المجلة التاريخية المصرية، مجلد 37، القاهرة، 1990، ص 15 - 16.

19 - نفح الطيب، ج 2، ص 101، النباهي: المراقبة العليا، ص 2.

20 - بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، ص 145.

21 - المقرئ: أزهار الرياض، ج 3، ص 11.

واحتل الفُقهاء مكانتهم ضمن طبقة الخاصّة، وأغلبهم تحالف مع السُلطة المرابطة، وزاد من قيمة الفُقهاء أن مؤسس الدولة المرابطة الروحي عبد الله بن ياسين الجزولي كان فقيهاً دَرَسَ بقرطبة، وبالمغرب على يد الفقيه الشهير وجّاج بن زلّو اللّمطي الذي أخذ العلم عن الفقيه أبي عمران الفاسي²². ومن الثابت تاريخياً أن طبقة الفُقهاء كانت تقوم بدور مهم في بث المثل الاجتماعية والخلقية والدينية بين أفراد المجتمع، بل تصدت أحياناً للطبقة الحاكمة نفسها ؛ لذا حظيت باحترام الحُكّام الذين رأوا فيها دعامة يستندون إليها في حكمهم²³.

ووصل المديح إلى الفُقهاء والعُلّماء لمكانتهم العالية في دولة المُرابطين، فهذا الأعمى التطيلي يمدح القاضي الفقيه ابن حمدين قاضي الجماعة بقوله :

إليك ابن حمّدين وإن بُعد المدى وأن غربت بي عنك إحدَى المغارب
صباية ود لم يكدر جامه مرور الليالي وازدحام الشوائب
وذكر عساها أن تكون مهزّة ترى على أعقابه كل شاغب
بأيه ما كان الهوى متقارباً وخطوي فيه ليس بالمتقارب

كما عُرِف يُوسُف بن تاشفين بتعلقه بالفُقهاء وكانت لديه هيئة استشارية تشترك فيها طائفة منهم ؛ لذلك "أجرى عليهم الأرزاق من بيت المال طول أيامه"²⁴، ويذكر ابن عذاري أن يُوسُف بن تاشفين كان "يفضل الفُقهاء، ويعظّم العُلّماء، ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ فيها برأيهم، ويقضي على نفسه بفتياهم"²⁵.

كما كان عليّ بن يُوسُف بن تاشفين (ت 500-1106/1143م) شديد الإجلال للفُقهاء "يقرّبهم ويكرمهم"²⁶ ويجالسهم، وقد "بسط حمايته لهم"²⁷ ودرس على أيدي كبار فُقهاء اشبيلية، وكان "لا يقطع في جميع مملكته دون مشاورتهم"²⁸، ويعطيهم مجالاً واسعاً حراً للعمل وأكد ابن خلدون ذلك

22 - يُوسُف التادلي، التّصوّف إلى رِجال التّصوّف، تحقيق أدولف فور، الرّباط : 1958م.

23 - أحمد عبد الرزاق : الحضارة الإسلامية، ج1، ص 257، القاهرة 1990

24 - ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار مُلوك المغرب وتاريخ مَدِينَة فاس، الرّباط، دار المنصور، 1973 م، ص 137، ابن الخطيب : أعمال الأعلام، ص 234.

25 - عبد الواحد المراكشي : المعجب، ص 71.

26 - ابن العماد : شذرات الذهب، ج4، ص 115، العيني : تاريخ العيني، ج 20، ق 4، ص 600.

27 - راجع، محمود على مكي : "وثائق تاريخية جديدة عن دولة المُرابطين"، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد (ع 8-7) 1959، ص 178.

28 - عبد الواحد المراكشي : المعجب، ص 252.

بقوله "فكان لحملة العِلْم بدولتهم مكان من الوجاهة"²⁹، بل إنه غضب غضباً شديداً يوماً لما علم أن أحد ولاته لم يعتن بالقاضي ابن أسود، ولم يقابله بما يستحق من الحفاوة والتكريم، فبعث له برسالة تفيض باللوم والعتاب"³⁰.

وقد سار علي بن يوسف على نهج أبيه في تشجيع العِلْم والعُلَماء وإكبار الفُقهاء وإجلالهم، ويصفه عبد الواحد المراكشي بكونه "حسن السيرة جيد الطويلة بعيدا عن الظلم ... اشتد إثارة لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفُقهاء، فكان إذا ولى أحدا من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمرا، ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفُقهاء، فبلغ الفُقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأمر من الأندلس"³¹.

ويضيف المراكشي: "ولم يزل الفُقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته (أي علي بن يوسف) فعظم أمر الفُقهاء"³².

أدت تلك المكانة إلى يسر في حالتهم المعيشية، فعلى سبيل المثال بلغت ثروات بعض الفُقهاء ما جعلهم "يينون المساجد ويوقفون الديار عليها"³³، وقد تبرع أحد الفُقهاء من أمواله الخاصة "لبناء سور إشبيلية"³⁴، ومحمد بن الحسن بن كامل (ت 539 هـ) "لم يكن ببلده نظيره في سعة الحال وكثرة المال"³⁵، وكان أحمد ابن جعفر بن سفيان المخزومي (ت 566 هـ) "من أهل الثروة واليسار"³⁶. وعرف إبراهيم بن ميمون الحضرمي بأنه "ذو نباهة وثروة"³⁷، وكان أبو عمران الكندي "من أعيان العدو"³⁸؛ أما أبو بكر بن خلف الأنصاري فقد "نال دنيا عريضة، واعتقل أموالاً جلية"³⁹.

29 - راجع، ابن خلدون: المقدمة، تحقيق حامد أحمد الطاهر، ط 1، دار الفجر، القاهرة 2004، ص 45.

30 - حسين مؤنس: سبع وثائق، ص 73 - 75.

31 - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد العريان ومحمد العلمي، ط 7: البيضاء: 1978م، ص 170-171.

32 - المراكشي: المعجب، ص 235.

33 - ابن الأبار، التكملة، ج 2، ص 936.

34 - الذهبي: تذكرة الحفاظ، طبعة حيدر آباد، ج 4، ص 88 وقيل إنه أبو بكر بن العربي.

35 - ابن عبد الملك: الذيل والتكملة، ج 6، ص 162.

36 - ابن الأبار، التكملة، ج 1، ص 76.

37 - ابن الأبار، التكملة، ج 1، ص 150.

38 - السلفي: معجم السفر، ص 122.

39 - ابن الأبار، التكملة، ج 1، ص 221.

ونتيجة لعلو هيبة الفُقَهَاءِ عاش معظمهم في رغد من العيش ؛ فمن شروط الكمال التي ذكرها النباهي في الفقيه والقاضي "أن يكون غير فقير، وليس بمديان ولا محتاج"⁴⁰.

ويذكر صاحب المعجب أنه في عهد علي بن يوسف "عظم الفُقَهَاءُ، وانصرفت وجوه الناس إليهم فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم"⁴¹، ويقول ابن الأثير عنه : «... ازداد في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم، وكان إذا وعظه أحدهم وقف عند استماع الموعظة" ؛ كما ذكر الناصري في الاستقصا ووصف دارا بناها أحد الفُقَهَاءِ تدل على ذلك الثراء المفرط⁴²، كما حازوا على ثروات عقارية ومادية هائلة حتى إن ابن السقاط عجز عن إحصاء الضياع والعقارات المملوكة لقاضي غرناطة⁴³.

ووجدنا قاضي الجماعة ابن حمدين مقرباً من المرابطين و"حاز في المكانة لديهم ما لم يحزه غيره من سلف"⁴⁴، وأعطاه يوسف بن تاشفين سلطات واسعة ؛ ففي رسالة بعثها إليه يقول فيها : "وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه، ونحن أولاً وكلهم آخرأ مذ صرت قاضياً، سامعون منك، غير معترضين في حق عليك، والعمال والرعية كافة سواء في الحق، فإن شكت إليك بعامل وصح عندك ظلمه لها، ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله فاعزله، وإن شكا العامل من رعية خلافاً في الواجب فأمكنه منها وقومها له، ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن فاضربه واسجنه، وإن استوجب الغرم في ما استهل فأغرمه، واسترجع الحق شاء أو أبى من لدنه، والأمر في استكفاء من يكفيك، ويغني في بعض الأمور عنك، إليك، ولا نشير بشيء عليك، وتصرفك أحياناً في إصلاح صنعتك وترقيع معاشك، غير مضيق عليك فيه، فاعلمه"⁴⁵.

وكان أيضاً أبو علي الصّدي رافع الدرجة عند المرابطين، فهم قد ألحوا عليه لتولي قضاء مُرْسِيَّة فتقلدها كارهاً، فلما فر وغاب عن الأنظار تركوه لحاله⁴⁶.

40 - النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، أو المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا (ط1)، تحقيق : مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت (1995) ص 20.

41 - المراكشي، المعجب، ص 235.

42 - الاستقصا، 143/1.

43 - ابن خاقان : مطمح الأنفس ومسرح الناس في ملح أهل الأندلس، ترجمة ابن أضحي (مؤسسة الرسالة، م بيروت 1983) ص 235.

44 - ابن القطان : نظم الجمان، ص 74.

45 - الذخيرة، ق2، ج1، ص 261-262.

46 - ابن الأبار، المعجم، ص 214.

وكذلك لقي ابن رُشد الجَد حظوة كبرى لدى المرابطين، فقد ولي قضاء الجماعة بقرطبة وتمتع بمقام رفيع. وكانت كلمتهم عند الناس مسموعة وأوامرهم مطاعة، وكان الناس يتسارعون لالتفاف حول هذا الفقيه أو ذاك، مما يدل على عظم مكانتهم بين الخاصّة والعامة⁴⁷.

الأثر العلمي للفُقهاء :

يقول الباجي في وصيته لولديه : "هل تريان أحداً أرفع حالاً من العلماء، وأفضل منزلة من الفُقهاء، يحتاج إليهم الرئيس والمرؤوس، ويقتدي بهم الوضع والنفس"⁴⁸.

وفي الجدول التالي نورد توزيع المؤلفات الأندلسية والتي تشمل الفقه والأدب واللغة والحديث والشعر والتاريخ وعلوم القرآن والخطابة والجغرافيا كالتالي⁴⁹ :

القرن التخصص	ق2	ق3	ق4	ق5	ق6	ق7	ق8	ق9	المجموع	النسبة المئوية
الفقه	1	11	23	32	30	22	11	6	136	16,7
الأدب	—	2	14	31	40	26	13	1	127	15,5
اللغة	1	3	18	22	40	25	13	3	125	15,3
الحديث	—	7	18	28	26	27	11	1	118	14,4
الشعر	—	2	13	30	23	17	13	3	101	12,4
التاريخ	—	3	19	21	19	14	13	1	90	11,0
علوم القرآن	—	4	6	18	36	14	9	—	87	10,7
الخطابة	—	—	3	5	2	5	8	—	23	2,8

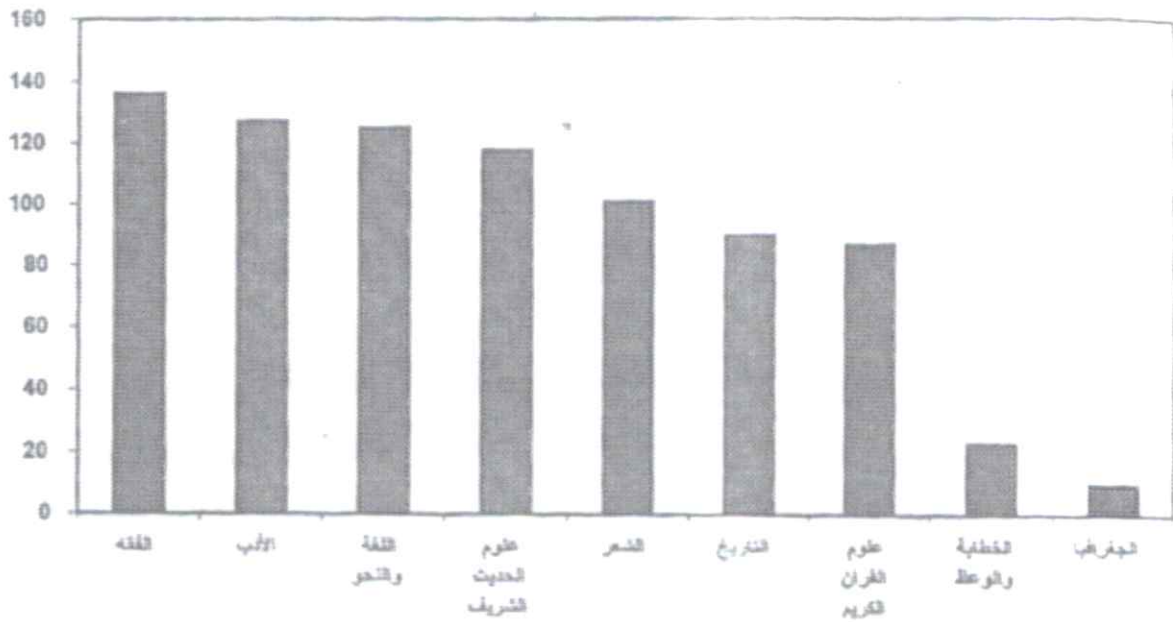
47 - للمزيد راجع، مُحَمَّد بن إبراهيم أبا الخيل : جهود علماء الأندلس في الصّراع ضد النّصارى (رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الامام مُحَمَّد بن سعود، كلية العلوم الاجتماعية، 1997م) ص 124.

48 - الباجي : "وصية الشيخ الفقيه أبي الوليد الباجب لولديه"، نشر : جودة عبد الرحمن هلال، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1955 م، عدد 3، مجلد 1، ص 34.

49 - شرين السيد عبده : الاتصال الوثائقي في الأندلس (رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، قسم المكتبات والمعلومات) ص 45.

الجغرافيا	—	—	2	2	3	1	2	—	10	1,2
المجموع	2	32	116	188	219	152	93	15	817	100
النسب المئوية	2,0	3,9	14,2	23,1	26,8	18,6	11,4	1,8		100

ومن الجدول السابق يتضح لنا أن الفقه بصفة خاصة هو أكثر التخصصات الموضوعية التي حظيت بالتأليف في الأندلس، فقد بلغ 136 مؤلفاً بنسبة 16,7% من مجموع المؤلفين في جميع التخصصات الموضوعية العربية، وتلاه الأدب بعدد 127 وبنسبة 15,5%⁵⁰، كما كان إقبال الطلاب في الأندلس على دراسته أكثر من إقبالهم على بقية المواد الأخرى بعامة، لأنه يتيح لهم الفرصة لكي يتولوا الوظائف العامة، دينية أو مدنية، وكان طلاب الفقه يملأون المساجد، على أمل أن يحصلوا من مواطنيهم، عقب انتهاء دراستهم على لقب "فقيه" وكان سامياً ورفيعاً، وموضع إجلال، حتى إنه كان يطلق على بعض الملوك تشريفاً لهم⁵¹.



50 - شرين السيد عبده : الاتصال الوثائقي في الأندلس، مرجع سابق، ص 46.

51 - خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس، ص 54 - 55.

وقد كثرت وتعددت مؤلفات أُولَئِكَ الفُقهاء ما بين كتابات للمتخصصين وقسم آخر لشرح مسائل غمض فهمها على الدارسين وقسم ثالث ليكون في متناول عامة الناس. وسوف نتناول فيما يلي أهم مؤلفات الفُقهاء وهي كتب النوازل الفقهية :

- كتب النوازل الفقهية :

النوازل هي الوقائع والمسائل المستجدة التي تنزل بالمجتمع ؛ فيستخرج لها العالم الفقيه حكماً شرعياً. ويطلق عليها «النوازل» و«الفتاوى» و«الأجوبة» و«الأحكام» و«المسائل»، وكلها مصطلحات تعكس مفاهيم متقاربة⁵².

وتزخر كتب النوازل بمادة تاريخية وفقهية وقانونية غاية في الأهمية، وتعد سجلاً حافلاً لجوانب كثيرة من حياة الأفراد والجماعات، وتعمل على كشف العديد من القضايا الفكرية والاجتماعية والتشريعية ؛ فالنوازل تعني ما يعرض لأفراد المجتمع من قضايا ومنازعات قضائية تطرح على القضاة أو المفتين، ولهذا الأمر قيمة عظيمة بلا شك من الناحية الدينية ؛ وفضلاً عند ذلك فإنها تلقي الضوء على كثير من دقائق الحياة الاجتماعية والاقتصادية، كما تطلعنا على مدى الأصالة في التشريع المغربي والأندلسي، ومدى آثار البيئات الإقليمية في هذا التشريع، كما تساعد على التعرف على النظم القضائية، ودور المفتين والمشاورين في إرشاد المتقاضين ومناصرة المظلومين وتنوير رأي الحاكمين، والتعرف على منشآت المجتمع الحسبية، وما قدمت من دعم دائم للمؤسسات الدينية والتعليمية والجهادية⁵³.

ومن أبرز مميزات كتب النوازل الواقعية والتجدد وتنوع التأليف، كما أنها ذات "طابع محلي"⁵⁴ فلا تبقى سابحة في الأحكام النظرية كما هو شأن كتب الفقه العامة، وإنما تتحدد مسائلها في المكان والزمان والموضوع بحسب ما تأتي به الأسئلة التي تنبني عليها، وما تطرحه من مشاكل دينية واجتماعية وقانونية ؛ ومن ثم تكون كتب النوازل منجماً غنياً بمعلومات موازية يستفيد منها المؤرخ

52 - راجع، إبراهيم القادري بوتشيش : "النوازل الفقهية وكتب المناقب والعقود العدلية مصادر هامة لدراسة تاريخ الفئات العامة بالغرب الإسلامي (ق 5 - 6 هـ / 12 - 13 م)"، مجلة التاريخ العربي، عدد 22، ربيع 2003 م، ومحمد بن شريفة، «وقائع أندلسية في نوازل القاضي عياض»، مجلة دعوة الحق، عدد 264، أبريل - مايو 1987، ص 94، مبارك جزاء الحربي : "جهود فقهاء المالكية المغاربة في تدوين النوازل الفقهية"، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 64 - السنة الحادية والعشرون - مارس 2006).

53 - للمزيد راجع، بوتشيش : "النوازل الفقهية"، مرجع سابق.

54 - محمد حجي : نظرات في النوازل الفقهية، ط 1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1999 م، ص 55 - 59.

والقانوني والاجتماعي⁵⁵. ولذا يري جوزيف شاخ أن "فهم المجتمع الإسلامي سيظل رهيناً بمدى فهم ودراسة هذه النوازل والاستفادة من مادتها الخام"⁵⁶.

وتقول المستعربة الفرنسية راشيل أرييه : "تشكل هذه الفتاوى أهمية عظمى ليس فقط في مجال الفقه الإسلامي في الأندلس، بل أيضاً في غزارة المعلومات التي تقدمها لنا حول الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيه، هذه المعلومات تكاد تخلو منها تقريباً كتب المؤرخين"⁵⁷.

ويؤلف التراث الفقهي قسماً كبيراً في التراث الثقافي بالغرب الإسلامي، ويشغل حيزاً مهماً في المكتبة المغربية، وإن كثرة هذا التراث، وتداوله الشائع، وانتشاره الواسع، لدليل على عناية الأندلسيين والمغاربة بالفقه، واهتمامهم الخاص به⁵⁸، والفقه - سواء في العبادات أو المعاملات - كان شديد الارتباط بوقائع أهل المغرب والأندلس الجارية، ومشكلاتهم الناشئة، وأقضيتهم الطارئة، وباختصار فقد كان الفقه مدار حياتهم اليومية⁵⁹.

والنازلة الفقهية تعكس صورة المجتمع الإسلامي في خصوصياته وفي مشاكله وتعقيداته. كما أن غنى مادتها يمكن من كشف ما عجزت الحوليات التاريخية عن كشفه⁶⁰. فالفقه الإسلامي ليس مجرد نظريات ميتة في الكتب، بل هو فقه للحياة أو كما يقول ابن سهل "التجربة أصل كل فن"⁶¹.

خلاصة القول لقد تبوأ الفقهاء مكانة سامية في المجتمع الأندلسي، وذلك يعود إلى دورهم الكبير وجهودهم المستمرة والفعالة في حفظ كيان الدولة الإسلامية كانوا أعمدتها وموضع الشورى عند الخلفاء والأمراء فيما يهمهم من أمور الدنيا والدين.

55 - مبارك جزاء الحربي : جهود فقهاء المالكية، مرجع سابق.

56 - J. SCHACHT, *Esquisse d'une Histoire du Droit Musulman*, Paris, Bessson, 1953, (Traduction Francaise).p.67...

57 -R. ARIÉ : *España musulmana (siglos VIII - XV) : Historia de España*, dirigida por Manuel Tuñón de Lara, III, Barcelona 1989, p.100..

58 - محمد بن شريفة، "وقائع أندلسية في نوازل القاضي عياض"، مجلة دعوة الحق، عدد 264، أبريل - مايو 1987.

59 - نفسه.

60 - للمزيد راجع، إبراهيم القادري بوتشيش : "النوازل الفقهية"، مرجع سابق.

61 - ابن سهل : ديوان الأحكام الكبرى، تحقيق : يحيى مراد، دار الحديث، القاهرة 2007 م، ص 26.

السكة بمملكتي قرطبة وغرناطة خلال القرن الخامس الهجري

الأستاذة أسماء الدرايدي

باحثة - تطوان

شهدت بداية القرن الخامس الهجري اندلاع الفتنة بقرطبة وتمزق الخلافة المروانية وتغيرا في الخريطة السياسية بالأندلس، وانفصال الطوائف وتكوينها لكيانات مستقلة. وكان من نتائج هذا الاستقلال تبني كل مملكة لنظام نقدي يتماشى ونهجها السياسي. فما هي مميزات عملة كل من مملكة قرطبة وغرناطة خلال عصر الطوائف؟

1 - السكة بمملكة قرطبة :

من خلال ما عثر عليه من نماذج للسكة التي كانت تتداول بقرطبة خلال القرن الخامس الهجري، اتضح أن قرطبة عرفت سك مجموعة مختلفة من النقود بعد انهيار الخلافة على عهد ملوك الفتنة، وسك عملة أخرى على عهد أبي الوليد بن جهور. ويرى المتخصصون أنه لا يمكن فصل النقود المضروبة خلال الفتنة عن نقود العقود الثلاثة الأولى من القرن الخامس الهجري نتيجة استمرار تداول نفس النقود رغم انهيار الخلافة¹. احتفظ ملوك الفتنة بالنموذج الخلفي لسكتهم، حيث سجلوا أسماء وألقاب الخلفاء السابقين رغم وفاتهم، وذلك لإخفاء مظاهر التسور على السلطة². ويمكن استخلاص ثلاثة نماذج من النقود التي تم التعامل بها قبل ظهور سكة أبي الوليد ابن جهور التي ابتدأت بدينار ضرب سنة 439هـ بقرطبة³.

تضم المجموعة الأولى، نقودا تعود إلى آخر الخلفاء الأمويين. ومجموعة ثانية تحمل أسماء شخصيات لم تحكم. ومجموعة ثالثة هي نقود مزورة، عبارة عن تقليد لنقود عصر الخلافة⁴.

1 - Antonio, Prieto y Vives, *Los Reyes de Taifas*, centro de estudios históricos, Madrid, 1926, p.104.

2 - Casto M^a, del Rivero, *La moneda Arabico-Española*, imprenta de Estanislao Maestre, Madrid, 1933, p.20.

3 - Prieto y Vives, Op. Cit., p. 220.

4 - Prieto, Op. Cit., p. 104

لقد عثر على نقود ضربت عهد الخليفة محمد بن عبد الجبار⁵ سنة 399هـ، تحمل اسم جهور، وأخرى سنة 400 هـ وتحمل اسم محمد بن مسلمة، وهي من ضرب ناقص ومعدن رخيص⁶. كما عثر على نقود أخرى بعضها يحمل أسماء شخصيات مجهولة، والبعض الآخر لا يثبت الاسم، ثم سكها بين سنتي 400 و403 هـ⁷.

وخلال الفترة الخلافة الأولى للخليفة سليمان⁸ المستعين سنة 400هـ، وجدت مجموعتان من النقود، الأولى باسم ابن مسلمة مضروبة بالأندلس، والثانية باسم ابن شهيد مضروبة بمدينة الزهراء. ووجدت نماذج أخرى من النقود تعود إلى الفترة الخلافة الثانية لنفس الخليفة (403-407هـ) وهي متنوعة الأسماء⁹. ولا يعرف شيء عن سكة فترة عبد الرحمان الرابع وعبد الرحمان الخامس¹⁰. ووجدت نقود باسم ذكوان¹¹ - وينتمي إلى أكبر العائلات بقرطبة - تعود إلى فترة خلافة هشام الثالث¹². ويعتقد برييطو (Prieto) أن هذه النقود لم يتم سكها من طرف الخلفاء، وإنما من طرف الأشخاص أصحاب الأسماء المنقوشة على السكة¹³. أما خلال خلافة الحموديين، فيلاحظ أن سكتهم كانت من نفس طراز النقود الأموية¹⁴.

ويبدو أن القرطبيين استمروا يتداولون نفس النقود التي سكت خلال عهد الخلافة. ولم يتخذ أبو الحزم بن جهور سكة خاصة به، وهذا ما ينفي كون العملة التي تحمل اسم جهور تعود إلى رئيس قرطبة الطائفية، إذ لو كان قد سبق له سك عملة باسمه قبل ترأسه حكومة قرطبة لما أهمل هذه الخطوة المهمة لاقتصاد قرطبة واستقلالية حكومته، يؤكد هذا الطرح ما ذكرته المصادر عن التزام أبي الحزم الحياد خلال الفتنة، وأنه لم يتصل بخلفاء الفتنة قبل ترأسه حكومة قرطبة¹⁵، بالرغم من

5 - الملقب بالمهدي، ولد سنة ست وستين وثلاثمائة، أول خلفاء الفتنة، قام على ابن عمه هشام بن الحكم سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، قتل على يد عبيده سنة أربعائة من الهجرة. انظر ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج. 2، ص. 196-197.

6 - Prieto, *Op. Cit.*, p. 105

7 - Prieto, *Op. Cit.*, p. 106

8 - الخليفة سليمان بن الحكم المستعين، دخل قرطبة سنة ثلاث وأربعائة بمساعدة البربر، قتله علي بن حمود بيده بعد انهزام جيش سليمان أمام جيشه سنة سبع وأربعائة. انظر ابن حزم، المصدر السابق والصفحة.

9 - Prieto, *Los Reyes de Taifas*, p. 106

10 - Prieto, *Op. Cit.*, p. 107

11 - والراجح أنه ابن القاضي ابن ذكوان الذي عزل عن القضاء والصلاة بالناس بقرطبة سنة 401، وتوفي في عهد الخليفة يحيى بن علي بن حمود سنة 413هـ. انظر ابن بشكوال، الصلة، ج. 1، ترجمة. 65، ص. 37-38.

12 - وهو الخليفة هشام بن محمد المعتد بالله، بوع له بالثغور سنة 418هـ، وحل بقرطبة سنة 420هـ. انظر ابن بسام، الذخيرة، ق. 3، م. 1، ص. 516. وابن عذارى، البيان المغرب، ج. 3، ص. 147. والضبي، بغية الملتبس، ص. 34.

13 - Prieto, *Op. Cit.*, p. 107.

14 - Prieto, *Op. Cit.*, p. 109.

15 - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، ص. 147.

اشتغاله في منصب وزاري مهم في الدولة العامرية¹⁶. الأمر الذي يرجح اعتقادنا بأن جمهور الذي نقش اسمه على سكة أول ملك خلال الفتنة، إنما يتعلق الأمر بأحد أفراد أسرة بني جمهور الغنية، والراجح أنه كان يتقلد منصبا ماليا مهما. وما يؤكد هذا الزعم، إغفال ابن حيان كاتب أبي الوليد بن جمهور¹⁷ هذا الجانب من الحياة الاقتصادية والمالية لقرطبة، رغم إشادته بتسيير أبي الحزم وضبطه المحكم لمجرى الحياة الاقتصادية لدرجة أنه لم يكن يرى أغنى منه¹⁸.

ونعتقد أن سبب عدم سك أبي الحزم بن جمهور لعملة خاصة به يعود أساسا إلى النقص الحاد في معدني الذهب والفضة بأراضي قرطبة، حيث لم ترد إشارة إلى توفرها على هذين المعدنين، بل تخصصت مناطق تابعة لها في إنتاجهما، مثل مدينة فرنجولش¹⁹ التي استخرج منها معدنا الذهب والفضة بموضع يعرف بالمرج²⁰، كما استخرج من حصن المدور²¹. وتواجد بجبال قرطبة معدن الفضة²²، وكذلك توفر بإقليم كرتش التابع لمملكة قرطبة معدن فضة جليل²³ وغزير المادة²⁴. ويبدو أن الذهب الذي يستخرج من المناطق التابعة لقرطبة من النوع الذي يتواجد بالبراري الرملة والجبال الرخوة²⁵، كما أن فضة قرطبة من النوع الذي يستخرج من الأحجار المختلطة بالتراب²⁶، وإلى ذلك يشير الرازي²⁷ حين يتحدث عن فضة قرطبة الرقيقة، والتي تستخرج من التربة الندية. غير أن المصادر لا تسعفنا بمعرفة الكميات التي كانت تُنتج من هذين المعدنين بمنطقة قرطبة، ويبدو أنها لم تتوفر بالكميات اللازمة لسد احتياجات المنطقة من هذين المعدنين وخصوصا معدن الذهب،

16 - الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، نشر عبد الرحيم المكاوي، مطبعة السعادة، مصر، 1325هـ، ص. 16.

17 - ابن بسام، الذخيرة، ق. 1، م. 2، ص. 605.

18 - ابن بسام، المصدر السابق، ص. 603.

19 - يعتقد الدكتور خواكين فالفي (Joaquin Vallvé) أن هذا الاسم أطلق على هذه المنطقة لكثرة الأفران التي كانت بها لإذابة المعادن أو لاستخراج الذهب الخالص منذ الفترة ما قبل الإسلام. Joaquín, Vallvé, « La Industria y el Comercio », in Abdarramàn III, p. 164.

20 - الإدريسي، نزهة المشتاق، ج. 2، ص. 574. والمقري، نفح الطيب، ج. 1، ص. 200. و. 520. والحميري، الروض المعطار، ص. 440.

21 - الحميري، المصدر السابق، ص. 143.

22 - القزويني، آثار البلاد، ص. 552؛ ومجهول، ذكر بلاد الأندلس، ج. 1، ص. 30.

23 - البكري، المسالك والممالك، ج. 2، ص. 898؛ والمقري، المصدر السابق، ج. 1، ص. 143.

24 - مجهول، المصدر السابق، ص. 42.

25 - القزويني، المصدر السابق، ص. 10 و. 549.

26 - القزويني، المصدر السابق والصفحة.

والدليل على ذلك لجوء حكام قرطبة إلى استعمال عملة ناقصة خلال عصر الطوائف وخاصة مرحلة حكم المعتمد بن عباد لقرطبة، حيث انتشر استعمال الدينار الناقص من المعدن النفيس، وخلطه بمعادن أرخص مثل الفضة والنحاس²⁸. كما كان اعتماد قرطبة قبل انحلال الخلافة على جبايات المدن الأندلسية الأخرى من معدن الذهب، بخلاف معدن الفضة الذي توفر بكثرة لدرجة توجيه الفائض منه نحو التصدير²⁹. وأن احتياط قرطبة من المعدنين لم يسمح لها بتلبية حاجياتها من العملة، كما أن استقلال قرطبة ودخولها مصاف دول الطوائف جاء متأخرا نوعا ما عن باقي الطوائف، الأمر الذي جعل أبا الحزم بن جهور، يولي كل العناية للأمن والاستقرار، وحفظ الجوار قبل تبني مسألة الاستقلال في العملة.

يؤكد تاريخ قرطبة التجاري، على أنها كانت قبلة لكل تجار العالم قبل انهيار الخلافة، لذا فضل أبو الحزم استمرار تداول مختلف العملات الطائفية بأسواق قرطبة، حتى تظل قبلة لكل تاجر. ويبدو أن سياسته أتت أكلها عندما "صاح الرخاء بالناس أن هلموا، فلبوه من كل صقع"³⁰. أما النقود التي عثر عليها والتي تعود إلى عهد بني جهور، فتبدأ بدينار ضرب سنة 439 هـ، بقرطبة، وكسر من دينار ضرب سنة 440 هـ بقرطبة أيضا³¹، تتزامن والمدة التي تولى فيها أبو الوليد بن جهور حكومة قرطبة بعد وفاة والده سنة 435 هـ³².

لقد عثر على نماذج للسكة التي ضربت عهد بني جهور تبتدئ من سنة 439 هـ إلى سنة 442 هـ، وقدم لنا بريطو بيبس (Prieto Vives) نماذج لهذه السكة كتب عليها : "الدينر بقرطبة سنة تسع وثلثين"، وآخر كتب عليه : "الدينر بقرطبة سنة أربعين"، وأن هاتين القطعتان لا تحملان أية إشارة لإمام، أو ذكر لشهادة كما في قطعة لكسر دينار ضرب سنة 440 هـ، وكتب عليها : "الدينر بقرطبة ستة أربعين وأربع" وتحتها "الإمام عبد الله أمير المؤمنين". وهناك قطعة أخرى عبارة عن كسر لدينار ضرب سنة 441 هـ بقرطبة كتب عليها : "الدينر بقرطبة سنة إحدى وأربعين"³³. كما عثر على كسر لدينار ضرب بقرطبة سنة 442 هـ، كتب عليه : "الله لا إله إلا * الدينر بقرطبة سنة اثنتين وأربعين وأر" وفي السطر الثاني : "الإمام عبد الله"³⁴.

28 - ابن السماك العاملي، الحلل الموشية، ص. 42.

29 - ابن يوسف، ضوابط دار السكة، ص. 42.

30 - ابن بسام، نفسه، ص. 604.

31 - Prieto y vives, *Los Reyes de Taifas*, p. 220

32 - ابن بسام، نفسه ؛ ابن خلدون، العبر، ج. 4، ص. 204.

33 - Prieto, Vives, *Op. Cit.*, p. 220.

34 - Prieto y vives, *Ibid*, p. 221

لم تظهر نقود أخرى بعد سنة 442هـ، والمجموعة التي عثر عليها تعود إلى سنة 461هـ، أي بعد سيطرة المعتمد بن عباد على قرطبة، والقائمة التي يقدمها لنا بريطو إي بيبس (Prieto y vives)³⁵ هي كالتالي :

• المجموعة التي تحمل رقم 415 ضمن القائمة كتب عليها : « الحاجب // سراج الدولة * الدينر بمدينة قرطبة سنة إحدى وسـ » وفي الوجه الثاني : « الظافر // المؤيد بالله * ».

رقم 416 : أ- كتب عليه « الحاجب // سراج الدولة * الدينر بمدينة قرطبة سنة إحدى وستين المعتمد على الله // المؤيد بنصر الله * ».

ب- وكتب عليه : « الدينر بمدينة قرطبة سنة اثنتين وستين ».

ورقم 417 : أ- دينار ضرب بقرطبة سنة 463هـ كتب عليه : « الحاجب // سراج الدولة // ابن فرجون * الدينر بمدينة قرطبة سنة ثلث وستين » وفي الوجه الثاني : « المعتمد على الله // المؤيد بنصر الله * ».

ب- دينار ضرب بقرطبة سنة 464هـ كتب عليه : « الدينر بقرطبة سنة أربع وستين وأر ».

ج- دينار ضرب بمدينة قرطبة سنة 465هـ كتب عليه : « الدينر بمدينة قرطبة سنة خمس وستين ».

د- كسر من دينار والكتابة التي بالحاشية ألفت.

• والمجموعة التي تحمل رقم 418 درهمان وكسر من درهم :

أ- درهم بمدينة قرطبة سنة 463هـ الكتابة : « الحاجب // سراج الدولة // ابن فرجون * الدرهم بمدينة قرطبة سنة ثلث وستين ». وفي الوجه الثاني : « الله // المعتمد على // المؤيد بنصر الله ».

ب- درهم بمدينة قرطبة سنة 464هـ، كتب عليه : « الدرهم بمدينة قرطبة سنة أربع وستين ».

ج- كسر من الدرهم دون اسم المكان أو التاريخ.

• المجموعة الثانية تبتدئ من سنة 469 إلى 480هـ :

رقم 419 : أ- دينار ضرب بمدينة قرطبة سنة 469هـ كتب عليه : « الحاجب // عضد الدولة * الدينر بمدينة قرطبة سنة تسع وستين ». وفي الوجه الثاني : « المعتمد على الله // المؤيد بنصر الله ».

35 - Prieto y Vives, Ibid, pp. 234-235.

ب- كسر من دينار بدون تاريخ :

رقم 420 : أ- دينار ضرب بمدينة قرطبة سنة 471هـ. كتب على الوجه الأول : «الرشيد* الدينر بمدينة قرطبة سنة تسع وستين». وفي الوجه الثاني : «المعتمد على الله//المؤيد بنصر الله».

ب - دينار ضرب بمدينة قرطبة سنة 472هـ كتب عليه : « الدينر بمدينة قرطبة سنة اثنتين وسبعين».

ج - كسر من دينار لم يذكر فيه مكان الضرب أو التاريخ، والحاشية مقصودة.

رقم 421 : أ- دينار ضرب بقرطبة سنة 473هـ. الكتابة عليه في الوجه الأول : «الرشيد المأمون* الدينر بمدينة قرطبة سنة ثلاث وسبعين وأر». وفي الوجه الثاني : «المعتمد على الله//المؤيد بنصر الله».

ب - دينار ضرب بمدينة قرطبة سنة 474هـ، كتب عليه : «الدينر بمدينة قرطبة سنة أربع وسبعين وأر».

ج - دينار ضرب بمدينة قرطبة سنة 479هـ، كتب عليه : «الدينر بمدينة قرطبة سنة تسع وسبعين وأربعمئة».

د - دينار ضرب بمدينة قرطبة سنة 480هـ ، كتب عليه : «الدينر بمدينة قرطبة سنة ثمانين وأرب».

هـ - كسر لدينار الكتابة بالحواشي مكسورة.

رقم 422 : درهم بدون مكان الضرب كتب عليه في الوجه الأول : «الرشيد//المأمون» وفي الوجه الثاني : «المعتمد على الله//المؤيد بنصر الله».

نستنتج من خلال المجموعتين أن السكة بقرطبة لم تبدأ إلا بعد استقرار الحياة السياسية بقرطبة في ظل بني عباد، فرغم استخلاص المعتمد لقرطبة وضمها لأملاك مملكة اشبيلية، لم يضرب سكة باسمه إلا بعد أن خلف والده على عرش إشبيلية سنة 461هـ، حينها قرر تغيير سكة ابن جهور التي استمر التعامل بها طوال تلك المدة واستبدلها بسكة بني عباد³⁶. كما يلاحظ أن سك النقود كاف يتم تقريبا كل سنة، تتخللها بعض فترات الراحة، والتي تصل أحيانا إلى أربع سنوات، وهو الفرق بين الدرهم الذي ضرب سنة 464هـ ودينار سنة 469هـ، وكذلك هي نفس المدة الزمنية التي تفصل بين دينار سنة 474هـ ودينار سنة 479هـ.

36 - ابن الحاج، نوازل الأحكام، ص. 17.

2 - السكة بمملكة غرناطة :

عمل بنو زيري على سك عملة بغرناطة ومالقة متبنين نموذج سكة الدولة الحمودية، كما استمر ضرب النقود بمالقة باسم إدريس الثاني رغم انحلال الدولة الحمودية³⁷.

عثر على سكة تحمل اسم باديس، وتم ضربها في السنوات الأخيرة من حكمه. وإلى جانب هذه المجموعة، توجد مجموعة أخرى من النقود من ذهب ذي قيمة منخفضة من ضرب غرناطة، ولا تحمل اسم باديس، وفي إحدى هذه النقود يظهر لقب الحاجب المعتاد بين ملوك الطوائف³⁸. ويظهر في نموذج آخر من نفس نقود باديس بن زيري اسم المعز، وبعض هذه النقود كتاباتها جد مركزة³⁹.

ونماذج النقود التي عثر عليها وتمثل السكة التي ضربت من طرف باديس بعد سقوط الخلافة الحمودية بمالقة، وهي كما قدمها بريطو إي بيس (Prieto y Vives)⁴⁰ :

- رقم 111 :

أ- درهم ضرب الأندلس سنة 453هـ وكتب في الوجه الأول : «الدرهم بالأندلس سنة ثلاث»، وفي الوجه الثاني : «الإمام إدريس//العلي بالله//أمير المؤمنين».

ب- درهم ضرب بالأندلس دون تاريخ، كتب عليه : «الدرهم بالأندلس سنة».

ج- درهم ضرب بمدينة مالقة دون تاريخ، كتب عليه : «الدرهم بمدينة مالقة سنة».

د- درهم ضرب بمدينة غرناطة سنة 454هـ، كتب عليه : «الدرهم بمدينة غرناطة سنة أربع».

هـ- درهم ضرب بمدينة غرناطة سنة 455هـ، كتب عليه : «الدرهم بمدينة غرناطة سنة خمس».

و- درهم ضرب بمدينة غرناطة دون تاريخ، كتب عليه : «الدرهم بمدينة غرناطة سنة».

- رقم 112 :

أ- درهم ضرب بمدينة مالقة سنة 450هـ، كتب في الوجه الأول : «الدرهم بمدينة مالقة سنة خمسين وأربع»، وفي الوجه الثاني : «الإمام إدريس//العلي بالله//أمير المؤمنين».

37 - Prieto y Vives, Ibid, pp.114-116.

38 - Prieto, Ibidem

39 - Prieto, Ibidem.

40 - قام صاحب كتاب ملوك الطوائف بدراسة وتقديم لهذه النقود، وأثبت صورها. انظر كتاب ملوك الطوائف، الصفحات 175-176-177.

- ب- درهم ضرب بمدينة مالقة سنة 453هـ، كتب عليه : «الدرهم بمدينة مالقة سنة ثلاث».
- رقم 113 : درهم ضرب بمدينة غرناطة دون تاريخ، كتب في الوجه الأول : «الدرهم بمدينة غرناطة»، وفي الوجه الثاني : «الإمام إدريس//علي بالله».
- رقم 114 : تضم نقود ضربت من طرف باديس بن زيري لا تذكر اسم الأمير.
- كسر من دينار ضرب بمدينة غرناطة دون تاريخ، كتب عليه في الوجه الأول : «لا إله إلا الله//محمد رسول الله* الدينر بمدينة غرناطة»، وفي الوجه الثاني : «الحاجب//سيف الدولة».
- رقم 115 : كسر من دينار ضرب بمدينة غرناطة يصعب قراءة سنة الضرب، كتب في الوجه الأول: «الحاجب//لا إله إلا الله//المعز* ... بمدينة غرناطة ...»، وفي الوجه الثاني : «سيف//محمد رسول الله//الدولة».
- رقم 116 : كسر دينار ضرب بمدينة غرناطة لم يتوصل إلى قراءة تاريخ الضرب، كتب على الوجه الأول : «ضرب هذا الدينر بمدينة* غرناطة ...»، وفي الوجه الثاني : «محمد رسول الله أر*سله بالهدى الح».
- رقم 118 : كسر من دينار الكتابة فيه مضغوطة لا تسمح بمعرفة تاريخ الضرب، كتب في الوجه الأول : «لا إله إلا الله وحده لا شريك له* ...»، وفي الوجه الثاني : «محمد رسول الله أرسله* بالهدى الح».
- وعشر على درهم يعود لمدة حكم عبد الله بن بلقين كتب عليه الكنية التي كان يعرف بها وهي أبو عبد الله. وكان يعتقد أن هذا الدرهم يعود إلى فترة باديس لاستعمال عبد الله بن بلقين لألقاب جده وهي المظفر بالله، والناصر لدين الله، إلا أن باديس لم يكن يعرف بأبي محمد وإنما بأبي مناد⁴¹. وهذان النموذجان ضمن لائحة النقود التي تحمل رقمي :
- أ- 119 : درهم بتاريخ 474هـ الكتابة عليه في الوجه الأول : «الدرهم سنة أربعة وسبعين وأربعمائة»، وفي الوجه الثاني «المظفر بالله//الناصر لدين الله».
- ب- 120 : درهم دون تاريخ الضرب أو مكان السكة، الوجه الأول : لا شيء، والوجه الثاني : «المظفر بالله//الناصر لدين الله»⁴².

41 - Prieto y vives, *Los Reyes de Taifas*, p. 11742 - Prieto, *Ibidem*.

ويبدو أن تميماً أخو عبد الله بن بلقين؛ ورغبة منه في الاستقلال بشؤونه الداخلية بمدينة مالقة عن وصاية أخيه، عمد إلى سك نقود خاصة به من دار السكة بمالقة. من نماذج هذه السكة⁴³:

- رقم 121: دينار بمدينة مالقة سنة 477 هـ، كتب عليه في الوجه الأول: «الحاجب//إله إلا الله//وحده لا شريك له//سيف الدولة»، وفي الوجه الثاني: «الدينر بمدينة مالقة سنة سبع وسبعين».

- رقم 122: درهم لم يذكر فيه اسم المدينة ولا تاريخ الضرب، كتب عليه في الوجه الأول: «المعز لدين الله* الدرهم بمدينة...»، وفي الوجه الثاني: «المستنصر الإمام عبد الله//أمير المؤمنين//بالله».

- رقم 123: درهم لا يتبين التاريخ بأكمله، كتب عليه في الوجه الأول: «المعز لدين الله* الدرهم... سبعين وأربعمئة»، وفي الوجه الثاني: «أبو معد//المستنصر بالله* لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله إلح».

- رقم 124: درهم ضرب بمدينة مالقة سنة أربع وسبعين وأربعمئة، كتب عليه في الوجه الأول: «الدرهم بمدينة مالقة سنة أربع وسبعين وأربعمئة»، وفي الوجه الثاني: «أبو معد//المستنصر بالله//المعز لدين الله*».

- رقم 125: درهم بمدينة مالقة لا يظهر تاريخ سكته، كتب في الوجه الأول: «الدرهم بمدينة مالقة سنة...»، وفي الوجه الثاني: «أبو معد//المستنصر بالله//المعز لدين الله».

من خلال نماذج النقود الخاصة بمملكة غرناطة والتي عثر عليها نستنتج أن استقلال المملكة بنظامها المالي لم يبدأ إلا خلال حكم عبد الله بن بلقين، بتخليه عن النهج الذي تبناه جده، الذي ظل وفيًا للنموذج الحمودي، ومعتزفاً بإمامتهم وخلافتهم، رغم سقوط الدولة، طيلة سنوات حكمه للمملكة. ويبدو أن باديس لم يتجرأ على ضرب سكة بغرناطة قبل انحلال الخلافة الحمودية، وبذلك لم يُوفّر للغرناطين عملة غرناطية محضة، وكان التعامل المالي بأسواقها يعتمد مختلف العملات⁴⁴ المتواجدة، سهل ذلك وجود حرفة الصيرفة⁴⁵، والصرافين⁴⁶، أو "أهل الصرف"⁴⁷ والتي ينصح أن يكون المتعاطي لها عالماً بأحكام الشريعة حتى لا يتعامل بالربا.

43 - Prieto, Ibidem.

44 - مثل الميثاقيل الجعفرية، التي يشير إليها ابن بلقين. انظر ابن بلقين، كتاب التبيان، ص. 143.

45 - الشيزري، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص. 6. وابن الإخوة، معالم القرية في أحكام الحسبة، دار الحداثة، بيروت دون تاريخ، ص. 29.

46 - الوئشيسي، المعيار المغرب، ج. 6، ص. 192. والمقري، نفح الطيب، ج. 3، ص. 266.

47 - ابن بسام، الذخيرة، ق. 3، م. 2، ص. 888.

وبعد سقوط مالقة في أيدي بني زيري، يأمر باديس بِسَكِّ أول مجموعة من الدراهم بدار الضرب بغرناطة ومالقة خلال ثلاث سنوات متتالية، يظل فيها دائما وفيا للتقليد الحمودي. وفي مجموعة أخرى يلاحظ تغييره للنهج الذي سار عليه بذكره للإمام، ووفائه لشرعية بني حمود، فاستبدله بذكر الشهادة. يبدو أنه رغم سك عملة جديدة خاصة بملوك بني زيري، استمر تداول الدراهم التي سكّت عهد خلفاء بني حمود بمالقة خلال حكم عبد الله بن بلقين، يؤكد ذلك معاصره المحتسب أبو عبد الله السقطي حين يعادل وزن الأوقية بعشرين درهما فضة إمامية⁴⁸.

تميز النظام المالي بالأندلس عموما، وبمملكتي قرطبة وغرناطة خلال عصر الطوائف ببنية ضعيفة وهشة انعكست على نظامها النقدي. لم يكن الغش في السكة وليد عصر الطوائف، فالمصادر تتحدث عن إجهاض الخلفاء الأمويين لمحاولات العاملين في دور الضرب تزوير العملة، والضرب على أيديهم⁴⁹، وحرصهم الشديد على اتخاذ من يوثق بأمانته وديانته⁵⁰. ولم يقتصر تزيف العملة على مملكتي قرطبة وغرناطة، وإنما شمل ممالك أندلسية أخرى، حيث ترد شهادات عن توخي بعض المتعاملين في التجارة من طليطلة الحذر من الدراهم الزائفة⁵¹.

لقد ساهمت عدة عوامل في انتشار العملة المزورة منها الاقتصادية والسياسية. فعدم إنتاج قرطبة لمعدن الذهب محليا كان سببا رئيسيا في إهمال ابن جهور لسك عملة خاصة به، كما ساهمت القرارات السياسية لهذا الأخير في تدهور الاقتصاد القرطبي تجلّى ذلك في سماحه بتداول عملة رديئة في الأسواق كان من نتائجها المباشرة تدني قيمة النقد على وثرأ الحكام مقابل إفقار الرعية، وفي هذا الصدد يمدنا ابن الحاج⁵² بنازلة حول تدني قيمة النقد عهد ابن جهور مصدره فيها مؤرخ قرطبة ابن حيان الذي يؤكد أنه اختبر النقود بنفسه وتأكد من نقص المعدن الجيد بها، وكان ابن جهور قد فرض على الناس تداول نقود ضربت من طرف صاحب قرمونة عبد العزيز بن إسحاق بن عبد الله⁵³، بأسواق قرطبة. وكان إغراق المعتمد لسوق قرطبة بعملة ناقصة بعد استبدال عملة ابن جهور ناتج عن تدهور الأحوال الاقتصادية والمالية للمملكة نتيجة الضغوط الخارجية لألفونسو السادس

48 - السقطي، في آداب الحسبة، ص. 13.

49 - ابن حيان، المقتبس، تحقيق بيدرو شالميطا، ج. 5، ص. 243 و 486.

50 - ابن يوسف، ضوابط دار السكة، ص. 133.

51 - ابن بشكوال، الصلة، ج. 1، ص. 258.

52 - ابن الحاج، نوازل ابن الحاج، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، رقم 55، ج. 5، ص. 125.

53 - ابن الحاج، نفسه.

وإلحاحه المتكرر والمتزايد على أخذ الجزية، مما اضطر ابن جهور لتسليم الكميات المطلوبة إلى ابن شاليب رسول الملك القشتالي من عيار ناقص⁵⁴. وفي بيت شعري لحسان بن المصيصي⁵⁵ أحد شعراء العصر ما يؤكد استعمال المعتمد وضربه لنوعين من السكة الجيدة والرديئة حين ينشد قائلاً :

فترسله للصفر أصفر عسجدا وإن خالفوا أرسلت أبيض محمدا⁵⁶.

ورغم إنتاج أراضي مملكة غرناطة لمعدن الذهب⁵⁷، فالراجح أن دور الضرب بها لم تنتج عن القاعدة التي أصبحت شائعة بكل الممالك الطائفية، فضربت عملة ناقصة في العيار⁵⁸. ويبدو أنه كان يضرب بغرناطة من النقود ما كان خالصا وما كان مغشوشا أو مخلوطا بمعدن رخيص، شأنها في ذلك شأن مملكة إشبيلية بدليل تصميم الملك القشتالي ألفونسو السادس على أخذ الجزية من "المثاقيل الطيبة"⁵⁹. ولم يكنزوا في الأرض إلا الدينار الجعفرية⁶⁰، التي ضربت من خالص الذهب. وكان مبلغ ستة عشر ألف دينار مرابطية من الأموال التي عزم عبد الله بن بلقين إخفائها عن أعين قرور رسول يوسف بن تاشفين والمكلف بتجريد عبد الله بن بلقين من أملاكه لا شيء إلا لقيمتها النقدية الجيدة، والخالصة الذهب.

ورغم انتشار تداول العملة المزورة بكل الأندلس⁶¹، قبل وصول المرابطين إليها⁶²، فيبدو أنها لم تطرح أي إشكال في التعامل التجاري بالأسواق الأندلسية إلا بعد ظهور العملة المرابطية الجيدة بهذه الأسواق⁶³، مما خلق مشاكل في الصرف. وأمام تداول نماذج العملات المختلفة القيمة بالأسواق،

54 - ابن السماك، العامل، الحلل الموشية، ص. 42.

55 - حسان بن المصيصي، كان كاتباً للفتح ابن المعتمد بن عباد بولايته بقرطبة. ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، ق. 2، م. 1، ص. 435. وابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج. 1، ص. 385.

56 - ابن بسام، المصدر السابق، ص. 248.

57 - ابن يوسف، ضوابط دار السكة، ص. 41.

58 - Prieto, *Los Reyes de Taifas*, p.116.

59 - ابن بلقين، التبيان، ص. 103.

60 - ابن بلقين، المصدر السابق، ص. 143.

61 - ابن الحاج، نوازل الأحكام، ص. 147.

62 - حُلد ذكر التعامل بالعملة الناقصة أو المزورة في شعر الشعراء، ففي قصيدة لأبي بكر بن يحيى بن بقي الذي دخل الأندلس بعد سقوط طليطلة يقول :

لنفسك أكرمني ولا لمعاشر *** إذا انتقدوا وكانوا زيوف الدراهم.

انظر ابن بسام، الذخيرة، ق. 2، م. 2، ص. 627.

63 - ابن رشد، فتاوى، ج. 1، ص. 540. والونشريسي، المعيار، ج. 6، ص. 105-106.

نهى الفقهاء عن مراطة نقود الذهب المرابطية وهي من الذهب الخالص⁶⁴، بالعبادية أو الشرقية⁶⁵، أو مراطة العملة العبادية بالشرقية⁶⁶، لأن الشرقية كانت مشوبة بالنحاس⁶⁷. وكان الرجل منهم يتعرض للخداع أثناء معاملاته التجارية، فلا يتردد في اختبار الدينار بين أسنانه لينظر إن كان ذهب الدينار لينا عليم أنه جيد، وما كان يابس الذهب عليم أنه ردي⁶⁸.

ومن أشكال العملات المتداولة بالأسواق القرطبية والغرناطية، والتي ورد ذكر لها في النوازل⁶⁹، نجد القطاع الثلثية، وهي الدراهم الثلثية المشوبة بالنحاس⁷⁰، فضتها أكثر من القطاع الثمنية⁷¹. والدنانير والدراهم الثلثية⁷² من العملة التي كانت تتداول بغرناطة عهد بني زيري، وإليها يشير عبد الله بن بلقين في مواضع متعددة من مذكراته⁷³. وسمي نصف الدرهم بالقيراط⁷⁴. ولتدني قيمة الدراهم أو القطاع بالممالك الطائفية، أصبحت القراريط اليوسفية أكثر قيمة من القطاع الثلثية والقطاع الثمنية⁷⁵ بفضل فضتها الخالصة.

صفوة القول، إنه رغم ما تميزت به العملات في الممالك الطائفية من خصوصية السكة، ونسبة المعادن الثمينة المتخذة بها، يبقى القاسم المشترك بينها تدني قيمتها النقدية، وما انتشر العملة المنخفضة القيمة بالأسواق القرطبية والغرناطية إلا مظهرا من مظاهر انهيار النظام الاقتصادي بالمملكتين خلال عصر الطوائف.

64 - ابن رشد، المصدر السابق، ج. 2، ص. 907-908. والونشريسي، المصدر السابق، ص. 107.

65 - ابن رشد، المصدر السابق، ج. 1، ص. 572. والونشريسي، المصدر نفسه، ص. 192.

66 - نسبة إلى شرق الأندلس.

67 - ابن رشد، المصدر السابق، والصفحة. والونشريسي، المصدر السابق، والصفحة.

68 - الونشريسي، المصدر السابق، ص. 428.

69 - طرحت أكثر من مسألة على الفقهاء تهم أنواع العملات المتداولة في الأسواق واختلاف قيمة كل واحدة منها عن الأخرى. انظر ابن رشد، فتاوى، ج. 1، ص. 571-572. وج. 2، ص. 932-933.

70 - ابن رشد، المصدر نفسه، ج. 1، ص. 572.

71 - ابن رشد، المصدر نفسه، ص. 571.

72 - ابن رشد، المصدر السابق، ص. 330-331.

73 - ابن بلقين، التبيان، ص. 73 و 87.

74 - المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص. 240.

75 - ابن رشد، فتاوى، ج. 1، ص. 571.

الاستعراب الإسباني في خدمة الأدب الأندلسي

الأستاذ جميل الحمداوي

باحث - الناظور

توطئة :

من المعروف أن الاستعراب الإسباني قد خدم الأدب العربي بالأندلس إلى يومنا هذا خدمة كبرى، ولا يمكن لأي دارس عربي مسلم - بأي حال من الأحوال - إنكار ذلك تحت أي مبرر ذاتي، أو مسوغ علمي، أو رغبة في المناظرة والجدل، أو غض البصر عن تلك الجهود الجبارة التي قام بها كبار المستعربين الإسبان على مر السنين، على الرغم من تحامل الكثير منهم على ذلك الأدب. فقد قام هذا الاستعراب فعلا بجمع المخطوطات الأدبية الأندلسية شعرا ونثرا، وتوثيقها متنا وتدوينا وتحقيقا وأرشفة، وتأريخ معطياتها سياقاً وتحقيقاً ومرجعاً، وترجمتها إلى اللغة الإسبانية في مختلف لهجاتها المتنوعة، ودراستها مضموناً وشكلاً ووظيفة، وذلك من أجل تحديد تطور الأدب الأندلسي، ورصد مجمل خصائصه الدلالية والفنية والجمالية، وتبيان مختلف سياقاته التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية والنفسية والحضارية. زد على ذلك، فقد خصص للأدب الأندلسي بإسبانيا مكتبات عامة وخاصة، ومعاهد متخصصة، وكراس جامعية، كما صدرت صحف ومجلات تعنى بالأدب الأندلسي تأريخاً وتصنيفاً ونقداً وبحثاً.

ويمكن القول بكل موضوعية علمية بأنه لولا الاستعراب الإسباني لما عرفنا الكثير عن الأدب الأندلسي شعرا ونثرا، ولما عرفنا الكثير عن الدواوين الشعرية ومبدعيها المغمورين والمشهورين على حد سواء، ولما كان لدينا إلمام كاف بفن الموشحات والزجل بشكل محكم ومتقن.

إذاً، ما هي الخدمات التي قدمها الاستعراب الإسباني إلى الأدب الأندلسي شعرا ونثرا؟ وما هي أهم المراحل التي قطعها هذا الاستعراب في دراسته للأدب الأندلسي في شتى فنونه وأنواعه وأنماطه؟ ومن هم أهم المستعربين الإسبان الذين اهتموا بالأدب الأندلسي دراسة وبحثاً وتنقيحاً وجمعاً وتوثيقاً ونقداً؟ تلکم هي أهم الأسئلة التي سوف نحاول رصدها في موضوعنا هذا.

1- مراحل الاهتمام بالأدب الأندلسي :

اهتم المستعربون الإسبان بالأدب الأندلسي جمعا وترجمة وتوثيقا وتحقيا وتأريخا وتصنيفا ودراسة ونقدا وتقويما منذ القرن الثالث عشر الميلادي (1227م) مع تأسيس جامعة صلمنكة (Salamanca). ولكن الاهتمام الدقيق والعلمي بهذا الأدب نشأ ودرس وفحصا، لم يتم إلا في القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك مع مجموعة من المستعربين الإسبان المتمكنين من اللغة العربية وآدابها وثقافتها، واستمر ذلك الاهتمام إلى يومنا هذا عبر الدرس الأكاديمي، ومختلف الندوات واللقاءات والمؤتمرات العلمية.

هذا، وقد يكون ذلك الاهتمام راجعا إلى أسباب استعمارية واستشراقية، أو إلى أسباب دينية (التبشير والتنصير)، أو إلى أسباب شخصية ومزاجية، أو إلى أسباب علمية موضوعية تتمثل في جمع التراث الأندلسي والإسباني متنا وترجمة وتوثيقا ودراسة، ورصد مختلف علاقات التأثير والتأثر بين الإنسان العربي المسلم والإنسان الإسباني المسيحي، ورصد مواطن الائتلاف والاختلاف، وتحديد مواطن القوة والضعف في هذه العلاقات ذات الطابع الثقافي والحضاري والإثني والديني.

ومن هنا، فقد بدأ الاهتمام بالأدب الأندلسي بإسبانيا في وقت مبكر، عبر تأسيس كراس جامعية بصلمنكة، وإشبيلية، وبالماء، وليريدا، وبرشلونة، وبلنسية، ومدريد، وغرناطة، وأويدو، ولا لاغونة، وسانتياغو دي كومبوستيلا. ولا ننسى كذلك ما قام به الملك كارلوس الثالث (1716-1788م) حينما وسع المكتبة الملكية، ونظم مكتبة الأسكوريال (Biblioteca del Escorial)، التي كان قد أنشأها الملك فيليبي الثاني سنة 1557م¹. وتضم هذه المكتبة وحدها 1900 مخطوط عربي، وأكثر من 183 مجلد، وقد جمعت هذه الكتب والمخطوطات من بقايا المكتبة الأندلسية الإسلامية بغرناطة، ومكتبة السلطان مولاي زيدان بن أحمد المنصور السعدي، "بعد أن اضطره أبو محلي إلى الفرار بكنوزه وكتبه إلى آسفي، ثم إلى أغادير، حيث رفض الربان إفراغ المركب ما لم يتقاض أجره، وقدره 36.000 فرنك. وغادر المركب أغادير إلى مرسيليا، فاستولى القرصان الإسبان عليه، ولما نمي خبره إلى الملك فيليبي الثاني أمر أن توضع المخطوطات في مكتبة الأسكوريال، وقد بلغت ثلاثة آلاف مخطوط عربي، على ظهر الصفحة الأولى من كل منها عبارة تنص على ملكية السلاطين

1 - نجيب العقيقي : المستشرقون، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة، السنة 1980م، ص: 174.

السعديين إياه. وفي عام 1671م، شب حريق في الإسكوريال التهم جزءا كبيرا من كتبها، ولم ينج من العربية سوى 1900 مخطوط².

هذا، وقد خضعت مخطوطات المكتبة للتجديد، والفهرسة، والتصنيف الموضوعاتي، وذلك من قبل مجموعة من المستعربين المسيحيين، كالماروني اللبناني الأب ميخائيل الغزيري، وهرتويج ديرنبورج، وليفي بروفنسال، والأب موراتا، والدكتور رينو ... علاوة على ذلك، فقد استفاد الطلبة المستعربون الإسبان من المكتبات العامة والخاصة الغنية بمختلف المخطوطات العربية التي لها علاقة وطيدة بالأدب الأندلسي. وبعد ذلك، أنشئت في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين وإلى يومنا هذا معاهد ومدارس ومراكز وأقسام للبحث في الأدب الأندلسي، ودراسة حضارة العرب المسلمين بإسبانيا، وذلك في ضوء مقاربات علمية وأكاديمية متنوعة سواء أكانت كلاسيكية أم حديثة. وأنشئت كذلك متاحف ومطابع ومجلات تهتم بالاستعراب الإسباني في مختلف تجلياته ومظاهره. ومن أهم هذه المجلات، نذكر: مجلة أفريقيا (Africa)، ومجلة الأندلس (Al - Andalus)، ومجلة تمودا (Tamuda)، ومجلة المرأة ...، ونشرت كذلك المجموعات العربية التي تعنى بحضارة الأندلس تأريخا وأدبا وثقافة وفكرا وعقيدة وفلسفة.

2- كيف خدم الاستعراب الإسباني الأدب الأندلسي؟

أسدى الاستعراب الإسباني خدمات جلى للأدب الأندلسي، وذلك عن طريق جمع المخطوطات والمتون الأدبية تحقيقا وتوثيقا وأرشفة. كما قام المستعربون الإسبان بترجمة الأدب الأندلسي إلى اللغة الإسبانية ومختلف لهجاتها المحلية، مع التعريف بهذا الأدب تأريخا وتحقيقا وسياقا، فأردفوه بشرح النصوص الأدبية شعرا ونثرا، ودراستها دلالة وفنا ومقصدية، والعمل على تحقيق الدواوين الشعرية، والتعريف بأعلامها ومبدعيها، دون غرض الطرف عن الخدمات الجبارة التي قام بها هؤلاء المستعربون الإسبان للتعريف بالموشحات الأندلسية، وتقديم أرجال ابن قزمان وغيره من الشعراء ...

كان هذا الاهتمام يتم إجراءاتها وعمليا عن طريق تحقيق المخطوطات، وجمع أمهات المصادر، وفهرستها وتجليدها وتصنيفها، ونشر الكتب المحققة وغير المحققة، وطبعها طبعات عامة ليطلع عليها الجميع. كما تم إثراء الأدب الأندلسي وإغنائه عن طريق نشر المقالات والأبحاث والدراسات في الصحف والمجلات الإسبانية والغربية والعربية والعالمية، أو عبر تدريسه في

2 - نجيب العقيلي: المستشرقون، الجزء الثاني، ص: 175.

مؤسسات جامعية ومعاهد إسبانية قد خصصته بكراس علمية عليا، دون أن ننسى المؤتمرات والندوات واللقاءات التي كانت تعنى بالبحث في الأدب الأندلسي شعرا ونثرا وتأريخا.

3- أهم المستعربين الإسبان الذين درسوا الأدب الأندلسي :

ثمة مجموعة من المستعربين الإسبان الذين خدموا الأدب الأندلسي بشكل من الأشكال، وذلك عن طريق التحقيق العلمي، وجمع المتون، وفحص النصوص، وكذلك عن طريق التحليل، والدراسة، والترجمة، والمقارنة، والتأريخ، والتحقيب، والنقد، والتقويم، والترجيح. ومن بين هؤلاء المستعربين الإسبان، نستحضر الأسماء التالية :

1 - خوان أندريس (Juan Andres) : يعتبر خوان أندريس (1740-1817م) من أوائل المستعربين الإسبان الذين اهتموا بالأدب الأندلسي شعرا ونثرا، وقد ألف في هذا الصدد كتابا تحت عنوان : "الأصول العامة للأدب وتطوره وحالته الراهنة". وقد صنف خوان أندريس هذا الكتاب في منفاه بإيطاليا، بعد أن تم طرده من الكنيسة المسيحية ؛ بسبب آرائه الجريئة المتعلقة بتأثير الأدب الأندلسي على باقي الآداب الغربية.

2 - بسكوال دي جاينانجوس (Pascual de Gayangos) : ولد بسكوال جاينانجوس بإشبيلية سنة 1809م، وتوفي سنة 1897م. وقد كان أمينا للمخطوطات العربية في المكتبة الملكية. ومن أهم اهتماماته بالأدب الأندلسي شعرا ونثرا، أنه نشر قسما كبيرا من كتاب نفح الطيب للمقري متنا وترجمة إنجليزية في مجلدين. وقد نشره بلندن أولا سنة 1840م، فمدير ثانيا سنة 1843م. ونشر كذلك قصيدة محمد، وهي من الشعر الأندلسي في القرن الرابع عشر، ثم ترجمها تنكور. وقد جمع هذا المستعرب مكتبة نفيسة كانت تحوي أكثر من أربعمئة مخطوط، اشتراها مجمع التاريخ من ورثته بعد وفاته في لندن³.

3 - خوان إي باليرا (Juan Y. Valera) : اهتم خوان باليرا (1824-1905م) بالشعر الأندلسي، إذ ترجم إلى اللغة الإسبانية كتاب : شعر العرب وفنهم في إسبانيا وصقلية للمستشرق الألماني أدولف فريدريك فون شاك (Adolf Friedrich Von Schak)، وذلك في ثلاثة أجزاء. وجاء هذا الكتاب ليؤكد فعلا الأثر الجلي للثقافة العربية على الحضارة الأوروبية بصفة عامة والحضارة الإسبانية بصفة خاصة. ومن مترجمات باليرا في هذا الكتاب قصائد الطرطوشي، وقصائد الرندي، وقصائد علي بن سعيد.

3 - انظر : نجيب العقيقي : المستشرقون، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة، سنة 1980م، ص 182.

4 - ليوبولد إجيلاث (L. Eguilaz) : ولد ليوبولد إجيلاث بمرسية سنة 1829م، وقد كان عميدا لكلية الآداب بجامعة غرناطة. ومن أهم مؤلفاته الشعر التاريخي في الغناء ووصف العرب للأندلس، وقد نشر هذا المصنف بمديرية سنة 1864م.

5 - لويس كونزالبو (Luis Gonzalbo) : اهتم لويس كونزالبو بالأدب الأندلسي شعرا ونثرا، ومن أهم أبحاثه القيمة في هذا الصدد دراسته : "الشاعرات المسلمات"، الواردة بمجلة الفهارس بمديرية سنة 1905م.

6 - فرنانديث إي كونزاليث فرانثيسكو (Fernandez Y Gonzales, F) : ركز فرنانديث إي جونثال فرانثيسكو (1833م - ؟)، وذلك ضمن اهتماماته بالأدب الأندلسي، على السرديات الأندلسية عن طريق النشر والدراسة والبحث. فقد نشر على سبيل الخصوص قصة "زياد الكفاني" لمؤلف أندلسي مجهول، اعتمادا على مخطوط في مكتبة الأسكوريال سنة 1882م.

7 - فرانثيسكو كوديرا إي ثايدين (Fr. Codera y Zaidin) : يعد فرانثيسكو كوديرا إي ثايدين أو زايدين (1836-1917م) من كبار المستعربين الإسبان، وهو مؤسس مدرسة الاستعراب الإسبانية الحديثة، وقد تسمى بالشيخ فرنشسكة قدارة زايدين نسبة إلى أصله العربي. ومن أهم أعماله في مجال الأندلسيات : "نهضة الأدب الإسلامي" المنشور سنة 1905م.

8 - مينينديث إي بيلايو (Menendez Y Pelayo) : اهتم مينينديث بيلايو (1856-1912م) بالفلسفة والآداب، ومن أهم كتبه في الأندلسيات، نذكر منتخبات من شعراء الغناء القشتاليين (1890-1906م)، وتاريخ الشعر القشتالي خلال العصر الوسيط، (1890-1908م)، وكتاب أصول القصة الصادر بمديرية سنة 1905م.

9 - ريبيرا إي طاراكو (Ribera Y Tarrago) : اهتم ريبيرا طاراكو (1858-1934م) بالأدب الأندلسي اهتماما لافتا للانتباه، ولاسيما اهتمامه بشعر التروبادور أو شعر المنشدين، فقد أثبت في بحثه عن شعر ابن قزمان بأن الشعر الغنائي الذي عرف بفرنسا باسم الشعراء المتجولين أو الشعراء التروبادور، وانتقل منه إلى ألمانيا، تعود أصوله إلى شعر الزجل الذي انتشر أيما انتشار في التربة الأندلسية⁴.

ومن أهم أعماله القيمة في مجال الأدب الأندلسي : الملاحم الأندلسية الصادرة سنة 1915م بمديرية، وديوان ابن قزمان، وقد نشره بمديرية سنة 1922م، وموسيقى الأندلس والشعراء الجوالون، وقد نشره الباحث بمديرية سنة 1925م.

4 - نجيب العقيلي : المستشرقون، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة سنة 1980م، ص: 94.

10 - ميننديث بيدال (Menendez Pidal) : ولد ميننديث بيدال سنة 1868م بلاكورونة، واهتم بالأدب الأندلسي نشرا وطبعا وبحثا ودراسة وتنقيا وتأريخا. ومن أهم أبحاثه في هذا المجال، نذكر : ملحمة السيد التي نشرت بمديرية سنة 1908م، وكتاب الشعراء المنشدون الصادر سنة 1924م بمديرية، ونشر أيضا مجموعة من قصائد العصر الوسيط بمديرية سنة 1928م، واعتنى كذلك بالمقارنة بين الشعر العربي والشعر الأوروبي.

11 - بونس بويجيس (Pons Boigues) : اهتم بونس بويجيس (1861-1899م) بالأدب الأندلسي حين انضمامه إلى هيئة المحفوظات والمكتبات سنة 1886م. ومن ثم، بدأ في البحث والدرس والنشر، وقد جمع قصة حي بن يقظان، فترجمها إلى اللغة الإسبانية، ونقل إلى هذه اللغة كذلك مقتطفات من قصيدة ابن عبدون التي ترجمها فانيان إلى الفرنسية⁵.

12 - ألماغرو كارديناس (Almagro Cardenas, A) : ولد ألماغرو كارديناس بغرناطة، وعين أستاذا للغة العربية بجامعة صلمنكة. وقد اهتم بأدب العصر الوسيط، فنشر دراسة قيمة عن الشاعر والزجال القرطبي ابن قزمان.

13 - كو نثاليث بالينثيا (Gonzalez Palencia) : كانت لغونثاليث بالينثيا (1889-1949م) عناية خاصة بالأدب الأندلسي، كما يظهر ذلك واضحا في كتابه في تاريخ الأدب العربي الإسباني الصادر سنة 1928م، وقد نقله إلى العربية الدكتور حسين مؤنس بعنوان تاريخ الفكر الأندلسي سنة 1955م، وقد كتب غونثاليث بالينثيا أبحاثا قيمة ودراسات عدة في الاستعراب الأندلسي تأريخا وأدبا وحضارة ولغة وثقافة.

ومن أهم آثاره البارزة أيضا الإسلام والشعراء المنشدون، وقد نشره بمجلة الأندلس سنة 1933م، وترجم قصة حي بن يقظان لابن طفيل إلى اللغة الإسبانية، ونشرها بمديرية سنة 1934م.

14 - الأب كارلوس كيروس (Carlos Quiros, P) : يعد الأب كارلوس كيروس (؟-1960م) من أهم المستعربين الإسبان الذين اهتموا بالأدب الأندلسي شعرا ونثرا، حيث نشر كتابا حول شعراء الأندلس، وقد أصدره بمديرية سنة 1953م.

15 - مياس بايكروسا (Millas Vallicrosa, J. M) : تعددت اختصاصات مياس بايكروسا (1897-1970م)، باعتباره مستعربا إسبانيا موسوعيا، بيد أن تخصصاته العديدة لم تمنعه من الاهتمام

5 - نجيب العقيقي : المستشرقون، الجزء الثاني، ص: 190.

بالأدب الأندلسي في العصر الوسيط، كما يظهر ذلك جليا في كتابه أثر الشعر الإسلامي الإسباني في الشعر الإيطالي، وقد نشره متفرقا في مجلة المكتبات والمتاحف بمدريد ما بين 1920 و1921م.

16 - سيكو دي لوسينا باريديس (Seco De Lucena Paredes) : اهتم سيكو دي لوسينا باريديس (1901-؟)، وذلك ضمن اهتماماته المتعددة، بالأدب الأندلسي في العصر الوسيط، فنشر كتابا عن تاريخ شعر الرومانس، وهو نوع من الشعر العربي الأندلسي انفردت به إسبانيا خصوصا.

17 - إميليو غارثيا غوميث (Emilio Garcia Gomez) : اهتم إميليو غارثيا غوميث (1905-؟) كثيرا بالأدب الأندلسي تأريخا وترجمة وتحقيقا وتعريفا، وقد كان أكثر المستعربين الإسبان تراكما ونشرا في مجال الأدب الأندلسي شعرا ونثرا، حيث اتخذ من مخطوط قديم لابن سعيد أساسا لدراسة الشعر العربي الإسباني، واهتم أيضا برواية عربية، وهي مصدر مشترك لابن طفيل وجراثيان. وجمع منتخبات من الشعر العربي الأندلسي، وترجم إلى الإسبانية أشعار كل من ابن زيدون، وابن عمار، والمعتمد بن عباد، وأبي الفرج الجياني. ونشر كذلك كتاب الإشارة بمحاسن الأندلسيين متنا وترجمة إسبانية، ونشر مراثية الإسلام في الأندلس للشقندي.

كما أن له دراسات عن الخرجات والموشحات، وترجم إلى الإسبانية ديوان أبي إسحق الألبيري، ورسالة الشقندي، وطوق الحمامة لابن حزم، وخمسة شعراء مسلمين. وصنف كتابا تحت عنوان الموجز في تاريخ الشعر العربي الأندلسي، وكتابا عن ابن الزقاق، ومختارات من شعره، متنا وترجمة. ونشر هذا المستعرب كثيرا من الدراسات والمقالات والأبحاث حول الأدب الأندلسي، وخاصة في مجلة الأندلس، ومجلة الدراسات الإسلامية، وحوليات معهد الدراسات الشرقية، ومجلة أرابيكا... وذلك منذ ثلاثينيات القرن العشرين⁶.

ومن أهم كتبه الشعر الأندلسي الذي ترجمه عن الإسبانية الدكتور حسين مؤنس، ويتناول فيه مؤلفه تطور الشعر الأندلسي في عصر الإماراتين وعصر الخلافة، من خلال التركيز على عصر الطوائف، وعصر المرابطين، وعصر الموحيدين، مع تبيان خصائص الشعر الأندلسي الموضوعية والفنية، كتطرق هذا الشعر إلى الخمر، والحب، والجمال، والوصف، والتشبيه، دون نسيان فنون هذا الشعر وأغراضه، والتعرض لشعراء غرب الأندلس ووسطه وشرقه⁷.

6 - انظر : نجيب العقيقي : المستشرقون، الجزء الثاني، ص: 214.

7 - إميليو غارثيا غوميث : الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، ترجمة : الدكتور حسين مؤنس، دار الرشد، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى سنة 2005م.

ولا ننسى كذلك كتابه القيم الذي ترجمه الدكتور الطاهر أحمد مكي تحت عنوان مع شعراء الأندلس والمنتبي : سير ودرسات⁸، وقد تناول فيه إميليو غرسيا غوميث مجموعة من المحاور بالدرس والفحص، مثل : المنتبي شاعر العرب الأكبر، والشاعر الطليق وديوانه، وأبو إسحق الألبيري فقيه إسباني، وابن الزقاق شاعر الطبيعة، وابن قزمان صوت في الشارع، وابن زمرك شاعر الحمراء.

ويتبين لنا بأن إميليو غارثيا غوميث له باع كبير في مجال اللغة العربية وآدابها، وإمام منقطع النظر بالشعر الأندلسي وأحواله السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتاريخية، والأدبية، والثقافية. وفي هذا السياق، يقول الدكتور حسين مؤنس في حقه وفي حق كتابه النفيس : "هذه صفحات عن الشعر الأندلسي، كتبها عالم اجتمعت له خصائص أربع تجعله أجدر الناس بفهم هذا الشعر والقول فيه : أولاها علم واسع باللغة العربية، وتمكن نادر من أصولها وخصائصها وتاريخها ؛ وثانيها إحساس شعري صادق وإدراك فني دقيق، فهو شاعر يقول الشعر في لغته الإسبانية، وناقد قادر على الحكم على الشعر والنثر ؛ وثالثها منهج علمي دقيق اكتمل له بطول الدرس والبحث ؛ ورابعها أفق رحيب، وثقافة إنسانية واسعة. ومن ثم، فلا غرابة أن يكون هذا البحث - على صغر حجمه - من أحسن ما كتب عن ناحية من نواحي الأدب العربي في اللغة العربية أو غيرها من اللغات ... إن هذا البحث يعتبر اليوم أوسع الدراسات - التي تمت في ميدان الأدب العربي - انتشارا بين أيدي الناس في شتى البلاد."⁹

وما يميز إميليو غوميث أنه من المستعربين الأندلسيين الأوائل الذين اهتموا بتاريخ الأدب الأندلسي في شتى مراحل التطورية، ومن أهم النقاد البارزين الذين تمكنوا من رصد خصائص الشعر الأندلسي شكلا ومضمونا، ويعد كذلك من أهم الدارسين الإسبان الذين اهتموا بالمختارات الشعرية الأندلسية، حيث جمع أشعار المبدعين والشعراء الأندلسيين المغمورين والمعروفين على حد سواء.

18 - بيربينا أنريكة (Perpina Enrique) : اهتم بيربينا أنريكة (1911م-؟) بالأدب الأندلسي في العصر الوسيط، حيث ألف عدة كتب وأبحاث ودراسات في هذا المجال، ومنها شعراء أوروبا

8 - إميليو غرسيا غوميث : مع شعراء الأندلس والمنتبي، سير ودراسات، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية 1978م.

9 - الدكتور حسين مؤنس : (تقديم) كتاب : الشعر الأندلسي، بحث في تطوره وخصائصه، دار الرشاد، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى سنة 2005م.

والشعر العربي، وقد نشر هذا البحث بمجلة الأندلس سنة 1953م، ونشر كذلك رسالته في الدكتوراه تحت عنوان القصيدة النونية للقرطاجني.

19 - تيريس سادابا (Teres Sadaba) : ألف تيريس سادابا (1915م-؟) دراسات وأبحاثا في الأدب الأندلسي في العصر الوسيط، ومن أهم هذه الكتب الأدب الأندلسي الذي نشره بمديرية سنة 1952م.

20 - الأب كابانيلاس رودريغيث الفرنسيكاني (Cabancelas Rodriques, F) : من المعلوم أن الأب كابانيلكلاس رودريغيث (1916م-؟) متعدد التخصصات، وعلى الرغم من ذلك، فقد اهتم بالأدب الأندلسي في العصر الوسيط كما في دراسته القيمة عن ابن قزمان سنة 1973م.

21 - فريديريكو كورينتي (Frederico Coriente) : يعد فريديريكو كورينتي (1940م-؟) من أهم الدارسين والمستعربين الإسبان الذين اهتموا بالأدب الأندلسي بحثا وتنقيا ودراسة وتأريخا، فقد كان أستاذا للغة العربية في جامعة مدريد (1972-1976م)، وأستاذ كرسي اللغة العربية وآدابها في جامعة سرقسطة منذ سنة 1976م. ومن أهم أعماله القيمة في حقل الدراسات الأدبية الأندلسية كتابه ابن قزمان، وحبه للشعر، وقد نشر بإسبانيا سنة 1974م.

22 - فرنسيسكو دي لاجرانخا (Francesco De La Granja) : اهتم دي لاجرانخا بالأدب الأندلسي في العصر الوسيط، حيث نشر في مجلة الأندلس سنة 1953م بحثا بعنوان دراسات عن الشعر العربي في الأندلس، ومقامة الطاعون سنة 1958م، ونشر مقتطفات من أبي حفص عمر بن الشهيد سنة 1960م، وأحمد بن برد الأشجر وابن الخطيب ما بين 1961 و1962م، وابن غارسية القاضي سنة 1965م. كما نشر ثلاث قصص إسبانية من أصل عربي سنة 1968م، وأدب عربي أندلسي سنة 1967م...

23 - مارين مارسكوس (Marin Marscos) : اهتم مارين مارسكوس (1946م-؟) بدراسة الشعر الملحمي والأزجال والموشحات الأندلسية، وقد انصب اهتمامه بالخصوص على آثار العنصر العربي في الملحمة الإسبانية، كما يتجلى ذلك واضحا في كتابه العرب والشعر الملحمي، وقد نشر هذا الكتاب في مونتريال بكندا سنة 1970م. ومن أهم كتبه أيضا في الأدب الأندلسي، نذكر ضمير الفاعل المتكلم في الخرجات الصادر بمديرية سنة 1970م، وأوزان الفعل في خرجات الموشحات العربية، وقد تم نشره سنة 1970م، وله مقال قيم عن ابن قزمان، وقد نشر في المجلة الغربية في عددها : 118 عام 1973م.

24 - ماريّا خيسوس روبيرا متى (M. Jesus Rubeiera Mata) : اهتمت ماريّا خيسوس روبيرا متى بالأدب الأندلسي شعرا ونثرا، ونشرت في هذا السياق دراسات قيمة وكتبا عدة. ومن أهم آثارها ابن الجياب الشاعر الآخر لقصر الحمراء، وكتبت دراسة عن ابن عباد وترجمة لأشعاره التي جمعها رضا السويسي، ونشرتها بمديرية سنة 1982م. وكتبت دراسة أخرى عن الشعر النسائي في الأندلس، ونشرتها بمديرية عام 1987م، وخصصت عصر الطوائف بدراسة شملت الحكام والأدباء والشعراء، ونشر هذا الكتاب بمديرية سنة 1988م. كما نشرت بحثا بعنوان شعر المعشرات في المدائح النبوية سنة 1980م، وكتبت بحثا عن الشاعر ابن اللبانة الداني ورحلته إلى ميورقة سنة 1983م. وتناولت هذه المستعربة الإسبانية كذلك البناء الملحمي لإحدى حكايات فتح الأندلس، واهتمت بلغة الخرجات الرومانشية. ومن أهم كتبها المترجمة إلى اللغة العربية الأدب الأندلسي، وقد أشرف عليه الدكتور أشرف علي دعدور ترجمة وتقديم¹⁰.

25 - خيبرت سوليداد (Gibert Soledad) : اهتمت المستعربة الإسبانية خيبرت سوليداد بالأدب الأندلسي في العصر الوسيط، كما يظهر ذلك واضحا من خلال منشوراتها، مثل الشعر العربي الغرناطي وديوان من القرن 14، وقد نشر هذا الكتاب بالأندلس سنة 1968م، والشعر الأندلسي ولاسيما في ألمرية، وغيرها من المؤلفات والدراسات الأخرى.

3- الاستعراب الإسباني في قفص الاتهام :

إذا كان هناك مجموعة من المستعربين قد تحاملوا كثيرا على الأدب الأندلسي بشكل من الأشكال، فإن ثمة مستعربين آخرين كانوا موضوعيين في تعاملهم مع الكثير من القضايا والظواهر الأدبية الأندلسية، مثل المستعرب اليسوعي الإسباني خوان أندريس (Juan Andrés) الذي اعترف بأثر الثقافة العربية الإسلامية على الثقافة الأوروبية بصفة عامة والثقافة الإسبانية بصفة خاصة ؛ وقد أدى هذا الرأي إلى فصله من الجماعة اليسوعية، والحكم عليه بالطرد والتغريب عن وطنه سنة 1767م.

وأتاح له هذا النفي بإيطاليا أن يعكف على تأليف كتابه الموسوم بأصول الأدب عامة وتطورات وحالته الراهنة، وصدر له في سبعة أجزاء في بالرم ما بين سنتي (1782-1798م)، ثم ترجم إلى اللغة الإسبانية سنة 1806م بعنوان Origin, Progresos y estado actual de toda literatura¹¹.

10 - ماريّا خيسوس روبيرا متى : الأدب الأندلسي، ترجمة : أشرف علي دعدور، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى 1999م.

11 - د. مصطفى الغديري : "نظرية المستشرقين في أصول الموشحات الأندلسية عرض ونقد"، ندوة البحث في التراث الغرناطي : حصيلة وآفاق، منشورات كلية الآداب، وجدة، المغرب، 1988م، ص: 15.

هذا، وقد توصل الباحث إلى أن الشعر الإسباني قد تأثر في بداياته الأولى بشعر العرب. ثم، انتقل هذا التأثير إلى باقي دول أوروبا عن طريق الرحلات المتبادلة بين الإسبان والفرنسيين.

وهناك أيضا المستعربة الإسبانية خيسوس روبيرا متى التي دافعت كثيرا عن العرب المسلمين في مدى إثرانهم للحضارة الغربية بصفة عامة والحضارة الإسبانية بصفة خاصة. وشكلت هذه المستعربة استثناء في حركة الاستعراب الإسباني الذي جنى كثيرا على الأدب الأندلسي بصفة خاصة والأدب العربي بصفة عامة، حيث فقد هذا الاستعراب الثقافي في كثير من الأحيان موضوعيته العلمية ومصادقته الأكاديمية. وفي هذا الصدد، يقول الدكتور أشرف علي دعدور مترجم كتاب الأدب الأندلسي في حق هذه المستعربة: "ومؤلفة هذا الكتاب إحدى هذه الاستثناءات المشرقة، والتي عنيت بدراسة الأدب والحضارة الأندلسية التي لم يعد ينظر إليها على أنها وافدة على إسبانيا، جاءت مع مستعمر عربي أو مسلم، وإنما باعتبارها تراثا حضاريا لإسبانيا الإسلامية، وبناء شامخا ساهم الإسبان الأجداد في بنائه، وهم ينتمون إلى هؤلاء الأجداد من العرب والمسلمين، وتصحح ما انطبع في خيال الغرب عنهم، فتقول: إن الحديث عن الخمول والشهوانية المشرقية المستعربة والمتهتكة تشكل فقط جانبا من تخیلاتنا الخاصة، فالأدب العربي في العصر الوسيط هو نتاج أو عمل لرجال الدين بما تحمله الكلمة من معنى يجعلهم في مصاف الأدباء في العصر الوسيط، دون أن تحمل إشارات للنظام الديني الكهنوتي"¹².

ومن جهة أخرى، نرى كثيرا من المستعربين الإسبان قد تحاملوا على الأدب الأندلسي انتقاصا وازدراء واحتقارا، كما فعل خوليان ريبيرا (Julian Ribera) الذي صرح بأن الموشحات الأندلسية مستمدة من أصول إسبانية رومانية لوجود مقاطع شعبية في بعض الخرجات. ويعني هذا أن مصدر الموشحات الأندلسية هو الشعر الغنائي الشعبي الإسباني¹³. وقد أيدته في هذا الطرح المستعرب الإسباني رامون مينينديث بيدال الذي رأى بأن أصل الموشح أعجمي ليس إلا. والدليل على ذلك استعمال نظام الأقفال والأغصان والأبيات والخرجات، وتذكرنا هذه الطريقة بنظام المقاطع (Strophes) الموجودة في الشعر الغربي. في حين، لم يعرف الشعر العربي، وذلك على مستوى البناء، سوى القصيدة الموحدة رويا وقافية ووزنا¹⁴.

12 - الدكتور أشرف علي دعدور: (مقدمة المترجم)، الأدب الأندلسي، لماريا خيسوس روبيرا متى، ص: 4.

13 - شارل بيلا: "الموشح والزجل"، مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض، المجلد الأول سنة 1390هـ/1970م، ص: 45.

14 - Ramón Menéndez Pidal: *Poesía árabe y poesía europea*, 1er ed. Madrid 1941. P. 52- 76.

استنتاج :

وهكذا، يتبين لنا بأن الاستعراب الإسباني قد اهتم بالأدب الأندلسي بحثاً وتوثيقاً وجمعاً وتحقيقاً ودراسة وتاريخاً منذ فترة مبكرة، وذلك بعد سقوط الأندلس مباشرة، وهناك من يجعلها قبل ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي. بيد أن الاهتمام بهذا الأدب بشكل فعلي وعلمي وأكاديمي سيمتد من القرن التاسع عشر الميلادي إلى يومنا هذا. لكن ما يلاحظ على الاستعراب الإسباني تأرجحه بين الذاتية والموضوعية. ومهما تعددت هنات هذا الاستعراب من النواحي العلمية والتاريخية، ومهما كثرت أخطاؤه المعرفية والمنهجية، فإن الاستعراب الإسباني قد قدم خدمات جلي للأدب الأندلسي، وذلك عن طريق جمع المخطوطات العربية، والحفاظ عليها، وفهرستها، وتصنيفها، وتحقيق متونها، وتوثيقها توثيقاً علمياً، ودراستها في ضوء مقاربات تاريخية وفنية وببليوغرافية ومرجعية ونصية. ومن هنا، فقد عرف الاستعراب الإسباني الأدب الأندلسي تعريفاً علمياً شاملاً وموسوعياً، شعراً ونثراً، من خلال التركيز على استقراء أجناسه، واستقصاء فنونه، واستعراض أنواعه، وتحليل أنماطه الفنية والجمالية.

قراءات

الصحراء المغربية من خلال بعض الدراسات

التاريخية : دراسة الأستاذ روبير ريزيت (Robert REZETTE) نموذجاً

الأستاذ محمد حمام
كلية الآداب - الرباط

في خضم الجدل القائم في بداية السبعينات من القرن الماضي حول استرجاع الصحراء المغربية إلى حظيرة الوطن الأم المغرب الأقصى (المملكة المغربية)، صدرت بعض الأبحاث والدراسات التي تناولت هذا الموضوع في أبعاده الجغرافية والتاريخية والسياسية والقانونية. ولعل أبرزها مؤلف الباحث القانوني الفرنسي روبير ريزيت (Robert REZETTE) الذي يحمل عنوان : «Le Sahara Occidental et les frontières marocaines»¹ ، بباريس سنة 1975 عن المطابع اللاتينية.

وللعلم قد أصدر هذا الباحث كتاباً آخر حول الأحزاب السياسية المغربية سنة 1955، وهو من المراجع الهامة في معرفة تاريخ الأحزاب السياسية في المغرب المعاصر، وسنة بعد صدور كتابه حول الصحراء المغربية أصدر الأستاذ عبد الله العروي هو الآخر كتاباً في نفس الموضوع باللغة الفرنسية تحت عنوان : L'Algérie et le Sahara marocain² عن مطابع النجاح الجديدة بالدار البيضاء (1976)، وفي سنة 1982 انضاف إليهما كتاب آخر في الموضوع ذاته باللغة الفرنسية للمرحوم الأستاذ علي يعتة بعنوان : "الصحراء الغربية المغربية من خلال النصوص (1973-1975)، عن مطبوعات جريدة البيان. وكما يدل عليه عنوانه فهو مجموعة من النصوص والمستندات التاريخية والتحقيقات الصحفية التي لا تخفى أهميتها، أما بالنسبة لمؤلف الأستاذ عبد الله العروي السالف الذكر فيتناول أهمية الحقوق التاريخية والقانونية للمغرب في صحرائه مذكراً أن الوحدة الترابية لم تستكمل بعد حصول المغرب على الاستقلال. وأن للمغرب حدوداً تقرها الاتفاقيات الدولية قبل الحماية وأن الاستعمار لا يلغيها، وبالتالي فإن كل جزء من ترابه يوجد داخل هذه الحدود ولم تُسترجع أثناء

1 - الصحراء الغربية والحدود المغربية.

2 - الجزائر والصحراء المغربية.

الاستقلال فيجب على القوة الاستعمارية التي تديره أن تعيده إلى المغرب وذلك في إطار محادثات ثنائية. وأن اللجوء إلى الأمم المتحدة هدفه ممارسة الضغط على الطرف الآخر للتفاوض، كما لم يفته تحليل مغزى المسيرة الخضراء التي نظمها المغرب إثر صدور قرار محكمة العدل الدولية بلاهاي القاضي بوجود قاعدة شرعية في الحق الذي كان يطالب به المغرب، مما شكل دعامة قانونية قوية استند عليها المغرب للدخول إلى صحرائه بطريقة سلمية، فجاءت المسيرة الخضراء معبرة عن إرادة شعبية راسخة قل نظيرها، فحطمت الحدود المصطنعة مع جزء لا يتجزأ من أراضيها. وتطرق أيضاً إلى دور الأمم المتحدة ومناورات الجزائر داخل أروقتها، مبينا مغالطات الدعاية الجزائرية وتناقضات سياستها الخارجية المعادية للوحدة الترابية للمغرب، وقد أنهى الأستاذ عبد الله العروي كتابه ببعض الخلاصات من مجملتها أن مشكل الصحراء المغربية كان سببه تعنت إسبانيا التي لم تسلم الأرض إلى أصحابها الشرعيين المغاربة سنة 1956، وباستقلال الجزائر سنة 1962 تغير الوضع السياسي المغربي فحشرت الجزائر أنفها في قضية الصحراء من منطلق حسابات ضيقة جداً لا تخدم مصلحتها ولا مصلحة المغرب ولا مصالح الأطراف المغربية الأخرى. وعلى النقيض من ذلك فدفاع المغرب عن صحرائه هو في نفس الآن دفاع عن مصلحة الشعوب المغربية كلها. ويرى الأستاذ عبد الله العروي أن استرجاع المغرب لصحرائه خلق مغرباً جديداً مما يفرض عليه رفع تحديات جديدة في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية وبناء علاقات دبلوماسية متينة مع شركائه القاريين وغيرهم، وأن على الجزائر أن تتخلى عن سياسة الهيمنة تجاه المغرب لما فيه مصلحتها المشتركة ومصلحة الشعب المغربية كافة.

غير أن كتاب الأستاذ ريزيت (R. REZETTE) المومل إليه أعلاه، أثار انتباهي لما يحتويه من معطيات تاريخية وسياسية واقتصادية وقانونية بالغة الأهمية حلّلتها تحليلاً دقيقاً ورصيناً. يمكن الرجوع إليه في بحث يتوخى معرفة الارتباط التاريخي المتين الذي كان للمغرب مع أقاليمه الصحراوية قبل احتلالها من طرف الاستعمارين الفرنسي والإسباني في بداية القرن العشرين.

يقع الكتاب من حيث الشكل في 188 صفحة من الحجم المتوسط تتوزع على قسمين متباينين تذيّلها خاتمة، كما يحتوي على أربع خرائط، ثلاث منها خاصة بالصحراء المغربية وأقسامها المصطنعة من طرف فرنسا وإسبانيا، أما الرابعة فتتعلق بالخريطة الملحققة بالاتفاقية الفرنسية الإسبانية المبرمة يوم 27 يونيو 1900 بباريس المبينة للأراضي الصحراوية التي آلت إلى سيطرة كل منهما.

أشار في تقديمه لمؤلفه إلى أن قضية الصحراء المغربية التي لا تزال تحت نير الاستعمار الإسباني إبان صدور كتابه أسالت لعاب الدول المجاورة والقوة المحتلة بعد اكتشاف مناجم الفوسفات في نهاية العقد السابع من القرن العشرين في هذه المنطقة التي لم يتوان المغرب لحظة في المطالبة بسيادته عليها منذ الاستقلال. وأضاف أن كتابه جاء ليبيّن أن للمغرب حقوقاً سيادية وتاريخية ليس فقط في الصحراء الغربية وإنما أيضاً في موريطانيا وفي المناطق الحدودية مع الجزائر (أي ما يسمى بالصحراء الشرقية)، وبالتالي فإن هذه المناطق كانت دوماً تحت التأطير السياسي والاقتصادي والديني للمغرب.

وإنه من السخرية بمكان خلق كيان في منطقة لم تتوقف يوماً ما عن الارتباط بالمغرب الذي هو دولة عريقة أركانها ثابتة وذات بنية عصرية، وأنه مستعد لاسترجاع منطقة ظلت دوماً مرتبطة به أيما ارتباط. ذلك أن المعطيات الجغرافية والتاريخية تبين أن الصحراء المستعمرة من قبل إسبانيا هي من شمالها إلى جنوبها امتداد للمجال الجغرافي والتاريخي المغربي، مضافاً أن حقوق المغرب في الصحراء لها طابع موضوعي يتراءى من خلال المعطيات البشرية والتاريخية المميّزة لهذه المنطقة.

قبل الدخول في الحديث عن الروابط التي تربط الصحراء المغربية بالمغرب خصص المؤلف فصلاً درس فيه المعطيات الطبيعية والبشرية المميزة للصحراء المغربية التي كانت تحت إسبانيا مشيراً إلى كونها تتكون من منطقتين متباينتين : الساقية الحمراء ووادي الذهب. ملاحظاً أنها امتداد لباقي الأراضي المغربية إلى حدود السنغال وإفريقيا السوداء. كانت تعيش بهما 60.000 نسمة ؛ 45.000 نسمة بالساقية الحمراء و 15.000 بوادي الذهب. إن الوسط الطبيعي والبشري، كما هو الشأن بالنسبة للمرجعيات التاريخية تؤكد على العديد من الروابط التي تربط الصحراء المستعمرة من طرف إسبانيا بما سماه "بالمجال المغناطيسي أو الجذاب للمغرب «Champ magnétique du Maroc». فلا وجود لمجال آخر غير هذا إلى أن نصل إلى جنوب الصحراء الذي نجد فيه مجالاً آخر هو مجال إفريقيا السوداء ذي وسط طبيعي آخر وذو حضارة أخرى.

المميزات الطبيعية للمنطقة :

وهكذا استطرد ريزيت (R.REZETTE) القول في المميزات الطبيعية للصحراء من مناخ وتضاريس ومؤهلات اقتصادية.

تغطي المناطق المسترجعة من قبل المغرب سنة 1958 ما يساوي 25.000 كلم² أما الساقية الحمراء التي هي امتداد لها فتغطي مساحة 82.000 كلم².

فالساقية الحمراء كما يدل عليها اسمها هي عبارة عن واد يفيض تارة ويجف تارة أخرى وقليلاً ما يصب في المحيط ولا يمر إلى القفر إلا في وادي الذهب الذي يغطي 182.000 كلم². ويرى أن الحدود الموجودة بين هذه المنطقة وموريطانيا هي حدود مصطنعة لعدم وجود حدود طبيعية بينهما.

تتكون المنطقة الممتدة من وادي درعة إلى كتلة زمور مروراً بالساقية الحمراء من نفس البنية الجيومورفولوجية التي تسمى الحمادة : تتخللها منخفضات مالحة لكن منحدراتها لا تخلو من أشجار العُنب (Jujubier) والسنت (ACACIA) والصمغ (Gommier)، وكتلة زمور هي امتداد للحمادة. ومن تلاها الكرانيتية ذات اللون الأحمر والأسود ينبع وادي الساقية الحمراء نسبة للون مائه الذي يكون أحمر بسبب لون الأتربة الحمراء التي يحملها أثناء الفيضان، ويصب في البحر على بعد 620 كلم.

أما وادي الذهب فهو منطقة سهوب رملية، كتبناها متغيرة ألوانها وأشكالها بفعل الأعاصير التي تهب على المنطقة على مدى ثمانية أشهر. ويمدّد هذه السهوب نحو الداخل شريطٌ يسمى تيرس (TIRIS) تغطيه الأعشاب بعد مرور التساقطات وتكثر فيه الطرائد مما يجعله مكاناً مفضلاً لقنص الأرانب والنعام والغزلان، وتجثم على جنوب وادي الذهب كتلة جبلية بازالتية تسمى أدرار سطوف (Adrar Soutouf).

وما تنبغي الإشارة إليه هو أنه ليس هناك قطعة بين ما سمي بالمغرب "النافع" والمغرب شبه الصحراوي، ذلك أن المواصلات بينهما عديدة وسهلة نسبياً.

فالتواصل قائم بين النجود العليا بالمغرب الشرقي والمغرب شبه الصحراوي عبر سهل تاملت (Tamlat) الواقع بين سلسلة الأطلس الصحراوي والمرتفع المتجه نحو غرب الشرق ذي البنية الحجرية القديمة.

أما المغرب الأطلسي فيتم المرور منه إلى الجنوب المغربي بسهولة عبر طرق ومسالك عابرة للأطلس الكبير : تيزي أوماشو وتيزي نتاست (ما بين الحوز ومراكش)، تيزي تيشكا بين الحوز ومنخفض وزراوات، وتيزي نتلغت بين ملوية العليا وتافيلالت.

أما أبواب الصحراء فهي عديدة ومطربة، يتم التنقل بسرعة من سوس أو من ورزازات إلى الحمادة وصولاً إلى موريطانيا مروراً بالهضاب الصخرية القديمة بمنطقة إيفني، أو عبر ممرات وادي درعة مروراً بالأطلس الصغير وممرات جبل باني.

ورسم الباحث صورة واضحة عن الإمكانيات الفلاحية مسجلاً ضعف مروديتها. كما رصد إمكانياتها المتعلقة بتربية المواشي من جمال وأغنام ملاحظاً أن ماشية الصحراء كانت في تناقص بسبب الجفاف، لذا كان الرعاة دوماً في تنقل مستمر بحثاً عن الأماكن الرطبة وعن نقط الماء.

وحينما تطورت وسائل النقل البحري والجوي والبري فقدت تجارة القوافل الصحراوية أهميتها. غير أنها لم تختف تماماً لأن الرحل هم في حاجة إليها. وتعتبر مدينة كلميم أكبر سوق للجمال في الصحراء على الطريق الرابط بين تيندوف وأطار في موريطانيا، وأطار سوق كان يقصده تجار من السنغال ومالي. وهذان السوقان هما بمثابة مينائي استقطاب لتجارة الصحراء. فالقوافل القادمة من كلميم وتندوف إلى أطار كانت تحمل معها السكر والشاي، والقماش والزراي، والسلاح والملح، وفي رجوعها من أطار نحو الشمال كانت تحمل معها صوف أدرار. ويستغرق السفر ذهاباً وإياباً عبر هذا الخط مدة شهرين. وهو أقل قصراً وأكثر سهولة من السفر بين تيندوف وتومبوكتو الذي يستغرق على الأقل ثلاثة شهور. غير أن الطريق بين كلميم وأطار مروراً بالسمارة يظل الطريق المفضل والأكثر سهولة من الطرق الصحراوية الداخلية نظراً لقساوة المناخ وتباعد نقط الماء فيما بينها تباعد يصل إلى 300 أو 400 كلم أي مسيرة عشرة أيام للجمال المثلث بالبضائع.

ويتميز مناخ الصحراء بقلة التساقطات وتباينها حسب الجهات فتتراوح من الشمال إلى جنوب موريطانيا ما بين 50 إلى 200 ملم سنوياً، في حين لا تتعدى تلك النسبة شقاً 30 ملم، أما في تَنَزُّوْفَتْ فتقل عن عشرة ملمترات. غير أن قساوة مناخ الصحراء تحد منه التأثيرات البحرية في المناطق الساحلية. وكلما ابتعدنا من الساحل نحو الداخل ترتفع الحرارة على أن تصل في بعض الأحيان إلى 65 درجة في وسط النهار وتراجع إلى صفر درجة في منتصف الليل كما هو الحال في منطقة تيريس.

السكان :

أفادت الإحصائيات الرسمية الإسبانية أن سكان الصحراء المغربية في سنة 1970 يشكلون ما تعدده 60.000 نسمة تضاف إليهم 16000 أوروبي، أي بكثافة سكانية تصل إلى 0,225 نسمة في كلم².

وينقسم السكان من غير الأوروبيين إلى ثلاث مجموعات إثنية تتعايش في هذه المنطقة.

أ - مجموعة قبيلة تكنة المقدّر عددهم ب 50.000 نسمة موزعين على 12 قبيلة أمازيغية وعربية. وهذه المجموعة تنتشر في منطقة إيفني والأطلس الصغير والساقية الحمراء. يمارس بعضهم حياة النجعة والترحال إلى حدود الداخلة، لهم مواش وأنعام من الماعز والجمال. يزرعون الشعير، ولهم أشجار نخيل وزيتون، ويستغلون السبخات المالحة بطانطان وتندوف. وهم الذين يساهمون بشكل كبير في تنشيط تجارة القوافل انطلاقاً من كلميم.

ب - وفي الجنوب والوسط وشرق وادي الذهب وفي المناطق المصاحبة لموريطانيا وفي الصحراء الشرقية تنتشر قبيلة الركنيات الذين يتعاطون للترحال. وقدّر عددهم سنة 1970 بما بين 15 و 20 ألف نسمة. ويعرفون "بالرجال الزرق"، يحبون منطقة تيريس الصعبة معية جمال تتحمل العطش 15 يوماً. يرتادون كلميم للتبضع.

ج - المجموعة الثالثة تتكون من الموريين (Maures) ينتشرون في جنوب وادي الذهب وفي موريطانيا : 30.000 نسمة منهم في وادي الذهب و 800.000 نسمة في موريطانيا، وهم خليط من الأمازيغ والعرب والزنوج، لهم مستوى ثقافي وفكري متطور.

ويُوجد أيضاً في الصحراء المغربية زنوج يحرثون الواحات لصالح القبائل الأمازيغية والعربية : منهم عبيد محررون وغير محررين، وهؤلاء الزنوج تم استقدامهم من السنغال ومن باقي مناطق إفريقيا الغربية وانضافوا إلى بقايا السكان السود الأكثر قدماً.

ولاستكمال هذا العرض السكاني لا بد من الحديث عن الفلاليين الذين هاجروا من تافيلالت واستقروا خاصة في رأس بوجدور وأصبحوا نخبة متخصصة في التعليم. وإثنا هم قرييون من الموريين (Maures).

ويتحدث سكان الصحراء الغربية المغربية باللغة الحسانية التي هي لسان قريب من اللغة العربية الفصحى. وبفعل احتكاك القبائل العربية والأمازيغية تداخلت الحسانية مع اللغة الأمازيغية إلى درجة أن نسبة الكلمات الأمازيغية أو المعربة هي أكثر قوة في قبيلة تكنة حيث قدرت تلك النسبة ب 35% بينما لا تتجاوز 17% عند القبائل الأخرى. وبصفة عامة فإن الأمازيغية تاشلحيت هي المنتشرة بشكل أوسع في الصحراء المغربية.

وما يستخلص من الصورة الواضحة التي رسمها روبير ريزيت (Robert REZETTE) عن السكان هو وجود الترابط الوثيق والانصهار العميق بين سكان الصحراء المغربية عرباً كانوا أو أمازيغ وسكان باقي جهات المغرب.

ومن الناحية السياسية لاحظ المؤلف أنه بالرغم من المحاولات التي قامت بها إسبانيا أثناء استعمارها للصحراء المغربية لتغيير بنيتها القبلية بما يخدم مصالحها الاستعمارية، فإن محاولاتها باءت بالفشل، إذ ظل الصحراويون محافظين على تقاليدهم في تسيير أنفسهم ضمن مجموعات يسيرها زعماء يشكلون "جماعة القبيلة" التي تقوم بتعيين شيخ لها، وجماعة القبيلة كانت لها صلاحيات التشريع والتنفيذ والقضاء. وهكذا ظل الصحراويون بعيدون عن إسبانيا رافضين أية سلطة خارجية. ولم تكن لديهم الحاجة أيضاً إلى إطار آخر أوسع من الإطار القبلي الذي هو الإطار المناسب لحياة الصحراء.

وفي نهاية التحليل يخلص المؤلف إلى أن اكتشاف الفوسفات في الصحراء المغربية في العقد السابع من القرن الماضي وبداية استغلاله من طرف إسبانيا سنة 1972 هو الذي أخرج ملف قضية استعمار إسبانيا للصحراء المغربية من النسيان وإبرازها على مسرح الأحداث الدولية.

وبسيطرتها على هذه الثروة، فإن إسبانيا تريد أن تعيد تجربة دول الخليج التي كانت الشركات العالمية الكبرى وراء وجودها. لكن المعطيات الجغرافية والبشرية السالفة الذكر تبرهن أن الصحراء الغربية هي امتداد للمغرب.

التطور التاريخي :

في هذا الجانب رصد ريزيت (R. REZETTE) التطورات السياسية والاقتصادية والثقافية الهامة التي شهدتها تاريخ المغرب منذ الرومان إلى حين استعمارها سنة 1912 مروراً بالفترة الإسلامية الأولى والمرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين والعلويين متوقفاً في كل فترة من هذه الفترات لإظهار الروابط والصلات القوية التي كانت تربط الصحراء المغربية بشمال المغرب وأن سلطة المغرب المادية والروحية ثابتة فيها باستمرار إلى حين احتلالها من طرف إسبانيا وفرنسا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

هذا، وللدلالة على شساعة أراضي المغرب التاريخية وقوته السياسية والاقتصادية والعسكرية، أشار إلى أن المغرب كان قد أدمج ضمن كيانه السياسي مجموعات أخرى مثل

الأندلس والمغربين الأوسط والأدنى إلى جانب الصحراء الكبرى وذلك خلال فترات من تاريخه العريق. كما لاحظ أن المغرب ببسطه لسيادته على الصحراء إلى تخوم بلاد السودان خلق توازناً جديداً في كيانه أدى إلى نقل العاصمة من فاس إلى مراكش. كما أن سيادة المغرب على الصحراء لم تكن سياسية ودينية فحسب، بل انبنت أيضاً على قاعدة اقتصادية قوامها التحكم في مصادر ومنافذ تجارة القوافل الصحراوية التي بفضلها كان المغرب قوة يحسب لها حسابها في المجال المتوسطي لفترة طويلة. وذكر في هذا الصدد على سبيل المثال لا الحصر أن دينار الذهب المرباطي «Marabotin» ظل لفترة لا يستهان بها عملة التداول الوحيدة في إبرام الصفقات التجارية في غرب البحر الأبيض المتوسط.

بيد أن هذا المغرب الشاسع الزاهر تعرض للتمزيق بشكل متوال منذ القرن الخامس عشر إلى بداية القرن العشرين بفعل ضربات الإيبيريين وغيرهم الذين ازدادت ضغوطهم عليه في نهاية القرن التاسع عشر وأدى ذلك إلى احتلال جميع أراضيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً في بداية القرن العشرين.

وفصل ريزيت (R. REZETTE) القول في التدخل الأوروبي في أراضي المغرب منذ حركة الاسترداد مسجلاً أن المغرب قاوم ذلك التدخل بشدة فاستطاع الصمود لمدة طويلة وأن علاقاته مع صحرائه لم تنقطع أبداً وأن تلك العلاقات ازدادت وثوقاً كلما لاح في الأفق خطر أوربي داهم لتلك المناطق، لا سيما بعد الوجود الإيبيري في أرخبيل الكناري في القرن الرابع عشر. ولما آل حكم هذا الأرخبيل إلى إسبانيا بصفة نهائية سنة 1490م سارعت حينها إلى إبادة سكانه الأصليين ومنع لغتهم، ومن هناك لن تتوقف عن استفزاز المغرب في صحرائه الغربية طمعاً في تأمين تلك الجزر، كما لم تتوقف عن مهاجمة السواحل المغربية الأخرى إلى حدود سنة 1927 علماً بأن إسبانيا والبرتغال كانتا متفقتين سنة 1497م على اقتسام الشمال الإفريقي بموجب اتفاقية نسبت إلى البابا الذي قام بالإشراف عليها وتزكيته، ووفق هذا الاتفاق فقد سمح لإسبانيا بإقامة نفوذها شرقاً انطلاقاً من (Peñon de felez) (ما بين سبتة ومليلية). وأما غرب هذه النقطة فهو للبرتغال. غير أن الإسبان لم يلتزموا بهذا الاتفاق وبدأوا مهاجمتهم للساحل الأطلسي المغربي منذ 1497.

وهنا توقف المؤلف طويلاً لدراسة أطماع إسبانيا في جنوب المغرب وتصدي المغرب لها (ص 54-70). وكانت أولى مناورات إسبانيا إقامة مركز مؤقت على الساحل الصحراوي المغربي

قبالة جزيرة لانزاروتي في مكان يسمى سانطا كروز (Santa Gruz). إلا أن القبائل الصحراوية طردتها سنة 1524 واستعملت إسبانيا هذه الإقامة المؤقتة فيما بعد ذريعة لادعاء حقوقها التاريخية هناك. وبعد انتصارها على المغرب في حرب تطوان أملت عليه شروطاً منها إقامة مركز للصيد على السواحل الجنوبية تعويضاً لها عن سانطا كروز (Santa Gruz) مع بقاءه تحت السيادة المغربية.

وبعد اتفاقية 1860 تزايدت أطماع الإسبان فأرادوا الانفراد بأكادير وجنوب وادي نون بالصحراء المغربية لكن المغاربة قاموا في وجههم وتصدوا لبعض التجار الإسبان الذين تجرأوا لتحقيق هذه المشاريع فتم أسرهم لمدة سبع سنوات ولم يتم إطلاق سراحهم إلا في سنة 1874 مقابل فدية مالية مهمة للمغرب بلغت 27.000 بسيطة. وخلال نفس المدة تزايد اهتمام الأوربيين بالساحل الصحراوي المغربي لاعتبارهم له بوابة استراتيجية للدخول إلى بلاد السودان الغربية التصريف منتجاتهم والوصول إلى مصادر الذهب، ومما زاد الساحل المغربي أهمية آتئذ أن ميناء الصويرة (موكادور) استقطب تجارة القوافل الصحراوية، ومنه كانت تصدر إلى أوروبا منتجات بلاد السودان من ريش النعام والعاج والصمغ وغيرها. وأثناء رجوعها صوب الجنوب كانت القوافل تحمل معها أثواب مانشستر وغان (GAND)، والسكر والشاي، والتبغ والملح المستخرج من ملاحات IDJIL وتاودني. وهكذا يمكن القول إن الفترة الممتدة بين سنوات 1858 و 1870 هي سنوات ازدهار التجارة بالمغرب.

وتمسكت إسبانيا بالمطالبة بإقامة مراكز لها في الساحل الجنوبي المغربي فحاولت أن تستميل إليها بعض الزعامات المحلية أمثال آل بيروك بكلميم وآل تزرwalt جنوبي تيزنيت إلا أنها لم تفلح. وإثر ذلك قام السلطان مولاي الحسن بحركته إلى سوس قادته إلى مشارف الصحراء المغربية لاستتباب الأوضاع وتهديتها وثني تلك القوى عن التآمر مع الأجنبي. وهو ما حققه فجدد له قواد المنطقة البيعة.

ولما أصبح التنافس شديداً بين الدول الاستعمارية حول استعمار الأراضي الإفريقية عقدت مؤتمراً في برلين يوم 26 فبراير 1885 اتفقت فيه على القواعد التي على أساسها يتم توزيع المستعمرات الإفريقية. وكان ذلك تشجيعاً لإسبانيا على ترسيخ نفوذها في الأقاليم الصحراوية المغربية فبادرت إلى إقامة منشأة لها في الداخلة لكنها تعرضت لهجوم قبائل هذه الناحية وعلى رأسها أولاد دليم. وقد تكررت تلك الهجمات خلال سنوات 1887، و 1892، و 1894. وكانت إسبانيا كل محاولة تتذرع بحقوق واهية لاقيمة لها في القانون الدولي. وحاولت أن يصادق المغرب على تلك الادعاءات دون جدوى. وطلبت إسبانيا من السيد محمد بن العربي الطريس بواسطة

سفيرها أن يحدث السلطان مولاي الحسن في موضوع حدود المغرب الجنوبية على اعتبار أن إسبانيا "تملك منطقة اسمها وادي الذهب راغبة في أن لا تقيم دولة أجنبية أخرى بين الأمتين" (ص.60). وجاء جواب السلطان واضحاً وصارماً ولا يعير وزناً لادعاءات إسبانيا، وذلك في رسالة مؤرخة في 4 رمضان 1303 هـ (1885م) موجهة إلى الطريس يقول فيها إن "حدودنا في الجنوب تحدها مصر من جهة، والسودان من جهة أخرى ...".

وكان توسع إسبانيا في الصحراء المغربية مصدر قلق لفرنسا التي كانت لها نفس الأطماع في الأراضي المغربية فحرصت على أن تحدد منه وهو ما حاولت أن تضبطه الاتفاقيات المبرمة بينهما سنوات 1900 و 1904 و 1912م.

ولم يقف السلطان مولاي الحسن مكتوف الأيدي أمام هذا التنافس المحموم بين القوى الاستعمارية على المغرب حرصاً منه على وحدة ترابه وتثبيت سيادته على جميع أراضي المغرب ولا سيما في المناطق الصحراوية. ففي سنة 1880 أرسل وفداً إلى أحمد ولد محمد أمير أدرار محملاً إياه هدية وظهير إقراره على تلك المنطقة شاكراً له حسن تدبير أمورها.

وللحد من النفوذ الأجنبي على السواحل الجنوبية فتح السلطان مولاي الحسن سنة 1881 ميناء أنكادير أمام التجارة. ولما تبين أن الحركة التجارية لهذا الميناء ظلت محدودة قام بفتح ميناء آخر جنوباً في منطقة أسكا تلبية لرغبات السكان وتثبيتاً لسلطته عليهم.

وترسيخاً لحكمه في الجنوب قام مولاي الحسن الأول بحركة أخرى إلى سوس سنة 1886 وأقام بتزنيت وبني مراكز عسكرية دائمة بقصبة أيت باعمران وأسكا وكلميم، وأخذ البيعة من شيوخ وأعيان هذه المناطق، وبعدها قفل راجعاً إلى مراكش.

وتمكنت فرنسا خلال نفس الفترة من استقطاب التجارة الصحراوية إلى ميناء سان لوي بالسينغال وذلك على حساب الموانئ الأخرى.

وحينما أصبح الاستعمار الفرنسي وشيكاً على النيجر ذكر السلطان مولاي الحسن بسيادته على مدينة تومبكتو. وقد تأكد ذلك من خلال رفض أعيانها التفاوض مع بعثة الفرنسي كارون (CARON) سنة 1891 معلنين له أنه مرتبطون بسلطان المغرب، وبالتالي فلا يمكن دخول مدينتهم، وعقب ذلك بعث أعيان تومبكتو إلى السلطان مولاي الحسن الأول رسالة يطلبون فيه تعيين عامل على المدينة ولم تتمكن فرنسا من الاستيلاء على تومبكتو إلا في سنة 1894، وباحتلالها أحكمت سيطرتها على المحور الطرقي الهام في تجارة القوافل بين هذه المدينة ومدينة سان لوي. مما

هذا بانكلترا إلى استخلاص العبرة من هذا التطور الجديد فبادرت إلى التخلي عن ميناء فيكتوريا الذي أنشأته على الساحل الصحراوي لصالح المغرب مقابل تعويض مالي مقداره 50.000 جنيه استرليني معترفة بذلك بسيادة المغرب على هذه المنطقة التي كانت قبل ذلك تنازعه فيها. ووضعت شرطاً لهذا التنازل مفاده "أن لا تكون لأية قوة أجنبية أخرى مطالب في الأراضي الواقعة بين وادي درعة ورأس بوجدور"، وهو ما التزم به المغرب طبعاً حفاظاً على وحدة أراضيه. ولإنهاء هذا العرض التاريخي المتعلق بالروابط التاريخية بين المغرب وصحرائه قام المؤلف برصد الجهود والتعبثات الأخيرة التي قام بها السلاطين المتعاقبون على عرش المغرب خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر إلى غاية 1912 أمام هجمات الأوربيين على أراضيه.

وكما هو معروف كان السلطان مولاي الحسن واعياً بالأخطار المحدقة بالبلاد وبتداعياتها الداخلية، فقام على صهوة جواده متنقلاً بين جهات المغرب لإرساء حكمه وخاصة بالأقاليم الصحراوية التي كثف معها الصلات في ظل التحركات الإسبانية، وكانت الساقية الحمراء يومئذ تشهد حركة ثقافية وروحية وسياحية نشيطة بزعماء الشيخ ماء العينين الذي رفع لواء الجهاد ضد النصاري الذين أرادوا استعمار المغرب وأراضيه الصحراوية، وربط علاقات مع علماء شنقيط ورافق السلطان مولاي عبد الرحمان لأداء مناسك الحج، وأثناء رجوعه أقام بتندوف سنة 1857، ومنها انطلق نحو الساقية الحمراء واتصل بقبائل الركيبات، فأمدوه بالرجال الذين كانوا يده اليمنى في محاربة الأوربيين. وشملت تحركاته وادي درعة وأدرار بموريطانيا لإيقاظ السرائر وإذكاء الوعي الديني والسياسي للسكان. وكان لذلك نتائج محمودة إذ ساهمت القبائل إلى جانبه بشكل فعال في ردع الإسبان عن إقامة منشآتهم على الساحل الصحراوي ابتداءً من سنة 1884م.

وكان الشيخ ماء العينين على اتصال وثيق ودائم مع السلطان مولاي الحسن الأول الذي زاره عدة مرات في مراكش ولم يجد صعوبة في إقناعه بأهمية مشاريعه الرامية إلى النهوض بتجارة القوافل الصحراوية وذلك ببناء مدينة تجارية كبرى هي السمارة في الساقية الحمراء التي أراد لها أنت تكون سوقاً تجارية كبرى تبرم فيها الصفقات التجارية بين المغرب ومناطق السينغال وبلاد السودان.

وازدادت تلك العلاقات وثوقاً بين المجاهد الشيخ ماء العينين والسلطان مولاي عبد العزيز الذي جاء لزيارته وتقديم البيعة له أثناء توليه مقاليد المغرب سنة 1894، وتقديراً له وضع السلطان

الجديد رهن إشارته باخرة أقلته من الصويرة إلى طرفاية التي منها عاد إلى السمارة. كما ساهم السلطان مولاي عبد العزيز، بشكل كبير في إتمام بناء المدينة الجديدة السمارة حيث بعث إليه باخرة من ميناء أكادير إلى الساقية الحمراء وعلى متنها كميات وافرة من مواد البناء. كما أرسل إليه المهندسين والصناع من فاس وتطوان وطنجة لبناء قصبة المدينة، والقصبة كما هو معلوم رمز من رموز السيادة على الأرض، لأنها تكون مقراً للعامل والجنود الذين يمثلون السلطة الحاكمة في البلاد. ولربط هذه المدينة الصحراوية الجديدة بشمال المغرب عبر سوس تم شق طريق يربط بينها وبين تافراوت.

وحينما بدأت فرنسا في استطلاع الحدود المغربية الجزائرية وإبداء رغبتها في التوسع في موريطانيا ثارت ثائرة الناس ضد الوجود الأجنبي فدخلت قبائل الركييات إلى تندوف سنة 1895 درءاً لكل اعتداء آثم عليها.

وبعد ذلك لم تتوقف فرنسا عن استفزاز المغرب بذريعة دخول بعض القبائل الصحراوية المغربية إلى أراضي الجزائر فاحتلت بشار سنة 1903.

ونفس المشكل وقع في توات التي لها ارتباط قديم مع سجلماسة، ولما توقف سكانها عن أداء الجبايات للمخزن قام مولاي سليمان بحملة عليها سنة 1808، وبعث خلفه مولاي عبد الرحمان برسالة مؤرخة في 15 نونبر 1823 إلى رعاياه في توات وتيدكلت وأعراب أهناط يطلب منهم بيعتهم. وفي سنتي 1883 و1891 طمأن مولاي الحسن الأول سكان توات بانتماهم إلى مملكته الشريفة.

ومما يؤكد سيادة المغرب على توات ونواحيها ورود وفد منها على السلطان المغربي سنة 1887 يخبره بتهديد النصاري لهم، وكان رد فعله سريعاً بتعيينه لقواد جدد على توات. وقام أيضاً بجمع منطقتي توات والساورة تحت قيادة واحدة (1891). وأعاد تنظيم جمع الجبايات في هاتين الإيالتين سنة 1892.

ولما دخل الجيش الفرنسي إلى بلدة عين صالح (في التراب الجزائري الآن) في شهر مارس سنة 1898 وجدوها تحت قيادة باشا مغربي. وحينما احتلت القوات الفرنسية تباعا توات وتيدكلت ووادي زوزفانا ووادي الساورة خلال سنتي 1900 و1901 بعث السلطان مولاي عبد العزيز وزيره في الحرب المنبهي إلى لندن وبرلين للاحتجاج ضد هذا الاحتلال الغاشم لجزء من أراضيه الشرقية، لكن ذلك لم يجد نفعاً.

ورغم الضغوط الشديدة التي مارستها فرنسا على المغرب سياسياً واقتصادياً ومالياً وعسكرياً فإن السلطان مولاي عبد العزيز لم يأل جهداً في تأكيد السيادة المغربية على جميع ترابه وخاصة في أقاليمه الصحراوية عاقداً آماله على رجالها لرفع التحديات الراهنة، وعديدة هي النصوص التاريخية التي تشهد على المجهودات الكبيرة التي بذلها تجاه الصحراء المغربية. ويتجلى ذلك على وجه الخصوص في :

- تعيين قواد لدى أولاد موسى أوليات، وأولاد علي بتدرارين سنة 1998، ولدى قبيلة مناصرة الإزرثيين في السنة الموالية.

- استقدام القائد محمد الأمين بن عبد الله التكني معية بعض الأعيان إلى حضرة السلطان لاحتياجهم في قضية معينة. وإلى هذا تشير رسالة سلطانية مؤرخة في 2 جمادى الأولى سنة 1318هـ/23 أبريل 1900.

- أمره للقائدين إبراهيم بن بريك الشتوكي التكني ومحمد بن بلال البوسعيدي بمراقبة "سواحلنا من طرفاية إلى رأس بوجدور مراقبة شديدة". وهو ما تفيد به رسالة سلطانية تعود إلى فاتح محرم سنة 1319 هـ/20 أبريل 1901م.

أما بخصوص سيادة المغرب على موريطانيا وتعلق سكانها بعاهل المغرب فقد استشهد المؤلف بنصوص وشهادات بعض المسؤولين والمخبرين الفرنسيين المؤكدة لتلك السيادة. وفي هذا الصدد أورد رسالة مؤرخة في 14 نونبر 1905 كان قد بعثها اليوتنان Moutané-Capdelose مراقب الحكومة الفرنسية في موريطانيا إلى العامل العام على إفريقيا الفرنسية السيد ROUME يخبره فيها أن هذه الرسالة وقعت في يده وهي من إنشاء أحد أبناء ماء العينين بعثها إلى السلطان المغربي باسم مسلمي موريطانيا وتحديداً أولاد عايدة بأدرار، وأهل سيدي محمود، وأهل سويد أحمد وأهل مشدوف طالبين منه التدخل لمنع احتلال بلدهم من طرف الفرنسيين. وتضيف نفس الرسالة أن مقتل Xavier coppolani قائد الحملة الفرنسية على تكانت - أدرار كان على يد أحد أبناء الزاوية الأغضفية التي شدها أتباع والد الشيخ ماء العينين. وتفيد الرسالة أيضاً أن الحكومة المغربية بفضل تدخل ماء العينين لديها حصل سكان أدرار على السلاح الناري السريع والذخيرة.

وورد معطى آخر مهم في ترجمة هذه الرسالة المرفقة برسالة المراقب الفرنسي السالف الذكر، وهو "أن قبائل موريطانيا تصرح أنهم رعايا مغاربة وأنهم وجدوا في كتب أن مولاي إسماعيل توغل إلى أن وصل سان - لوي الذي هو حد إيالاته في الجنوب".

واستمرت التعبئة من أجل وقف الزحف الأوربي نحو الأراضي المغربية في الصحراء. فقام الشيخ ماء العينين بزيارة السلطان رفقة قواد الصحراء لحشد الدعم اللازم للقيام بانتفاضة كبرى ضد الخطر الأوربي. وعقب ذلك عين السلطان مولاي عبد العزيز مولاي إدريس أحد أقربائه خليفة على أدرار والتحق بمدينة السمارة التي غادرها سنة 1905 في اتجاه الجنوب حاملاً معه 14 ظهيراً تتعلق بتعيين أمراء وقواد من طرف السلطان على الصحراء.

ولم يتوقف التحرك المغربي عند هذا الحد لم تصل إلى نتيجة، بل إن السلطان لما تبين له أن مساعيه لإقناع الفرنسيين بعدم إقامة مراكز لهم في موريطانيا بعث إلى قواد موريطانيا يخبرهم أنه على أتم الاستعداد لإرسال الجنود والسلاح إليهم لمقاتلة الأجانب. وتفيد إحدى المراسلات أن هذه المهمة قام بها أحد أبناء الشيخ ماء العينين عند زيارته لخمسة من قواد موريطانيا.

وفي سنة 1906 قام الشيخ ماء العينين بزيارة السلطان بفاس وزوده بالمال والعتاد وقفل راجعاً إلى موكادور مروراً بالدار البيضاء في شهر شتنبر من نفس السنة وارتعدت لذلك فرائص الأوربيين وخاصة الفرنسيين منهم.

إن تحصيل الضرائب والجبايات هي من شارات السيادة، فلما أقام مولاي إدريس بأدرار ورتب أموره أخذ في جمع الضرائب، كما قام بتحصين أطار ودخل بلدة رشيد وأمر الفرنسيين بالجلء عن تجكجة (Tidjikja) ويبدو أن مهمته الدبلوماسية كانت هي إخراج الفرنسيين من موريطانيا باسم السلطان الذي حمّله عدة رسائل في هذا الشأن إليهم.

وتمكن مولاي إدريس خليفة السلطان على موريطانيا من بسط نفوذه على شقنيط وأوجفت (Oudjeft)، كما امتد نفوذه إلى القبائل التي وقعت تحت التأثير الفرنسي معلناً أن السلطان أناط به حكم البلاد وأن ملكية الأراضي إلى حدود نهر السنغال تعود إلى المغرب.

ومما يؤكد الارتباط الروحي لمناطق موريطانيا المتاخمة لنهر السينغال بسلطان المغرب وسلطته السياسية والدينية ما ورد في رسالة مؤرخة في 19 يناير 1907 بعثها السيد Gaillard قنصل فرنسا بفاس إلى السيد REGNAULD وزير فرنسا المفوض بطنجة يخبره فيها أن حسب معلومات توصل بها تفيد أن خطبة الجمعة لا تزال تقام باسم سلطان المغرب في تلك المناطق التي كان يطالب بها.

وتعتبر سنة 1907 سنة عصيبة في تاريخ المغرب في بداية القرن العشرين لفداحة ما حصل خلالها، وذلك بسقوط المغرب بين فكي فرنسا باحتلالها تباعاً لمدينتي وجدة والدار البيضاء واجتياحها لموريطانيا والضغط على السلطان لإجلاء خليفته عنها. ونتيجة للضغوط الخارجية الشديدة وتداعياتها الداخلية اضطر مولاي عبد العزيز للتخلي عن العرش لصالح أخيه مولاي عبد الحفيظ الذي حظي بدعم شعبي واسع أمام عجز أخيه، واعترفت به القوى الاستعمارية سنة 1908 سلطاناً على المغرب، فتابع دعمه للمجاهد ماء العينين الذي حاول أن يتصل به معتبراً السلطان الجديد "سلطان الجهاد". لكنه لم يصل إلى فاس إذ اعترض الجنرال مواني MOINIER سبيله في تادلا يوم 23 يونيو 1910م، ومن هناك عاد إلى تيزنيت ليلتحق بعد ذلك بتافيلالت ويعود منها إلى تيزنيت التي مرض بها ووافته المنية فيها يوم 28 أكتوبر 1910م، وإذا كان ابنه وخلفه أحمد الهية قد تابع مسيرة أبيه الجهادية بنفس الحماسة والصرامة ضد الأجانب فإن ذلك لم يدم طويلاً، حيث أوقفه الفرنسيون على مشارف سيدي بوعثمان شمالي مراكش يوم 6 شتنبر 1912. ودخلت كتيبة موجان (MAUGIN) إلى مراكش في اليوم الموالي، وسنة بعد ذلك احتلت فرنسا مدينة أكادير واستمرت في التوغل جنوباً إلى أن أتمت الاحتلال سنة 1934.

وكانت لدى فرنسا رغبة في الانتقام ومعاقبة رموز المقاومة المغربية لها في الصحراء المغربية فقامت منذ احتلالها لموريطانيا سنة 1913 بالتقدم نحو مدينة السمارة تحت ذريعة ملاحقة مغيرين من الركيبات لمعاقبتهم ثم أغارت عليها ودمرتها ونشرت الخراب فيها، ومع ذلك فقد ظلت هذه المدينة صامدة أمام النفوذ الأجنبي إلى أن تم احتلالها من طرف إسبانيا سنة 1936.

وبإخضاع المغرب للحماية الفرنسية والإسبانية سنة 1912 أدخلت قضية حدوده إلى قاعة النوم : ذلك أن السلطان لم يعد يمارس صلاحياته الدولية التي آلت إلى الدولة المستعمرة بدلاً عنه. وبما أن فرنسا أضحت مسيطرة على الجنوب المغربي وجنوب غرب الجزائر والصحراء الوسطى وموريطانيا، فإنها اعتبرت أمر تدبير هذه الأراضي شأناً داخلياً يهمها وحدها. صحيح أن المقيمين العامين بالمغرب، كما هو الشأن في تونس، كانوا يدافعون عن حدود الحماية ضد تطاول العامل العام لفرنسا في الجزائر، لكن الملاحظ أن الاحتكام إلى الحكومة الفرنسية بباريس كان لصالح عاملها على الجزائر.

وعلى العكس من ذلك، فإن إسبانيا انشغلت بمشاكلها الداخلية ولم تعر كبير اهتمام للمناطق الصحراوية إلا قبيل الحرب العالمية الثانية، علماً بأن حضورها عموماً ظل ضعيفاً إلى غاية استقلال المغرب سنة 1956.

ويتناول ريزيت (R.REZETTE) في الجزء الثاني من كتابه وضعية الصحراء المغربية في السياق العالمي الجديد السائد خلال منتصف العقد الثامن من القرن الماضي مركزاً على مستقبل هذه المنطقة من خلال أربع نقاط رئيسية تتلخص في دور الأمم المتحدة والنوايا الإسبانية وموقف المغرب الرامي آنذاك إلى استرجاع صحرائه إلى الوطن الأم، ثم توقف أخيراً لتحليل مواقف كل من موريطانيا والجزائر تجاه إشكالية تحرير الصحراء المغربية من نير الاستعمار الإسباني.

في تقديمه لهذه القضايا الأربع سجّل المؤلف أن المغرب منذ حصوله على الاستقلال سنة 1956 استعاد ممارسة حقوقه الدولية التي كانت محبوسة الأنفاس داخل الكيان الفرنسي الواسع فيما كان يسمى فرنسا ما وراء البحار. ووجد المغرب صعوبة أمامه في الحصول لنفسه على مكان مريح ضمن حدود موروثة عن الحماية دون مصادقته عليها، فكان عليه أن يراجع نفسه ويحدد تراثه تحديداً حقيقياً.

وهكذا برز في الساحة السياسية المغربية مفكرون ومؤرخون وساسة ينادون بوحدة الأراضي المغربية تماشياً مع تاريخ الدول المتعاقبة على حكمه مطالبين بما سماه المؤلف «Le Grand Maroc» (المغرب الكبير) الذي كان يضم بالإضافة على الصحراء المستعمرة من قبل إسبانيا، موريطانيا وجنوب غرب الجزائر (الصحراء الشرقية). وللتذكير، فلا موريطانيا ولا الجزائر لم يكن لهما بعد وجود كدولتين مستقلتين كما هو شأن المغرب وقتذاك. واستند ريزيت R.REZETTE في هذا الصدد إلى موقف علال الفاسي الذي نادى من منفاه بالقاهرة سنة 1955 بإعادة النظر في رسم حدود المغرب، كما استند على الخصوص إلى ما ورد في الخطاب الذي ألقاه جلالة المغفور له محمد الخامس يوم 25 فبراير 1958 بمحاميد الغزلان بوادي درعة على بعد بضعة كيلومترات من الحدود مع الجزائر، من تنويه بإخلاص القبائل الصحراوية للمغرب، وتأكيد إرادته وعزمه على مواصلة الجهود لاستعادة الصحراء إلى المغرب، وغير خاف أن هذا التصريح هو تحذير لإسبانيا وفرنسا التي خلقت آنذاك إطاراً قانونياً جديداً يضم جميع المناطق الصحراوية (قانون 10 يناير 1957).

وبمجرد ما أصبحت موريطانيا والجزائر تتمتعان بالشخصية الدولية تغير الوضع السياسي وأصبح ههما الدفاع عن حدودهما مما أدى حتماً إلى نزاعات مع المغرب. وإذ ظل المشكل معلقاً بين المغرب وموريطانيا على المستوى الدولي (عدم الاعتراف بها)، فإنه أصبح عسكرياً مع الجزائر

حول الأراضي الواقعة جنوبي وهران وتندوف. وبتدخل منظمة الوحدة الإفريقية (OUA) ثم وضع حد لهذا النزاع المسلح بين الطرفين، وفي سنتي 1969 و1970 تم التوقيع على اتفاقيتي حسن الجوار بين الجارين المتنازعين وهدأت الأمور.

ومن المعلوم أن حل هذا النزاع بين الطرفين تم على أساس المبدأ الذي تبنته المنظمة الإفريقية (OUA) القاضي بالإبقاء على الحدود الموروثة عن الاستعمار، إلا أنه مبدأ تجريبي (Empirique) وغير مقبول فكرياً لأن همّ المستعمر في رسم الحدود كانت وراءه مصالح مكشوفة لم تراع حقيقة تاريخ البلد المستعمر، ذلك أن تندوف مثلاً كانت دوماً مرتبطة بالمغرب عن طريق كلميم من جهة، وتافيلالت من جهة أخرى. وما يؤكد هذا الأمر أن فرنسا كانت تسيّر لها انطلاقاً من المغرب نظراً لسهولة التواصل معها من المغرب، وكذلك كان الأمر في توات. وللدلالة على الترابط القوي بين توات والمغرب تم العثور إلى غاية 1897 على العديد من الرسائل السلطانية إلى رعاياه وإلى السلطات الإدارية في كل من تكجكانت وتندوف، وهنا يحيل ريزيت (R.REZETTE) إلى مرسوم (DECRET) صادر عن الإقامة العامة بالرباط بتاريخ 18 يناير 1935 يستند إلى ظهير سلطاني مؤرخ في شتنبر 1934 متعلق بحقوق الجمارك والاستهلاك يقر بأن تندوف تستفيد من نفس الحقوق التي تستفيد منها باقي القرى المغربية المجاورة.

ويزيد من تأكيد سيادة المغرب على تندوف ما أورده بخصوص وجود كتيبة من الجنود المغاربة هناك إلى غاية 1950، ولاحظ في هذا الصدد أيضاً وجود مكتب عسكري مغربي في Fort-Trinquet بموريطانيا. وللإشارة فإن آخر قائد مغربي بتندوف أقيل لأسباب سياسية سنة 1950، وكانت قد التقت به المؤرخة الفرنسية Odette du Puigaudeau، وهناك إشارة أخرى مهمة تفيد بأن الرسائل في تندوف كانت إلى حدود سنوات 1945-1950 تحمل طابعاً بريدياً بداخله باللغة الفرنسية «Tindouf-Postes cherifiennes».

أما فيما يتعلق بموريطانيا فهي الأخرى كانت تحت السيادة المغربية على حين دخول القوات الفرنسية إليها سنة 1913. وأتى الباحث في هذا الصدد بما يفيد ذلك حيث إن ولد عايدة أمير أدرار الذي كان من أتباع ماء العينين، كتب سنة 1904 إلى الفرنسي كوبولاني (Coppolani) يخبره أن منطقة أدرار هي منطقة تابعة للنفوذ المغربي وأنه سيلتزم الهدنة مع الفرنسيين طالما التزموا بها مع العاهل المغربي. وحاول الفرنسيون استمالته دون جدوى فاستمر في مساندته لآل ماء العينين، والتحق بالركييات يقاتل معهم الفرنسيين إلى أن قتل سنة 1932. وقد جاءت الاتفاقية المبرمة بين المغرب وألمانيا يوم 4 نونبر 1914 مؤكدة أن "المغرب يشمل جزءاً من إفريقيا الشمالية" يمتد بين الجزائر

وإفريقيا الغربية الفرنسية مروراً بالمستعمرة الإسبانية في وادي الذهب". ولم يفت ريزيت (R. REZETTE) أن عقب على هذه الاتفاقية قائلاً إن للمغرب ما يكفي من الأدلة على سيادته على موريطانيا دونما حاجة إلى اللجوء إلى هذا الدليل، علماً بأنه لا يوجد بين السنغال والمغرب كيان جغرافي وسياسي وبشري قائم الذات ومنسجم يسمح بإنشاء دولة حقيقية. ويبدو أن بعض الشخصيات السياسية الموريطانية البارزة في عقد الخمسينات والستينات من القرن الماضي اقتنعت بهذا الواقع وتمسكت بمغربية موريطانيا حفاظاً على وحدة المغرب التاريخية. وكان من جملة تلك الشخصيات محمد المختار ولد بابا، والداي ولد سيدي بابا، وحرمة ولد بابانا الذي كان ممثلاً لموريطانيا في الجمعية الوطنية الفرنسية. وكان هذا الأخير قد شجب بشدة سلوك الاشتراكيين الفرنسيين الذين استنكروا الخطاب التاريخي الذي ألقاه الملك محمد الخامس بطنجة في أبريل 1947. ورد على أولئك المنتقدين بقوله : "إنني من رعايا جلالته وممثلاً لموريطانيا التي هي جزء من إمبراطوريته".

هذا وجدير بالذكر أن المغرب منذ حصوله على الاستقلال خصص حقيبة وزارية لموريطانيا والصحراء إلى حدود سنة 1968 تحولت إلى كتابة دولة في بداية العقد السابع من القرن الماضي.

وكانت الوضعية القانونية التي كانت عليها الصحراء المغربية في منتصف السبعينات من القرن الماضي آخر نقط ناقشها ريزيت (REZETTE) في هذا الكتاب ملاحظاً أن إسبانيا لن يطول بقاؤها في الصحراء نظراً لتزايد الضغط الدولي عليها وأنها ماضية في حرك مؤامرات كان المغرب واعياً بخطورتها، سيما وأنها ترمي إلى خلق كيان يكون تحت نفوذها وتحت إمرتها. ومن طبيعة الحال تصدى لها المغرب بقوة وحنكة كبيرة على المستوى القاري والدولي مطالباً بحقوقه الجغرافية والتاريخية والقانونية، وتحولت القضية من بعدها السياسي إلى أبعادها التاريخية والحقوقية وتم الاحتكام إلى محكمة العدل الدولية بلاهاي بتزكية من المنتظم الدولي. وكان المؤلف ضمناً - وفق تحليله السابق - يتوقع أن يكون حكمها إيجابياً لصالح المغرب. وبالفعل كان الأمر كذلك.

الخاتمة :

أنهى ريزيت (R. REZETTE) دراسته هذه ببعض الخلاصات الهامة لعل أبرزها :

- 1- أن المغرب كان مصمماً على استرجاع صحرائه مهما كان الأمر، دعامته في ذلك مناعة الجبهة الداخلية التي استطاع الملك الراحل الحسن الثاني خلقها من ورائه.

2- أن حل القضية لن يكون إلا توافقاً نظراً لتباين مصالح الأطراف المعنية التي عليها مع ذلك أن تضع في الحسبان حقوق المغرب التاريخية المشروعة في أرض الصحراء لأنها امتداد لجغرافيته والتي لم يتوقف يوماً ما في التأثير عليها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً. وبالتالي فالمغرب هو البلد الأقوى ارتباطاً بالصحراء.

3- تميز المغرب بحفاظه على شخصيته الدينية والثقافية طوال تاريخه. وكذا التعلق بالسلطان رمز الوحدة السياسية والمذهبية. وتشكل البيعة خيطها الناظم الذي يجمع بين الرعية والسلطان في جميع مناطق المغرب : سهوله وجباله وصحاريه.

4- وبشريا، فالمغرب هو البلد الأكثر قرابة من الصحراء، إن المجهودات المبذولة في مجال التعليم والصحة إضافة إلى المزايا العرقية المميزة للشعب المغربي الذي امتزجت فيه بانسجام الأعراق الأمازيغية والعربية، كل ذلك يؤهل المغاربة أن يجعلوا بلدهم - في أقرب الآجال - بلداً متطوراً.

5- أن موريطانيا باكتسابها للشرعية الدولية بعد استقلالها أصبح لها اهتمام بالصحراء المغربية إلا أن اهتمامها يبقى محدوداً جداً بالنظر إلى كونها هي نفسها كانت في السابق أرضاً مغربية. أما الجزائر فليست لها مصلحة شرعية في الصحراء المغربية ما عدا تأمين حدودها الغربية التي اعترف بها المغرب وذلك حسب تسوية منظمة الوحدة الإفريقية (OUA).

6- أن التدخل الأوربي في الصحراء المغربية نتج عنه حتما مقاومة شديدة وتوثيق عرى ارتباط الصحراويين بالمغرب.

7- إذا كان المغرب هو البلد الوحيد الذي له حقوق السيادة على الصحراء المغربية، فإن ذلك لا يشكل عائقاً لإيجاد حل يأخذ بعين الاعتبار انشغالات البلدان المعنية. ومن الأهمية بمكان طرح القضية وفق أسس قانونية وتاريخية حقيقية. وهذا الطرح هو الذي يجب على المغرب التمسك به لأنه هو الكفيل بإقناع الغير بحقوقه المشروعة في أراضيها الصحراوية.

إن أهمية هذا الكتاب تكمن أولاً في تحليله العلمي الرصين، المبني على معطيات جغرافية وتاريخية وبشرية واقتصادية وقانونية وثقافية عديدة لا يرقى إليها الشك وذلك في أسلوب واضح. ثانياً إظهاره، اعتماداً على تلك المعطيات، الترابط العضوي الحقيقي الذي كان ولا يزال بين المغرب وصحرائه، ومما تجدر الإشارة إليه أن على الباحثين المغاربة أن يزدادوا في استقصاء البحث في هذه العلاقة بالذات إغناءً للمعرفة التاريخية بمزيد من الدراسات العلمية الجادة من

طينة دراسة الأستاذ روبير ريزيت (Robert REZETTE) التي تستحق التعريف بها أكاديميا وديبلوماسيا خاصة أنها من إنجاز باحث أجنبي مرموق.

وأخيرا أعتقد أنه آن الأوان لإطلاع الناشئة المغربية الصاعدة على حقائق تاريخ بلدهم ومدى ارتباط الصحراء به ارتباطا متينا منذ القدم درءا لمغالطات الخصوم وتقوية لشخصيتهم المغربية.

بقاۃ شعرية

مغرب الأمجاد

الشاعر محمد الحجوي
سلا

وترعاك من شرّ عنايةً رحمان
سموت سموّ العز في أمن سلطان
تقوم على أركان تقوى وإيمان
فما وهنوا يوماً لإعلاء بنيان
ل محكم آيات الكتاب ببرهان
يردهم شيء لتحقيق إحسان
حماة لأعراض وجندا لأوطان
وأيد تجلّت في براعة إتقان
دعائمها فكر بأنوار عرفان
على نهج أسلاف هم خير إخوان
ورشد قويم من تعاليم رحمان
وهذا تراث من علوم وعمران
تكلّ سواعد لإرساء بنيان
وحلم أصيل في كهول وشبان
فنالوا جزاءهم بخزي وخذلان
لعز شهيد رافض ذلّ إذعان
فغندهم اليقين عن سر فرسان
تفوح بريحان وأزهار عدنان
بلحن شجي رقّ في فم أكوان
ومجدك عاطر كأزهار أفنان

تدوم لك الأمجاد يا فخر أوطان
بدين حنيفي ووحدة مذهب
وكنت - وما زلت - المصون عقيدة
بأشبالك الحماة عزك دائم
أقاموا تعاليم الشريعة من أصو
علا شأنهم في كل مكرمة، فما
تراهم إذا حلت مصائب بالحمى
عقول تنير كل حالك ظلمة
وفي كل شبر منك رمز حضارة
فيا وطن الأحرار نلت المنى، فسر
ففي كل ما دعوا إليه هداية
بعقل وفكر ناضج كان نهجهم
رجال بناء سعيهم دائم، فما
يديرون أمرهم بعقل وحكمة
أراد الغزاة الحاقدون هوانهم
وفي كل هضبة وسهل حكاية
سلوا إخوة الفيحاء عن صولة لنا
دماء روت أرضا بعشق لشهادة
مآثرنا أنغام مجد تردّدت
تدوم لك الأفراح ما عشت يا وطني

عرش الأمجاد

الشاعر عبد الحميد بنزونة

منشدا للعرش أسرار الوجود
 في سما تلك الثريا والبنود
 وصنعنا دولة ترعى العهود
 وترى عز المعالي في صعود
 تكره الظلم وأسباب الجمود
 ليعم اليمن إنسان الوجود
 ذكرا أو عدله يحمي الحدود
 هو شبل يقتفي سير الأسود
 ليكون العيش رغدا في الوفود
 هكذا الآباء عاشوا والجدود
 نبذ أسباب التنائي والصدود
 انشأوا صرحا من الفكر الولود
 في الدراسات وفي كل البنود
 أظهروا في كل هذا ما يسود
 بينوا الحجة فيها والشهود
 بذلوا في نشره كل الجهود
 تخطب السعد وآمال السعود
 لم تزلزل أرضها تلك الرعود
 أنها القدرة تمشي في صمود
 الذي يجتاز أعماق النجود
 ليكون الخصب دوما في صعود
 سادس الأنجاد ذو القلب الودود
 وهو يكسو شعبه أغلى البرود

عزف التاريخ ألحانا
 ذاكرة أمجاده فوق الذرى
 منذ إدريس ارتقينا أنجما
 تنشر الإسلام دينا في الورى
 تبذل الجهد وتبني أنفسا
 ترفع السلم سلاما في الدنى
 كل فرد مغربي ههنا
 يحفظ العهد أميننا مخلصا
 ينشئ الحق ويرعى نبتة
 في الأهالي في الرعايا كلهم
 همهم خلق التآخي في الورى
 من خلال العرش هذا شيدوا
 قدموا للناس نهجا رائدا
 سبروا علم المعاني عمقه
 فسروا آيات ربي كلها
 ألفوا في كل علم ههنا
 أمة سارت بعهد راسخ
 لم تزعزعها العوادي في البناء
 في ظلال العرش هذا أثبتت
 أنها ذاك الطموح المرتضى
 يكسر الصعب وأسباب الضنى
 أمة منها اهتدى نور الهدى
 منذ أن بويع ملكا ماجدا

عرشه دوما على مركوبه
يفتح الأبواب ينمي أرضه
يبدل الجهد ويهدي وقته
ليعيش الكل في بحبوحه
ليس فيها مملق يعلو الثرى
قد رأيناه أبا في عطفه
يكفل الأيتام يرعى ضعفهم
والمعاق اليوم أضحى عنده
مدحجا يحيا سويا عاديا
بل نراه ساميا بين الورى
يسمع العالم صوتا رائعا
فاحفظ اللهم هذا المرتضى
من نراه في المعالي ماجدا
وأدمه محسنا يعطي المنى
واجعل العين ترى في نجله
فولي العهد هذا عندنا
وكذا الصنو الرشيد المجتبى
واكتب اليمن لآل المصطفى
وصن المغرب حرا منتجا
فبنوه كلهم أهل الإبا

في الرواسي والبوادي والنجود
باقتصاد واعد ينفي الركود
ليذوق الكل أثمار السدود
أربه فيها رحيق من ورود
ليس فيها من شقي أو كنود
يبعد المحتاج عن كل الشرود
في المأوي شخصه دوما يجود
في الحجى يحظى بآمال الوعود
ليس من نقص يراه في الوجود
يحصد التبر الذي منه النقود
لبلاد هي إرث من جودود
ملكنا هذا الذي يحمي الحدود
ينثر الأمجاد في وجه الوفود
في المساعي والمباني والحشود
منية النفس التي تنهي الحسود
فرحة القلب وآمال الحمود
من يرى أزرا متينا في الجهود
فهم الأشراف في كل العهود
يركب العز وأسباب الخلود
ونساه سيدات في الوجود

نداء إلى الكتاب والباحثين

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق الكتاب والباحثين إلى المساهمة في الملفات العلمية التي ستخصص لها أعدادها القادمة، وهي كالاتي :

- الرسول ﷺ في الدراسات المعاصرة
- الفنون الإسلامية بالمغرب
- العمارة الدينية بالمغرب
- المسكوكات الإسلامية
- الخزانات العلمية بالمغرب

شروط النشر بالمجلة

- تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية :
- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلماً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
- أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة إليها.
- ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 15 صفحة A4.
- في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
- في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
- تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
- ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني. مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

فهرس العدد

7 افتتاحية العدد

إمارة المؤمنين : المشروعية والمسؤولية

مفهوم إمارة المؤمنين والملكية في المغرب

11 ذ. عبد السلام فيغو

مرونة الإسلام في التوافق على اتباع الإمام

35 ذ. الحسن بوقسي

الإمارة والاستشارة : من التواصل الفاعل إلى التشاركية المتواصلة

45 ذ. عبد الوهاب الجاي

إمارة المؤمنين حفظ للدين والدنيا

53 ذ. عبد الرزاق وورقية

خصوصية الفكر الديني بالمغرب النموذج المغربي والسياق الأوروبي

61 ذ. عبد الحميد العلمي

إطلالات تاريخية عن الأندلس

الحضارة الأندلسية في عصري المرابطين والموحدين

75 ذة. حياة شتواني

المرأة الأندلسية والكتابة

87 ذ. محمد المغراوي

فُقهاء الأندلس ومنزلتهم العلمية والاجتماعية

95..... ذ. أنور محمود زناتي

السكة بمملكتي قرطبة وغرناطة خلال القرن الخامس الهجري

107..... ذة. أسماء الدرايدي

الاستعراب الإسباني في خدمة الأدب الأندلسي

119..... ذ. جميل حمداوي

قراءات

الصحراء المغربية من خلال بعض الدراسات التاريخية : دراسة الأستاذ روبر ريزيت نموذجاً

133..... ذ. محمد حمام

باقة شعرية

مغرب الأماجد

155..... ذ. محمد الحجوي

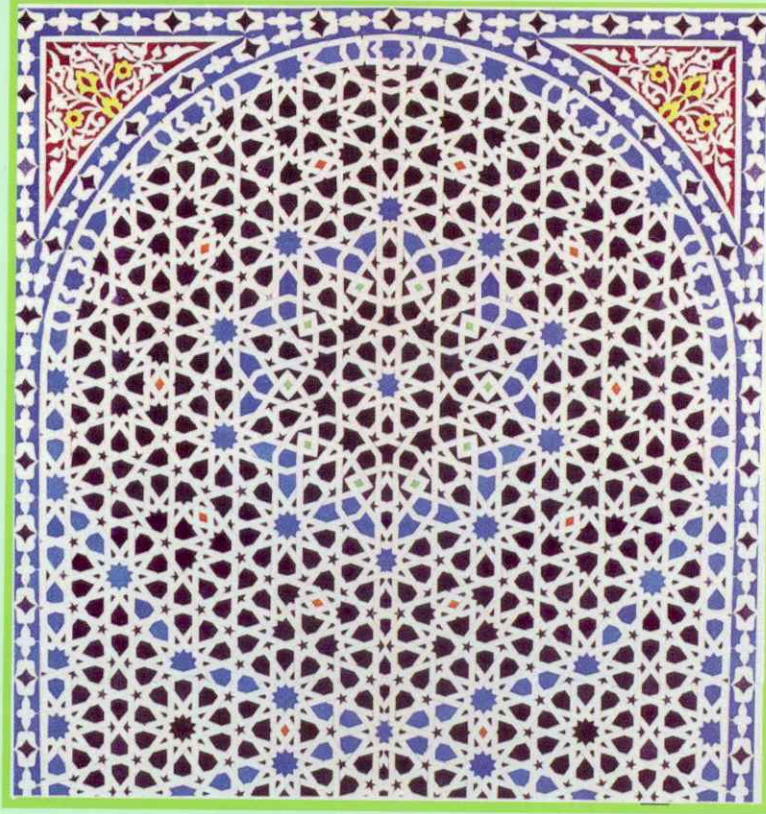
عرش الأماجد

156..... عبد الحميد بنزوينة

159..... فهرس العدد

This image shows a page from a manuscript, likely a liturgical book or a collection of prayers. The page is characterized by a wide, decorative border composed of repeating floral and geometric motifs in red, green, and gold. The central text is written in a stylized, cursive script, possibly Arabic or Persian, arranged in several lines. The text is accompanied by small, colorful dots and lines, which may represent musical notation or decorative elements. The overall appearance is that of a highly decorated and carefully written document.





دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعمر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية